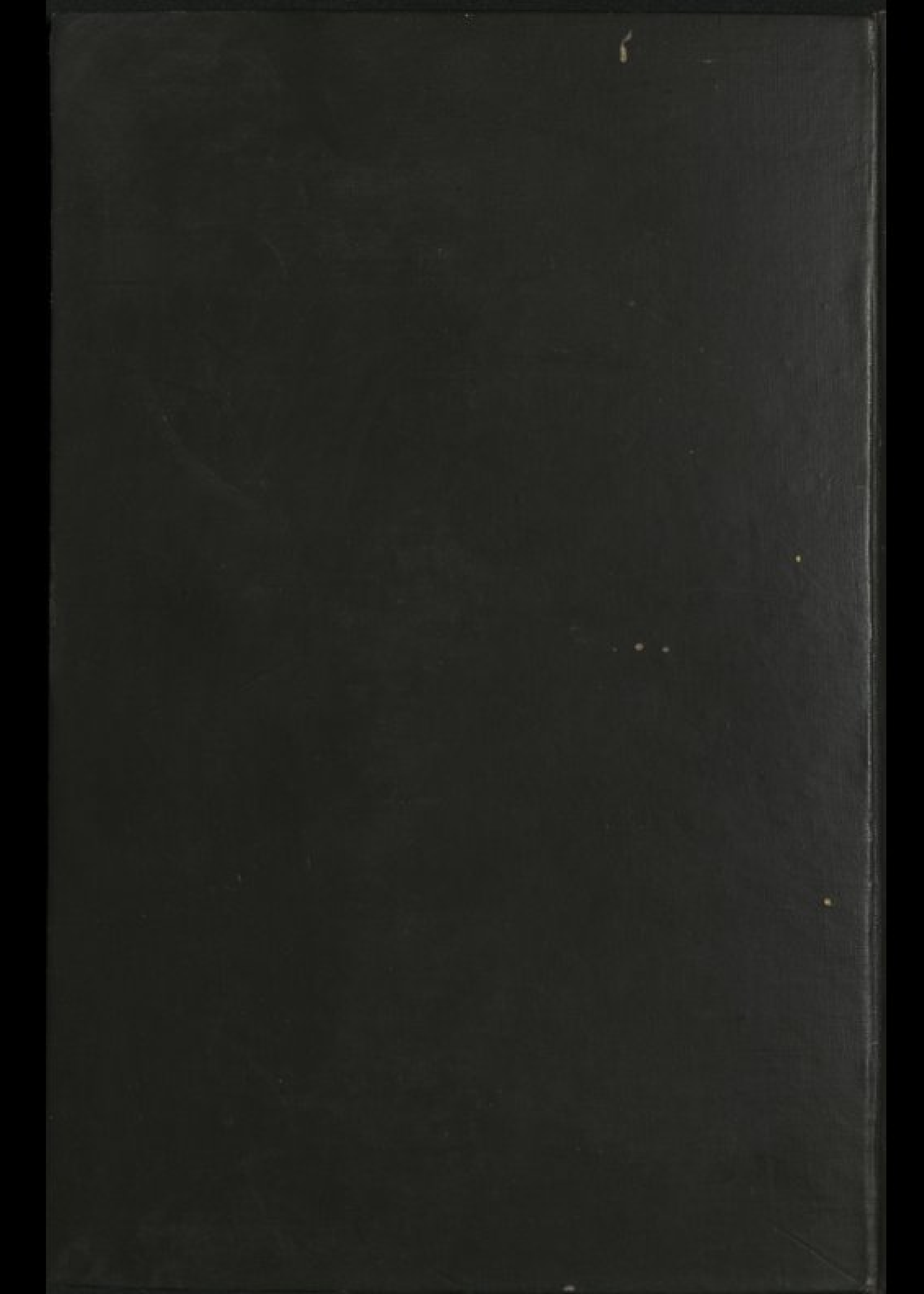
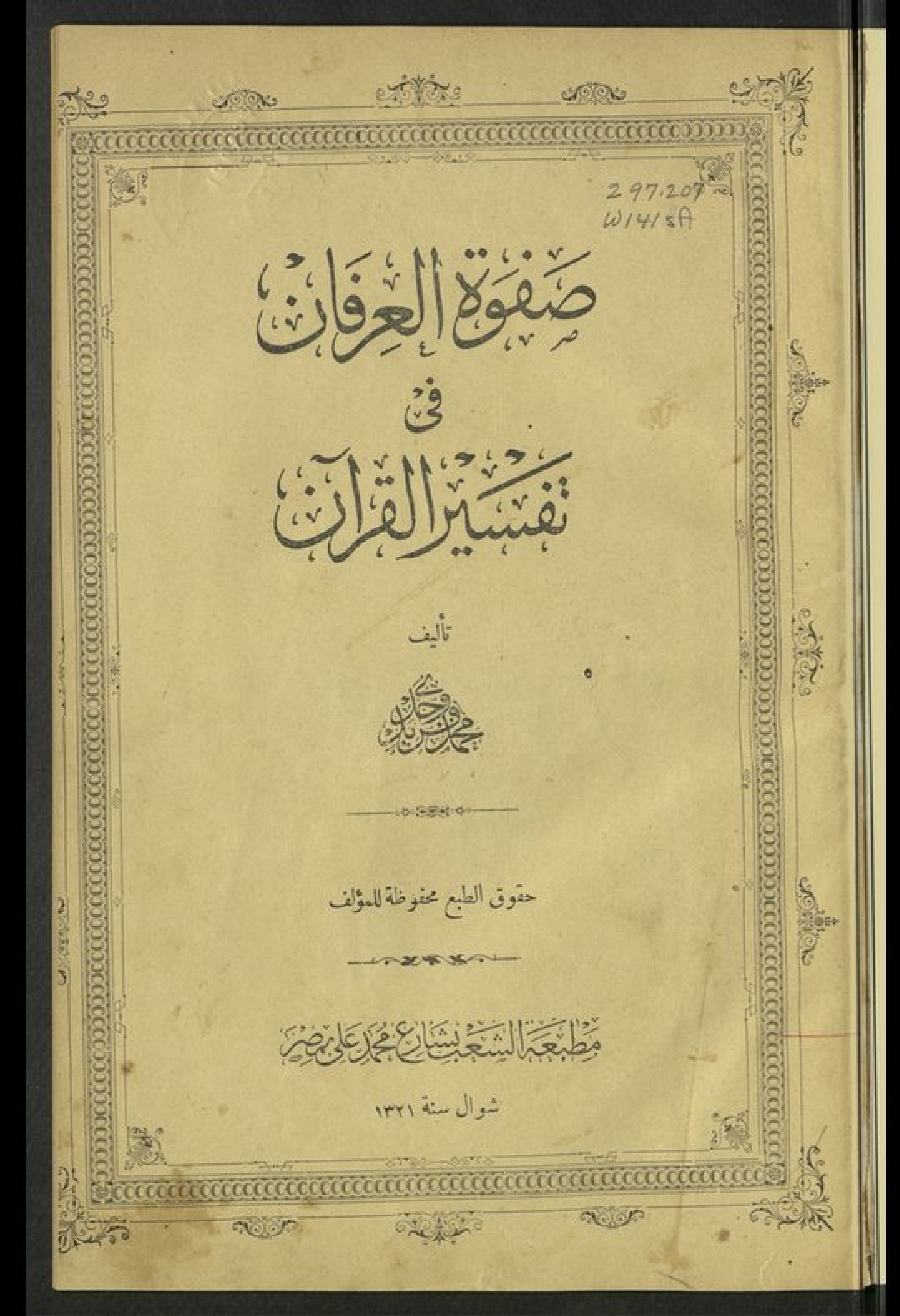




صفوة العرفان في تفسير القرآن

تأليف

محمد فريد وجدي

مطبعة الشعب بشارع محمد علي بمصر

شوال سنة ١٣٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل القرآن من فيض رحمته ، وجعله هدىً للسالكين الى حضرته ، ونوراً للأرواح تسبح في سبحات بهجته . وربيعاً للقلوب تسرح فى روضته ، وشفاء للصدور تستشفى بحكمته ، وزماماً للفكر في شطحه وجولته، وقيادا للعقل فى جمحته وصولته، وطهوراً للعلم من عتوه وشرته ، وملاكا للعالم فى خطته ، ومحاراً للمفكر فى حيرته ، ومناصاً للفيلسوف من ورطته ، ودستوراً للحاكم فى حكومته ، ونظاماً للمحكوم في مهنته ، وحياة للعالم برمته . (أحمده) حمد مقر بالعجز عن شكر نعمته ، معترف بالتقصير عن القيام بواجب عبوديته ، (وأصلى وأسلم) على صفوة خليقته ، وتتمة ابداعه فى صنعته ، وجمال الكون وزهرته ، وكمال الخلق وخلاصته ، وترجمان الحق وخليفته ، ورسوله الى العالمين بكلمته ، (محمد) نور الوجود وخيرته ، وعلى آله وصحابته ، وحزبه وعترته ، الى يوم الدين آمين

(اما بعد) فلا يخفى على مسلم من أىّ طبقة كان أن القرآن الكريم هو كلام الله الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم نوراً وهدى لخير أمة أُخرجت للناس وهى الامة الاسلامية ، وان هذه الامة قبل ان يجيئها هذا الكتاب الكريم كانت قبائل متشتتة ، لاتجمعهم صلة دينية ، ولا مصلحة اقتصادية ، ولا تضمهم رابطة سياسية ، شغلهم الحروب والغارات ، وديدنهم توارث العداوات ، ان نظرتهم من وجهة اجتماعية وجدتهم على أبسط درجات الاجتماع الانسانى : قبائل متبدية ترحل من محلة الى أخرى طلباً للمراعى الخصبة وارتياداً للمياه العذبة ، وهم من التفاصل والاستقلال بحيث تتقد بينهم نيران الحروب عشرات من السنين من جراء سبق حصان . او خيانة في رهان . وان واجهتهم من جهة

اقتصادية رأيتهم على أدنى الحالات منها : جلُّ مالهم الابل والنعم يتنقلون بها من مرعى الى آخر يتغذون من لحومها وألبانها ويتدثرون وبارها وأصوافها لايعرفون التجارة الا اسما ولا يفهمون التعاوض الافيما بين أيديهم من حاجات الحياة الضرورية، اللهم الاقليلا من رجالاتهم الذين كانوا يحملون بعض السلع العربيــة من مكة والطائف ويثرب الى بعض قرى الشام واليمن فيجتلبون بدلها من اشياء تلك البلدان حليا وأقمشة وانواعاً مما يقتضيه ترف الحياة المدنيــة .
أما من عداهم فكانوا على مانصف من خشونة الملبس والمسكن. وجشوبة الحال والمال

ولو شارفتهم من حيثية علمية لرأيتهم على أبسط مايتصور من حالات الجهالة : لم يهتموا بتعلم القراءة والكتابة ولم يلتفتوا الى مايبعد بهم عن العلم بالمحسوسات التى بين أيديهم لم يؤثر عنهم أنهم عرفوا فنا من الفنون ، او برزوا في فرع من افرع المعارف الانسانية ، اللهم الا الشعر فلقد كانت لهم فيه ملكة عالية ، صقلتها لهم طبيعة بلادهم الطيبة الهواء الصاحية السماء. ولكنك لو استعرضته لعقلك لما رأيت فيه من جهة الخيال الذي هو روح الشعر وحياته كبير شيء فما هو الا تشبيهات بالمحسوسات ، وإلمات الى المجسمات وحكم أفادتها التجارب. وأكسبتها للشيوخ المصائب ، أما مايطير بالنفس من الشعر في آفاق الاحلام ، ويجول بها من عالم المعانى فى حدائق ذات افنان ، ويعاطيها من رحيق الخواطر والامانى جرعا ذات معان فليس فى الشعر العربى منه شيء الا فى كلام المولدين بعد ظهور الاسلام وتلألؤ مدنيته الزاهرة فى آفاق المعمور . أما مايأخذ بنفوسنا اعجاباً وإكباراً للشعر العربى القــديم اليوم فهو عراقته فى العربية ، ونغمته البدوية ، وجزالته اللغوية ليس غير. ثم لو استعرضت حالتهم من وجهة صناعية لرأيتهم منها بالمكانة الدنيا . وماذا ترجى من الصناعة فى قوم يبوئهم الشعر لايكادون يسكنون الى جناب حتى يزعجهم الجدب الى جناب آخر . اللهم الا اهل مكة والطائف ويثرب فقد كان لهم منها مايقيم بعضاً من حاجياتهم الضرورية ولكنهم من جهة عمومية يحتاجون لجلب مايلزمهم من الشام واليمن فى كل حين

ولو لحظتهم من جهة سياسية لما وجدت لهم أدنى علاقة بالبلاد الخارجية من حيث اتحاد واتفاق ، او عهد وميثاق ، لا لأمر غير كونها قليلة الاهمية فى نظر الامم جمعاء وليس لها من الشؤون مايجعل لها وزناً في ميزان السياسة العام قال المسيو (جول لابوم) فى مقدمة

الفهرست التحليلي الذى وضعه للقرآن الكريم باللغة الفرنساوية مايأتى [1] (ومع هذا كله كان هنالك ركن من اركان الارض لم تصبه لفحة من هذه الحركة — يريد الاضطرابات السياسية التى المت بالعالم فى القرن السادس — ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الامم التي كان يقال انها متمدنة ، ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى اوروبا الا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللغط الا في غاية الضعف والضآلة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة اخبار الانتصارات او الهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا الى تبعية امبراطورة القسطنطينية تبعية اسمية او رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها ، على ان ذلك الوادى الاخير كان يهم بلاد العرب جداً لأن ابناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لهافيه ابناء استعمروا الشاطئ الغربى من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين وما يشبه المساتير الدينية فانها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم يجلوا عنه تماماً الا بعد ان انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حيث استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم ، اما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة، اما الجهة الشمالية من افريقيا التى اغاروا عليها بعد مرتين والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحلمون بوجودها » انتهى

---

(١) هنا يحسن بنا ان ننبه قارئنا الى هذه المسئلة وهى : اننا كثيراً ما نستشهد فى هذه المقدمة بأقوال بعض العلماء الاجانب ، لا اعتزازاً بهم ، أو اطراء لآرائهم ، أو اتخاذاً لهم أعلاماً للدين ، بل غرضنا ان يكون كلامنا أبلغ فى الحجة وألصق بمقاتل الخصم المعاند . فان حجة الذي يستشهد بعدوه فيشهد له صاغراً ، أدمغ من حجة الذى يستشهد بأخيه أو ابن عمه . وعلى هذا الاسلوب جرى أسلافنا فكل التفاسير وكل كتب السيرة المحمدية مستشهدة بأقوال المشركين وغيرهم ممن شهدوا للقرآن بالاعجاز والبلاغة والحكمة . هذا ما نود أن يعرفه كل من يلاحظ علينا كثرة استشهادنا بأقوال الاجانب.

هكذا كان حال سكان الجهات الوسطى والحجاز من الاستقلال وعدم العلاقة بالامم الخارجية . أما من تطرف منهم فى الحدود الشمالية والشرقية فقد وقعوا تحت سلطة الامم المجاورة لهم قال (جول لابوم) المتقدم ذكره نقلا عن المسيو (كوسان دوبرسوفال) في كتابه تاريخ العرب ما يأتي : « ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا فى الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم فكان عرب سوريا دائنين للرومان. أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بنى حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر انها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها فى الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذى لا غبار عليه » انتهى

هذا كان شأن هـذه الامة من الوجهات السياسية والصناعية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو شأن كانت عليه من عهد تكونها الى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم اليها ، فلم تتغير عنه في قرن من القرون ، ولم تحول عنه في جيل من الاجيال ، وها هو تاريخها أصدق شاهد

نزل القرآن الى هذه الامة بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تلبث الا سنين قلائل حتى رأيناها نهضت نهضة الاسد تتلألأ حياة ونوراً ، وتتجلى أخلاقاً وشعوراً ، ثم جالت فى العالم جولة القوي العادل ، وصالت صولة القادر العاقل ، واذا بها أمـة الامم ، وصاحبة العلم ، وربة السيف والقلم ، وكاشفة الغموم والغمم. وجالية الظلم والظلم. بل محيية الرمم. بأى واسطة حصل كل هذا التغير الفجائى الذى أدهش العالمين ، وبهر الناس أجمعين ؟ بمحمد صلي الله عليه وسلم الذى أوحي اليه هذا القرآن فجعله دستوراً لنفسه وأمته ، واماماً لأموره وأمور رعيته . فكان من هذا الامر ما كان مما لو أحفينا الاقلام، وأجهدنا الافهام. لعجزنا عن وصف بعضه ، فما بالك بكله ؟

هذه الامة التى عرفت مبدأها ووقفت على كنه خلافتها فى الارض ، والتى لم يزل تاريخها لليوم زهرة التواريخ وزينة المكاتب ، وآثارها في القلوب والعيون أكبر الآثار وأعظم المشاهد ، حيت بالقرآن وتحركت ، وبه أبصرت وأدركت ، وبه تهذبت وتخلقت ، وبه التأمت واجتمعت ، وبه تضافرت وتساعدت ، وبه صحّت وأخبتت ، وبه صامت

وركعت ، وبه حجت واعتمرت ، وبه قامت ونهضت ، وبه حاربت وسالمت ، وبه عاهدت وناقضت ، وبه خالفت ونابذت ، وبه بحثت وتعلمت ، وبه دوّنت وألفت ، وبه هدمت وبنت ، وان اردت التعبير بلسان هذا الجيل فقل : وبه ترقت وتمدنت ، وبلغت ما بلغت

اذا كان الامر كذلك فالقرآن روح الامة وحياتها ، وبه وجودها وقوامها. فأين نحن اليوم من هذا القرآن ، وما الذى حال بيننا وبينه من زمان ؟

يصيح صائح : تأخر المسلمون ، تقهقر الموحدون ، غُلِب المتدينون ، أُسِر المصلون الصائمون ! وينوح نائح :ذهبت الاخلاق ، فترت الهمم ، ماتت العزائم ، طاشت الاحلام ، كسدت العقول ، تراخت الروابط ، ثلمت العواطف ، ! ويندب نادب : ضاعت الامة . كلَّ المرشدون ، يئس الاطباء النطاسيون ، قنط الراجون المشفقون ، ذهب الدين. ذهب الدين ! والامة بين هذا وذاك تألم ولا تعرف الدواء، وتئن ولا تهتدي لمواقع الداء ، تتحرك ولكن بغير نظام ، وتحس ولكن بغير روية ، وتنطق ولكن بغير صواب ، وتنظر ولكن بغير نور ، وتطلب ولكن بغير عقل ، وتشكو ولكن لغير طبيب ، وتسير ولكن على غير هدي ! ما هذا الخطب الجلل ، ما هذا الحادث الكبار ، ما هذا الشأن العجاب ؟ ما الذى أحال هذه الامة الى هذا الحضيض ، ما الذى أنزلها الى هذا الدرك ، ما الذى شككها فى حياتها ، ما الذى أيأسها من ذاتها ، بعد ان كانت كيت وكيت مما لو اردت وصفه لنضب الخيال على سعته ، وغاض بحر الشعر على غزارة مادته

لمَ تنظر ولا تبصر ، لم تشعر ولا تعقل ، لمَ تحس ولا تحفظ ، لمَ تقول ولا تفعل ، لمَ تقوم ولا تثبت ؟ ماذا سُلِب من مواهبها ، ماذا ضاع من ملكاتها ، ماذا اختل من تركيبها ماذا اضطرب من أجزائها ، ماذا فقد من عناصرها ، ماذا غاب من مقوماتها ، ماذا فسد من كيانها ؟

ان كنت تعجب من ارتكاس امتك الى هذه الحال بعد أن كانت سيدة الامم ، بل محية الرمم ، فأنا أعجب من عجبك ليس الا ، اما الامة فلا عجب من تأخرها وتقهقرها ، فانها لم تتبع فى ذلك الا السنة الطبيعية « ولن تجد لسنة الله تبديلا » وكيف تقوم بغير قرآنها وتحيا بدون روحها ؟

أنت تعرف أن منزلة القرآن من هذه الامة ومكانته من حياتها هي ما وصفت لك قبل قليل من الاسطر ، فكيف تفلح بدونه ، أو تنتعش من وهدتها بشيء خلافه ؟

لعلك تقول وكيف حييت وتحيا الامم الاخرى وقامت على قطبها بدونه ؟ نقول . ان لكل حياة اجتماعية سبباً أصلياً ، ولكل امة روحاً خاصة بها تغار عليها ، وتموت دفاعاً عنها ، وامتك هذه سبب حياتها القرآن وروحها الاسلام ، فكيف يمكن ان تحيا بدونهما ، او تساوي الامم وهي من الانقطاع عنهما على ما ترى من خاصتها وعامتها

القرآن كما كان عند آبائنا الاولين دستور الشخص الواحد في جميع اموره . يأخذ نفسه بآدابه ، ويحيي فؤاده بآياته ، ويوقظ عواطفه بترغيبه ، ويسكن جماته بترهيبه ، ويرتفع به نحو خالقه ، ويعامل الناس على موجبه ، كان كذلك للامة في مجموعها ، فمنه أخذت قوانينها ، وعليه قاست عاداتها ، وبه قامت على قطبها ، وبنفحته جرت في مدنيتها ، وخلاصة القول انه كان بالنسبة للفرد حياة فؤاده ومادة شعوره ، وكان بالنسبة للامة روحها الاجتماعية ، وحافظتها الرئيسية . فأين نحن من ذلك اليوم

انا جعلنا قراءة القرآن لمحض التبرك في المنازل ، او لاستجلاب الرحمات في مقاصير المقابر ، او للتحزن به في سهرات المآتم ، لاحظ لنا منه الا ترديد الكلمات ، وسرد الصفحات ، أوسماع الاصوات ، والاهتزاز للنغمات . أما السبح في معانيه العالية ، واستشراف مغازيه الغالية ، والوقوف على أسراره وحقائقه التي احيت آباءنا من القدم ، وجعلت منهم خير الامم ، فلا حظ لنا منه اليوم ، وقد استوى في ذلك الخاصة والعامة . كاننا نود ان نحيا بغير روح ، او نحاكي الامم بغير رابطة

القرآن الكريم كتاب الهي ، ووحي سماوي ، نزل به الروح الامين ، على قلب خاتم النبيين ، وامام المرسلين ، ليحيي به قلوباً أماتتها الشهوات ، وينقذ من الحيرة عقولا سممتها الشكوك والشبهات ، ويحل من الاغلال افكارا قيدتها الخرافات وسجنتها التخرصات ، ويسترد للنفوس حقوقاً اغتصبها القادات ، وسلبها السادات ، ويقيم به دولة الكمالات . وصروح المكرمات ، ويهدم به عروشاً اقامها الاقوياء على أشلاء الضعفاء ، ويجدع به انوفاً شمخت بها الجاهلية الجهلاء ، وابطرتها النعماء ، ويعدل به عوج الحكماء ، وأود العلماء ، ويفتح به للمدارك

ابواباً سدها الكهان . من سدنة البطلان ، ويكشف للاذهان . به حقائق العلم وطرائق العرفان ، ويسلك بالارواح به مسالك الايمان ،المستند على بدائه الحس والعيان . هذه بعض وظيفة القرآن الشريف التى أداها لبنى الانسان ، كما شهد به أعداء القرآن ، بل وأعداء الاديان . فأين نحن من فهم هذه الاسرار ، والاشراف على ما أودعت آياته من الانوار ، وما ضمنت من الحقائق الكبار ، والمعارف الغزار ؟

هذا دواء جاء للافراد والامم ، وإكسير نزل من السماء ليبعث الهمم ، بل ويحيي الرمم ، وقد طبق على المرضى فأجاب . وجاء بالعجب العجاب ، فما بالنا لا نطبقه على أنفسنا ونحن ندّعى النسبة اليه ،والتعويل عليه ؟

أليس من أكبر الاسباب في ذلك اننا لا نفهم مراميه العالية ، ومغازيه السامية من جرّاء العجمة التى طرأت على لغتنا لاختلاطنا بالامم جيلا بعد جيل .وقبيلا بعد قبيل ؟

ثم هو ذلك وأضف اليه تساهل بعض العلماء فى مسئلة قراءته بغير تدبر فجرى الناس على ذلك قروناً كثيرة ، لا يحفلون بما غاب عنهم من معانيه ، حتى وصل الامر الى ما ترى اليوم: يقرؤه الحافظ من اوله الى اخره وهو لا يفهم منه سطراً واحداً بل قد لا يكلف نفسه فهم شيء منه طول حياته . هذا بالنسبة للحافظ. اما العامة فأمرهم أشدوامرّ، فهم لا يقرءونه ولا يتدبرونه ، ولا يحفظون منه الا سوراً صغيرة يتلونها في الصلاة محرفة ولا يدركون لها معنى ، كأنهم يصلون بمحض الحروف والحركات أما الخاصة فكثيرمنهم يتلونه فى المصاحف ويفهمون منه شيئاً بالقرائن فقط ، فهما مضطربا لمجيء ألفاظ في الآيات الكريمة تلجئهم للبحث في القاموس عنها وفى ذلك من المشقة ما يحمل القارىء على الكسل راضياً بما امكنه تحصيله بقريحته ، لانه لو استشار القاموس لكل لفظة يجهل حقيقتها لما استطاع ان يطالع في الساعة عشراً واحداً وهو يريد أن يكمل ورده وهو فى العادة جزء او نصف جزء . ولو فرضنا القارىء فقيهاً فى اللغة وأدرك معاني الكلمات كلها فلا يستطيع ان يفهم القرآن على حقيقته اصلا الا بالمامه باسباب نزول الآيات الكريمة ، فان كثيراً منها نزل منجماعلى حسب الاحوال والوقائع فمن لم يعرف الحادثة التى نزلت من أجلها الآية او الآيات لا يذوق المعنى ذوقاً يطمئن له قلبه ويثلج به صدره

روى الجلال السيوطى رحمه الله تعالى عن الامام ابن دقيق العيد رحمه الله انه قال : « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معانى القرآن.» ونقل عن ابن تيمية رحمه الله انه قال « معرفة سبب النزول تعين على فهم الآية فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» قال الجلال السيوطى عقب هذا: « وقد اشكل على جماعة من السلف معاني آيات حتى وقفوا على اسباب نزولها فزال عنهم الاشكال » اه

واذا كان هذا حاصلا بالنسبة للسلف القريبين من عهد النبوة والوحي فما بالنا نحن ونحن فى القرن الرابع عشر ؟

هذه الحاجة الشديدة من الامة بعثت فينا روح الاقدام لوضع تفسير للقرآن الكريم مستمداً من كتب التفسير المعتبرة ، لا باللفظ ولكن بالمعنى الحقيقي لنتمكن من وضع المعنى في ابسط وأرق القوالب العربية العصرية التي اعتادها الناس وصارت ملكة فيهم ، بشرط اننا لم نضع من فكرنا الخاص فى المعنى الجوهرى للآيات شيئا ، لانا رأينا بالاختبار ان سلفنا الصالح قد بلغ من ذوق المعانى القرآنية والسبح في مغازيها الصميمة الغاية القصوى . اما الذى لنا فى هذا الكتاب ان شاء الله مما نعده ثمرة لاجتهادنا فهو :

اولا — مقدمة كبيرة فيها تاريخ القرآن الكريم وكيفية نزوله وتعدد قراآته وكيفية حفظه وترتيبه واستنساخه واستلفات القارئ لمعجزته العلمية الكبرى التى تشهد له بالصراحة التامة بانه كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، واقامة الادلة الفلسفية على حفظه من التبديل والتحريف ونقل شهادات كبار رجال العلم الاجانب على ذلك وشهادة بعض اكابر الفلاسفة الاوربيين الذي يعتقدون أنه كتاب سماوي وسبب عقيدتهم هذه مع انهم لا يعرفون العربية ولا يدركون اعجازه من جهة البلاغة ، ويسبق ذلك فذلكة في فلسفة الاديان وما آل الناس اليه في هذا العصر من جهة التدين والى أي غاية هم مسوقون

(ثانياً) حل الالفاظ اللغوية حلا لايدع حاجة فى نفس القارئ الى المزيد ، وقصدنا بذلك أن يكون لقرّاء القرآن الكريم من كتابهم السماوى مادة لغوية كريمة يستمدون منها عقائل الالفاظ وكرائم الكلم في أجمل الكلام وأعلاه مقاماً وهو الكلام الالهي

(ثالثاً) الاشارة عقب الآيات الى أسباب نزولها والحادثة التى تقدمتها، وبما أن نزول

القرآن عقب الحوادث كان القصد منه تثبيت النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين، وهذا لا يتم الا بالدعوة الى سبيل النظام الاجتماعي والكمال العمراني، او الى أصول مكارم الاخلاق وتهذيب النفس ، فسنشير ان شاء الله عقب بعض الحوادث الاجتماعية الكبرى وقوانين التهذيب الكلية الى مايقابلها من العلوم العمرانية الحديثة وعلم النفس الجديد ليتجلى لقارئ القرآن اعجازه العلمي واشتماله على أصول العلوم العالية وسبقه العالم أجمع الى تقرير الحقائق العمرانية والفلسفية الكبرى

(رابعاً) الاشارة الى الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وبيان أسباب ذلك وحكاية الواقعة التى استلزمت النسخ ، وذلك عقب تفسيرها في محلها

(خامساً) سيكون ان شاء الله فيه جدول يبين الآيات الكريمة التى فرضت فيها الفرائض علينا ليعرف كل مسلم امهات الاصول الفقهية من كتاب الله تعالى

(سادساً) سيكون فيه ان شاء الله فهرست كبير ذو فائدة لاتقدر وذلك انه يريك مواضع الآيات الواردة في كل موضوع تريد استيفاء البحث فيما قاله الله فيه بمعني انه يدلك على موضع كل الآيات التي وردت مثلا فى (الالهيات) او فى (النبي عليه الصلاة والسلام) او في (الصلاة) او في (الاخلاق) او فى اى موضوع تريده من مواضيع الكتاب الشريف ،

(سابعاً) نقل الروايات الواردة فى اختلاف القرآآت لكل آية من الآيات الكريمة .

هذه مزايا سبع فى كتابنا لم يحوها كلها كتاب قط ولاتتيسر بسهولة للمؤمنين الذين يريدون ان يلوا شوق قلوبهم بمعرفتها ويحبون أن يروها مجتمعة سهلة المرام غير مشتتة فى أجزاء الكتب الكبيرة .

ترتيب فصول هذه المقدمة

نحن بايرادنا هذه المقدمة لا نقصد الا غرضاً واحداً ، وهو بذل الوسع فى تصور بعض الآثار الاجتماعية والخلقية والعقلية التى حدثت فى العالم بواسطة القرآن فى الماضى ، وما نتمتع به منها الآن ، وما هى أهل له فى المستقبل من الحوادث الكبر ، والامور الجسام.

هذا لا شك مطلب صعب المرام لمن يريد أن يؤسسه على القواعد العلمية والعملية

العصرية ، ويدعمه بدعائم المباحث الجديدة الفلسفية ، فقد أصبح العلم الاجتماعى بفضل المجهودات التى بذلت فى تأسيسه في القرن الماضى من العلوم البعيدة الاكناف ، المترامية المناحى ، الكثيرة التشعبات والتفرعات ، الجمة العلاقات والمناسبات بغيرها من المعلومات ، لا غرو فهو ثمرة جميع العلوم الكونية ، والقمة الباذخة التى انتهت اليها العقول القوية . فتحديد مركز أكبر مؤثر من مؤثرات العمران وهو القرآن ،لا يقتضى فقط ان ندرسه فى ذاته من وجوه اعجازه وحكمته وبيانه وتأثيره على العقول والعواطف ، ولا ان نشرح حال الامة التى نشأ فيها ونزل اليها من قبله ومن بعده ، ولا ان نشير الى حال الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع ما يستدعيه مقامه العالى من الكمالات الصورية والمعنوية . تلك المباحث سنلم بها ان شاء الله كلها ، ولكنها ليست النقطة التى نرمى اليها ، وتمنى النفس بلوغها . وانما النقطة التى نرجو التوفيق للوصول اليها بهذه المقدمة هى درس تلك الآثار الكبرى ، وفهم تلك الحوادث العظمى على الطريقة الناقعة لغلة النفس ، الشافية لرسيس الصدر ، الكاشطة لغلف الشكوك ، الماحية لأدران الشبه ، الآخذة بالفؤاد عن متاهات الحيرة ومحارات الوحشة ، الفاتحة للروح منفذاً الى عالمها العالى لتبل منه أوام الشوق وتستجلى به مناظر الكمال ، ومظاهر القدس والجلال ، في عالم العلى والجمال .

هذا مطلب عزيز المنال ، بعيد المجال ، نرجو الله أن يعيننا عليه بواسع رحمته ، وجليل فضله ومنته ، انه واسع العطاء ، سميع الدعاء .

هذا الغرض الذى وضعناه نصب أعيننا لا ينال بوسائل البحث المعروفة واسبابه المألوفه ، بل لا بد له من طرق جديدة ، ومناهج مبتكرة ، توصلنا بمعونة الله الى ما تصدينا له من أمثل السبل وأقومها ، ونحن آمنون العثار ، واثقون بنيل الاوطار . لذلك نرانا مسوقين لان نحاول درس موضوعنا على الطريقة العملية التى يدرس بها العالم النباتى مثلا كيفية تأثير الاشعة الشمسية على المادة الخضراء لاوراق الاشجار ، وضرورة تلك المادة فى النماء والازهار ، وكما يدرس الخلايا التنفسية فى تلك الاوراق ويرى كيف تتسرب ذرات الاوكسيجين وجزيئات حمض الكربونيك منها الى أجزاء النبات فتكون له السوق والاغصان والأزهار والاثمار ، على اختلافها فى الالوان والحجوم ، والاشكال والطعوم .

نريد ان ندرس ماتصدينا له كما يدرّس العالم الحيوى (البيولوجى) تأثير الحرارة الجوّية والارضية ، على الخلايا الحيوانية ، من حيث التحلل والتركب ،والتبخر والامتصاص والافراز ، وكما يدرس كيفية تأثير الاوساط المختلفة ، ذات الفواعل المختلفة على الكائنات الحية من حيث ما تكابده طبيعتها من مقاومات ومدافعات وما تنتهي اليه من غلبة أو استسلام

نريد ان ندرس تلك الحوادث الجليلة التى قلبت شكل العقول والافكار . و بدلت الارض غير الارض ، والامم غير الامم ، والقلوب غير القلوب ، فجعلت من تلك الشرذمة العربيـة في سنين قليلة ، أمة أقامت أمر الله في الارض ، وأرغمت معاطس الجبابرة من الملوك والقياصرة ، وخلصت الشعوب من آصار كانت عليهم كالجبال حملا ، كما يدرس العالم التشريحى (الفزيولوجى) كيفية انتقال الخلية الحية فى المادة الملقحة الى جنين ثم الى طفل ثم يافع ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ، مع مراعاة الاشراف فى كل دور من هذه الادوار على كنه تلك الفواعل الطبيعية التى أثرت عليه وتأثرهو بها ، وما قابلتها به طبيعته من حيث الانفعال ، والمقاومة والنماء والحركة . نعنى بكل مامر أننا نريد ان ندرس تلك الآثار على طريقتها المثلى وأسلوبها الطبيعى الصادق ، لا بالجمل المنمقة ، والتعبيرات المفخمة ، التى تسهل على الكاتب ولا يهابها الناقد المحاسب .

لذلك سنبدأ ان شاء الله بايراد موجز من فلسفة الاديان ، والادوار التي تمر بها الانسان من حيث الاستسلام للعقيدة او التردد فيها وعلاقة ذلك بالجهل والعلم والحضارة والبداوة وغير ذلك من الاسباب الادبية والمادية ، لنستطيع ان نجلى مركز القرآن للاذهان ، ونظهر مقامه العالى بين مؤثرات العمران ، وليرى القارئ معنا ايضا لمحة من كمال خاتم النبيين ، وإمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نطوف بالقارئ على ما يقتضيه المقام من فصول وأبحاث فى الوحى والنبوات ، وخوارق العادات ، والشؤون الروحانية الاخرى التى يميل لمرقتها الانسان لعلاقتها بمستقبل حياته ، وارتباطها بشؤون معناه في سويداء فؤاده ، ثم نمر به بعد ذلك على موجز شاف من تاريخ القرآن الكريم من حيث وحيه وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه وتعدد قراآته الخ الخ مما لا يستغنى عنه مطالع القرآن الحكيم . وعلى الله وحده التكلان ، وهو المستعان .

﴿ موجز من فلسفة الاديان ﴾

ما هو الدين ؟ (١)

ليجرد الانسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثات المختلفة التى لها السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليمح من لوح ذاكرته كل ما نقشته فيها المؤثرات المختلفة فى المكان الذى يعيش به وفى الاسرة التى هو فرد منها وفى الجمعية التى هو من آحادها، وليتناس كل ما علمه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر الى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم الا ما تهديه اليه مشاعره الظاهرة ، واحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره فى تلك القبة الزرقاء التى تحيط بالكون من كل جانب ، ثم ليمر به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الاطراف الى كل جهة يوجه اليها بصره ، ثم ليلق نظره على نفسه بعد ذلك . فماذا يجيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؟ لا مشاحة فى انه يؤوب وفى نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لما تبين له من عظم الكون وشسوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضؤولة جثمانه !

رأى تلك اللانهاية فوق رأسه فوقف عقله منها حيث انتهى بصره ، وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من فخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب !

أراد تصوره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير ، ان ينفذ الى صميم ذلك الامر الجلل فانحلت عزماته انحلالا ، وارتخت معاقد همته ارتخاء ، وأخذ الفزع بمتنفسه أخذاً كاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره فى وسط هذه اللانهاية الفخيمة !

رنا ببصره الى ما حوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق عنه سعة خياله ، ويحرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ما أخذه جسمه من حيزه غير المتناهي ، فكاد يصعق من الوجل أمام هذا السكون المطلق ؛ فاذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ، ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلألأت فى ارجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية فى ذلك المعرض المرصع ، وزادتها مهابة الليل فخامة

(١) انظر مباحثنا الشهرية « الاسلام فى عصر العلم » فى كتاب « خاتم النبيين » صحيفة ٥٤

وعجباً ، ازداد أمرها غموضا فى فكره ، وتبين له انه وسط بحر من مجاهيل وأسرار أيسر ما يستطيعه أمامها الاقرار بعجزه وضعفه،والاذعان بحقارته وضؤولة شخصه ، واحتياجه المطلق لملجا يلجأ اليه ، وموئل يعوّل فى النجاة عليه ، وفقره لقوى يهبه من قوته، ورحيم ينشر عليه من افاضات رحمته .

هذا هو مبدأ التدين ، والباعث الطبيعى على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذى دفع الامم للتمسك بالاديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم الامر لهم فى كل شان . وهو بذاته أيضاً الداعي لارسال الله تعالى رسله تترى الى الامم بالهدى ودين الفطرة .

ربما يقول قائل : « ان هذا التصوير البديع ان صدق على الانسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ، ثملا من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعياً انه ادرك المعلولات والعلل ، ووقف من امور الكون على مالم يحلم به الاول ، ولا اضطرب لهم به أمل »

نقول لهذا المعترض هوّن عليك : جرد نفسك من كل ماذكرته لك من آثار الوراثات والعقائد ، وما قرأته فى كتب الملاحدة من الظلمات الكثيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد الى فكرك النظريات الرياضية التى تثبت لك ان الفضاء ممتد الى مالا نهاية . . . أي انه ليس له حد ! وانه مشحون بعوالم لاتحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذناب ، وان الارض التى أنت عليها ليست الا كالذرة بالنسبة لتلك الاجرام الضخمة ، وتذكر ماقرأته فى ابحاث (كبلر) و (كوبرنيك) و (هرشل) و (زولنر) و (فلامريون) من أن الارض كوكب من الكواكب السيارة السابحة فى الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصف كيلومتر (في الثانية الواحدة) وانها ذات شكل كروىّ محيطها (٤٠٠٠٠) كيلو متر وانها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجما ، دائرة كلها حول تلك الشمس المضيئة التى هى أكبر من الارض مليوناً واربعمائة الف مرة ، وان المسافة التى تفصلها عن الارض هى ثمانية وثلاثون

مليوناً من الفراسخ وان هـذه الشمس بهذا الحجم الهائل لاتقارن بالشموس الاخرى التي تسبح مثلها في هذا الفضاء المدهش .

وان اردت ان يكون لك فكرة عمومية على حجومها فاعلم ان أقرب نجم منا يصل الينا ضوءه فى ثلاث أو أربع سنين ، فاذا كان ضوء الشمس يصل الينا فى أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهى أ كبر من الارض بمليون وأربعمائة الف ضعف فكم يكون حجم نجم لايصل ضوءه الينا الا فى أربع سنين ، اي فى (٢٠٧٣٦٠) دقيقة ..... ثم ماذا يكون حجم الشعرى التي يصل الينا ضوؤها في ٢٢ سنة !!!!

خل هذا جانباً وقل لى كيف تتصور حجوم تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك ان ضوأها لم يزل سابحاً في الفضاء من يوم تكونها الى يوم وصول ضوئها الينا اى فى ملايين من السنين ... أليس فى هذا التخيل مايرعد الفرائض ويأخذ بمخنق التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك ، اما ماهو بين يديك وخلفك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وانسان فليس أمرها بهين عليك ، لانك لو استعرضت شيئاً قليلا من عجائب النباتات ورأيت انك تلقى الى الارض بزرة لا تكاد تحس بها بين أصابعك فتراها بعد سنين شجرة ذات جذع غليظ ، وفروع ممتـدة الى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم ، واريج يفغم الانف من مسافات بعيدة ، ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت الى فكرك تلك الكائنات المختلفة فى الصور والاحجام والاشكال والطبائع والغرائز والجبـل مما لا تكفي المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت في ان المادة التي هى أصل كل هذه الصور البديعة مجهولة لديك بالمرة ، لرجعت وكلك شعور بضعفك وعجزك ، واحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ، ولوجـدت فؤادك ساجداً بفطرته امام هذه القوة العظمى التى ابدعت هذا الوجود المـدهش ، ولتحققت انك كلما ازددت بالكون علما ازددت احساساً بجهلك ، وشعوراً بضعفك واحتياجاً لمن يأخذ بيدك ، ويسكن جيشان صدرك . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

ثم انك كلما رنوت الى اجزاء هذا الكون ورأيتها تتلاشى وتتجدد ، وتتفرق وتتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات الى الحيوان الى الانسان وجدت نفسك

مسوقاً لان تتساءل عن حظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد تلاشى هذا الجسم السريع العطب ، ولوخزك حب الحياة المرتكز على أجمل عواطف نفسك ودفعك لان تجول بفكرك فى مضمرات الاشياء ومستورات المعارف ، لتشق الحجب التى تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً ، او لا تجدها فتبقى فى هذه الارض العمر الذى قدر لك بين فزع وجزع ، ووحشة ووهل ، تعالج من اضطراب نفسك مالا تعبر عنه ، حتى تجئ تلك الساعة المنتظرة على صفة لا استطيع ان اتخيلها

الا ترى بعد هذا ان الانسان على اى حالة من احواله سواء كان جاهلا لا يعرف شيئاً او عالماً يعلم شيئاً . . . لو جرد نفسه من آثار الوراثات المختلفة ومحا من ذهنه كلما يربطه بالمكان الذي عاش فيه وبالمذهب الذى ينتمي اليه ، ثم تفكر بعد ذلك فى الكون وفى نفسه لا ندفع بفطرته وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً الى القاء نفسه ساجداً امام خالقه ولو لم يستطع ان يتصوره بصوره ، او يقع فكره منه على كيفية .

هذا هو الدين الفطرى الذى خلق الانسان مطبوعاً عليه بطابع الخالق الحكيم الذى اقام الانسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه ما قدر من الكمال الصوري والمعنوى . فالدين على هذه الصورة الطبيعية لا يتصور زواله بوجه لانه مرمى كل عواصف النفس وغايتها وقد ادرك ذلك اهل البصر من الغربيين فقال غطريف الفلسفة الاوربية (إرنست رينان) فى كتابه تاريخ الاديان : « من الممكن ان يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن ان تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل ان ينمحى التدين او يتلاشى بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذى يود ان يحصر الفكر الانسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الطينية »

وقال الفيلسوف الشهير (اجوست سباتييه) فى كتابه (فلسفة الاديان) : « لماذا أنا متدين ؟ انى لم احرك شفتى بهذا السؤال مرة الا وأراني مسوقاً للاجابة عليه بهذا الجواب وهو : انا متدين لاني لا استطيع خلاف ذلك ، لان التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى ذلك أثر من آثار الوراثة او التربية او المزاج فاقول لهم قد اعترضت على نفسي

كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدته يقهقر المسئلة ولا يحلها وان ضرورة التدين التي اشاهدها في حياتى الشخصية اشاهدها باكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية فهى ليست اقل تشبثاً منى باهداب الدين الى ان قال : « اذن فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعا وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة » انتهى

وهذا كله نفحة من نفحات هذا الناموس الكبير الذي اوحاه الله لخاتم انبيائه صلى الله عليه وسلم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

الانسان والايمان

اذا كان هذا الجسم المادى محتاجاً لمأوى يأوى اليه ليتقى فيه افاعيل الطبيعة المحيطة به وغوائل الاعراض التى تكتنفه من سائر جهاته فليست الاحساسات المعنوية والعواطف القلبية بأقل احتياجاً من ذلك الجسم لموئل تعتصم فيه مما يتجاذبها من عوامل الشعور الذى غرس فيها بحكم الفطرة الاصلية . ليس الانسان كالحيوان يقتنع بما يسد حاجيات جثمانه من مأكل ومشرب ولا يبالي بعد ذلك بما يسوقه اليه القدر فى غده او بعد غده . كلا بل للانسان مطالب روحانية لا يقل حنين احساساته عليها وشغف امياله بها عما يصيبه من فقد مطالبه المادية بل ربما دق الشعور فى بعض الكاملين من هذا النوع الانسانى فآثر الوصول الى مشتهيات روحه على كل مطلب جثماني أياً كان نوعه . بل لا يخلو واحد منا من شعوره حيناً من الاحيان بحالة يود فيها لو نال راحته الضميرية التامة ولو جرده ذلك من كل ما لديه من بهرج الدنيا وزينتها المموهة . اناشدك الله اما ألمّ بك شعور ما في حين من أحيان حياتك بعثك للنظر فى نفسك ومصيرها في دنياك وأحوالها وفيما يحيط بك من الكائنات على اختلاف أنواعها وأجناسها فوجد فيك احساس سام لم يكن فيك من قبل ؛ احساس اراك رأى العين أن ليس لك فى هذا الكون المحسوس مقنع تقف عنده ولا موئل تعتصم فيه من مهددات هذه الحياة القصيرة الأمد ، احساس اهاب بك عن الركون لمموهات هذه

الاشياء الارضية وصاح بك لتفتق الحجب التى رانت على فؤادك فمنعته من الاشراف على حقيقة سر يخفق له فؤادك الذي بين جنبيك . احساس سماوى ليس من طبيعة هذه الجبلة الحيوانية صغرلك الوجود على ضخامة أجزائه وحقر لك هذا الملكوت الأرضى على كبر ابعاده وشخص لك مخاوفه ومعاطبه تشخيصاً دفعك الى تلمس المخلص منه والمحيص عنه . اما والعلم لولم يكن الله جلت حكمته رحم هذا النوع فجعل شواغله المادية مانعة له من الاسترسال فى هذا الشعور لترك الناس عمار الدنيا وخرجوا على وجوههم فى القفار يجأرون الى الله ويلتدمون صدورهم رهباً من هذا الخطر المحدودق ورغباً فى تلمس المخرج من هذه الغوائل الصمية

دع سماسرة المادة جانباً واطرح أقوال مروجة الزخارف والاباطيل وارجع لنفسك لحظة من لحظات حياتك العزيزة واستفت هذا الفؤاد المرتجف بين جنبيك واستنبئ ماينازعه من احساسات ومشاعر ثم تعال فقل لى الى أى مدى وقفت بك مراميك الداخلية وفى أى نقطة من هذا المحتد الطينى سكن اضطراب فؤادك الولهان ؟ ثم أنبئنى بماذا حكمت على الارض وخيراتها والسماء وثرياتها والمناصب وحفاواتها والالقاب وكراماتها والثروة ومموهاتها ؟ ألم تجل لك كلها هباء منثوراً آيلة الي التلاشى والفناء وان مثلها اليوم بالنسبة اليك كمثلها في الغد : أسباب شقاء وبلاء ومثارات شدة وعناء ودواعى آلام واسقام ومسارح اوهام واحلام ؟ هل بعد المشاهدة برهان أو غير التجارب عرفان ؟ لقد رأيت من قبلك ممن نال من بسطة الجاه والسلطان ولذة الثروة والشأن رجالا سجد الناس امام آرائكهم وعبدوهم دون بارئهم . فماذا كان مصيرهم والى أى بيئة وصل أمثلهم ؟ ألم يدسوا فى الارض كما يدس القذر وتخلى عنهم كل بطانة ووزر ، وغرتهم العلياء الارضية حيناً ثم اهوتهم على عروشهم كما تهوى الشجر فى يوم شديد العواصف .

نعم للانسان فى لحظات راحته وسكونه مسارح فكرية فى أمثال هذه المرامي السامية التى هى من مميزات الروح الانسانية وليس فؤاد الجاهل بأقل شعوراً بها من فؤاد العالم وليست هى في مكان وزمان أشد منها في زمان ومكان آخرين . تدل على ذلك اشعار الامم واغانيهم منذ القدم فانها تترجم عن مثل هذا الشعور السامي وترينا انه فطرى فينا وان دون انتزاعه منا نزع الفؤاد من بين الجوانح .

كل حادثة من حوادث الحياة توقظ فينا هذا الشعور وتجعله فى أشد درجاته فما مرض الاقرباء والاصدقاء وما حزن الاولياء والاخلاء وما مصائبنا في النفس والاهل والمال الا منبهات لهذا الشعور ومذكيات له ، وما أكثر استهداف الانسان لمثل هذه الحادثات في مدى حياته القصيرة الامد . الانسان فى اثناء تلبسه بهذا الشعور يحتاج الى مواس يواسيه، وموال يواليه الهدو ويوليه ومعتمداً يعتمد عليه فيما وقع فيه . ليس وقت الشعور بالمصيبة دور تمنٍّ وتأميل حتى يكتفي الانسان من التأسية بما يؤثر على خياله ولو توهماً، كما هو شأنه في بعض الاحيان بل هذا دور جدّ وعمل ينبعث الانسان فيه لتلمس تأساء حقه يصرف بها حرارة هذا الشعور فيه ساعة احتدامه والا أحرق اليأس فؤاده وناهيك به من سعير . ثم يحتاج الى مؤاس يفاتحه بما يشكو منه معتقداً انه اشفق عليه من أبيه وامه ومن الناس اجمعين . مؤاس يحس انه مهتم بشأنه وقادر على تنجيته مما وقع فيه . مؤاس يرضى الانسان ان يلقي نفسه بين يديه القويتين فتحفظانه من السقوط وتقيانه على نهج الطريق .

اذا اصيب الانسان بمصيبة تلظى فؤاده ناراً، وكادت نفسه تطير شعاعاً، وشعر بحقيقة ضعفه ووهنه وأحس بضؤولة قواه وحوله، وادرك كنه مركزه في هذا الوجود الهائل وعرف انه فيه غريب وحيد بل طريد شريد . اينما يوجه وجهه فلا يجد معيناً له على بلائه ولا مقيلا له من تعثره في ذيول لأوائه . يرفع رأسه الى السماء فلا يرى الا الكواكب الزهر تسبح فى آل الفضاء والصمت شعارها والسكوت ديدنها . ويرمي بعينيه الى الارض فلا يرى الا غيراناً وجبالا وهضاباً وتلالا، ان ناجاها ارتد عليه صوته او ذهب ادراج الرياح . ثم يرجع الى نفسه فيرى حوله قومه وبني ابيه وليس فيهم واحد منزه عن مثل ما ألم به فليسوا بأقل احتياجا لتلمس المخلص من مهددات الوجود ومبيدات الحياة . اذن ماذا يعمل الانسان وهو في تلك الحالة الحرجة والموقف الصعب ؟ باي ركن يعتصم والى اى ملاذ يلوذ ؟ على أى سند يعتمد وفى أى مساعد يؤمل النجاة ؟ ليس امامه الا الترامي بين يدى تلك القوة الازلية التي اخرجته من العدم (١) وقضت عليه بما هو فيه من ذلك الحال . تلك القوة التى أقامت هذا الوجود على دعائم الحكمة غير المتناهية . تلك القوة التى لم تضع شيئاً فى غير محله ولم تهب

(١) نعتذر عن استعمالنا لفظ (قوة) في هذا الموضع فان المقام اقتضى ذلك

شيئاً بدون فائدة . تلك القوة التي وهبت الانسان هـذا الفكر الطموح والعقل الجموح والاحساسات المتعاكسة، والاميال المتضاربة، لحكمة بالغة ومقصد عظيم، اذا القي الانسان بنفسه بين يدي هذه القوة ثلج صدره واطمأن على نفسه لتحققه ان هنا لك قوة معتنية به ومهيمنة عليه . ولو فقد الانسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمأنينة ام كيف يتذوق لذة الراحة والسكينة ؟

الانسان مفتقر في كل لحظة من لحظاته الى من يشاركه فى احساساته ويشاطره فى أحزانه وأشجانه، فكيف به لو فقد الثقة بأصل حياته، ورأى نفسه في هذه اللانهاية وحيداً ضعيفاً مهدداً فى كل لحظة بمايبيده ويبدده ؟

الانسان يحتاج الى روح من الامل فى كل حركة من حركاته فى اعماله، فكيف به لو تولاه اليأس فى وجود من يعتمد عليه عند ما تلم به جسام المصائب وعظام النوائب ؟

الانسان انسان بروحه اكثر مما هو بجثمانه، فهو محتاج فى كل خطرة من خطرات احساساته ومراميه الى غاية كمالية يوجه اليها تلك الاحساسات والمرامي فكيف به لو عمى عن روح الوجود وقيومه ومنتهى كل جمال وكمال ولم ير فى كل هـذا الكون الهائل الا ذلك الصمت المرعب والسكوت المهيب ؟

أليس من المؤلم للانسان والجارح لفؤاده ان يتوهم ان هذه اللانهاية المحيطة به من كل جانب خالية من سميع مجيب وانه لا شيء فيها يسمع ضراعتـه القلبية ولا مناجاته السرية ؟ أليس من الثقيل عليه ان يرمى ببصره الى السماء فلا يبصر فيها الا فراغاً مدهشاً وسكوتاً مريعاً ؟

لقد دلت الآثار التاريخية ان الانسان جعل الايمان دائماً اشفق المسلين له فى مصائبه وأرأف المعزين له فى نوائبه . فكم فؤاد موجع بنازلة لولا الايمان لانفطر وكم كبد حرّى لولاه لذابت كمداً وحسرة : ماذا يهبط روح السكينه والتأساء على عزيز قوم ذل، أوغنى قوم افتقر، اذا جلس يفتكر فيما آل اليه حاله وسط الليل الحالك وهو يتنفس الصعدا ، غير (ايمانه) بأن معه من يعلم السر وأخفى ، ويقدر على منحه الصبر على مصيبته أو القوة على استرداد ثروته ؟ ثم ماذا ينزل روح الصبر والسلوان على روح ام فقدت ولدها في ريعان شبابه وميعة صباه غير (ايمانها) بانه أصبح وديعة لدى مبدعه الذى هو اشفق عليه منها فى عالم غير هذا

العالم؟ ثم قل ماذا يقود الرجل الى ايراد نفسه موارد العدم وارسالها الى عالم الفناء غير (عدم ايمانه) بهذه القوة المهيمنة على مقادير البشر؟ أما يسوغ لنا ان نقول ان (الايمان) لازم من لوازم الانسانيـة وحاجة من حاجات الحياة الارضية من فقده فقد فقد طيب الحياة ولو ملك الدنيا بيمينه . ومن وجده فقد وجد راحة الابد ولو كان بين انياب الفاقة ومخالب الفقر المدقع .

ولقد نري ويرى أهل البصر كل يوم ان الناس يتفاوتون فى الصبر على المكاره والجلد عند لقاء الملمات، على قدر ما أوتوا من قوة (الايمان) حتى قد تنتهى الحالة ببعض الافراد منهم الى المساواة بين آثار النعمة والمصيبة لاعتبارات سامية يؤديهم اليها شدة ايمانهم وثبات يقينهم، ولعل هذا هو غاية ما ينشده الفلاسفة من سعادة الدنيا . أما يجب اذن على الذين يبيتون حياري وجلين ينتظرون وقوع المحن عليهم ويصبحون خائفين واهمين يبكون على انفسهم قبل أن يحاط بهم، أن يسعوا فى تقوية ايمانهم وتمتينه، بدل حسو السلافة ليتناسوا ما هم فيه تناسياً وقتياً ثم يعود اليهم الوجل باشد مما ذهب؟ على ان الفرق بين الطرفين عظيم . فان الرجل الذى يعمل لتناسى ماسيحيق به من النوائب فى اهله ونفسه، يجني على ذاته جنايات لا تغتفر : (أولا) لانه بعدم تقوية ايمانه يحرم نفسه من لذة الايمان فان له لذة فى القلب لا يعلم قدرها الا المؤمنون حقاً الذين قال قائلهم : نحن فى لذة لو علمت بها الملوك لقاتلونا عليها بالسلاح . (ثانياً) لان بحثه على السعادة من غير طريقها يرمي به الى متاته المحظورات الانسانية القاتلة التى تهلكه وتهلك الكثيرين معه كما هو مشاهد من عشاق السعادة وطلاب الراحة من غير طريقها . هذا بخلاف حالة المؤمن فانه لما ادرك أن لا شىء فى الوجود بغير حكمة، وان لكل عمل نتيجة، ورأى نفسه يشعر ويتألم ويفتكر فى المعضلات ويصل الى حلها وهو كل يوم في رقي مستمر لم ينهزم امام ما يؤلمه من حالات الحياة التى تتوالى عليه ولم يفر من وجه الملمات التى تخزه من كل جانب بل وقف وقفة الثابت الجليد، وألقى على نفسه هذه المسئلة : ماذا أنا . ومن أين أتيت والى أين أذهب؟ ما هي الحياة . وما هو الموت . ولماذا سلطت عليّ هذه المؤلمات؟ ما هو هذا الوجود . وما هي علاقتى به؟ هذه الاسئلة وضعها المؤمن نصب عينه واشتغل بحلها لعلمه ان حياته مرتبطة بها فتجلت له على حقيقتها وازدادت

نتائجها في فؤاده رسوخا تارة بالعلم الذى تهديه اليه مشاعره الظاهرة، وطوراً بما ينبع في صميم معناه من الالهام الصحيح . فاستوي بشراً سوياً يعرف قيمة الحياة ومزية الوجود وعاش حاصلا على احسن ما قدر للانسان من سعادة دنيوية.

الانسان تمة الابداع الالهى

« لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم »

لا شيء أضر على الانسان واضيع لجمال خصائصه العليا أكثر من جهله او تجاهله بحقيقة ذاته ، ولانعنى بذلك سر روحه فانه مما لا يمكن نفوذ العقل اليه من طريق المشاعر بواسطة الامور المحسوسة . ولكنا نقصد بتلك الحقيقة مواهبه السامية وملكاته العالية واستعداده لبلوغ كل ما يتصور من الكمال والرفعة في عالم الممكنات .

استعداد الانسان لادراك كل ما يتصور من المعالى الجسدية والروحية أصبح من البداهة العلمية لاسيما بعد ما وقف علماء الفلسفة التاريخية على ناموس الارتقاء الذى يستطيع أن يدركه كل انسان بطريقة محسوسة من النظر الى ما كانت عليه حالة الانسانية في أول أدوارها ثم الى ما انتهت اليه في هذه الاعصار المتأخرة من الكمالات الصورية والمعنوية التى لم تكن تحلم بها أرق فكرة فى الازمنة البعيدة . والى هذا يشير (لاروس) فى دائرة معارف القرن التاسع عشر بقوله : « ان من التهور الشائن وضع حد لرقى الانسان . »

ولما كان لكل حقيقة لوازم تتبعها ونتائج لاتزايلها فلوازم هذه الحقيقة ردع الانسان عن الايغال في سفاسف الامور ودنايا الشؤون ، وصده عن الاسترسال فى معاطاة الخسائس ومداناة الشرور . نعم يندر ان يتحلى انسان بادراك هذه الحقيقة فيستخذى لداعى هواه المضل او يلين قياده ليد بهيميته الملازمة لشكله الحيوانى . هذه الحقيقة هي أقوى باعث للانسان على تلمس الفضائل واهدى هاد له على سلوك مهايع الكمال فى هذا المعترك الهائل .

صور لنفسك رجلا رسخ فى فؤاده انه نسخة صغرى لصورة هذا الوجود العظيم ، وان امامه غاية لا يحددها التصور ولا يتطاول اليها الخيال ، وانه خلق لبلوغها وطبع على البحث

عليها وقطع المفاوز اليها . ثم تخيل بازاء هذا رجلا آخر تكاثفت على لبه ظلمات الطبيعة الطينية وغشت فطرته الانسانية غياهب قوته البهيمية فلم ير امامه الا كثافات هذه الطبيعة وظواهرها القشرية وضرب بينه وبين الفكر في نفسه بحجب كثيفة من اشتغالاته الواهية الوهمية . قلنا تخيل مثل هذين الرجلين ثم قل لى ماذا ترى فى أفعال الاول من كمال ونظام، وفى أقواله من حكمة واحكام، وفى حركاته من حزم ووقار، وفي سائر شؤنه من همة واقتدار؛ وماذا ترى على أفعال الثانى من نقص وخلط، وفى أقواله من خشونة وخبط، وفي حركاته من طيش وخرق، وفي سائر شؤنه من جبن ونزق؛ بل ماذا ترى على الاول من رواء الانسانية وجمالها . وماذا تلمح فى الثانى من نقص الحيوانية وخداجها؛ ثم مثل لنفسك بعد هذا كله قوماً من الاقوام رماهم الله بكساد العلم وكراهة الحكمة وقضى عليهم بمجافاة الاطلاع وموات الفكرة فماذا ترى من مصائب تحيق بهم، وحوائج تحتاج طيباتهم، وخلل في امورهم وزلل فى سائر محاولاتهم؛

سبحان الله « ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى » الذي «خلق كل شيء فقدره تقديرا» قضت حكمته جل شأنه ان تكون أنت أيها الانسان تمة ابداعه وغاية اختراعه واعطاك من المواهب والقوى ما تستحق به أن تكون مليك هذا الكون بأسره، فمالك لاترعى هذه المواهب حق رعايتها، ولا تمنح هذه السلطة بعض واجبها؛ مالك تغمط حق قدرك، وتتعامي عن جلالة سرك، وتسفل فى مراميك، وتهرول خلف سفاسف أمانيك؛ هل تريد ان تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، وتشاكل الحمر الوحشية في خستها والبهائم الهامجة فى نقصها ودناءتها، بدون ان تجد فى اثناء نزولك الى هذه الهاوية السحيقة من لوازم الهبوط مايجعل حياتك مرة، ويستوجب أنينك في اليوم الف مرة؛ كلا « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »

ان الذى أوجدك من العدم وحملك الامانة التى أبتها السموات والارض واشفقن منها واراد لك من الرقي والرفعة ما تغبطك عليه الملائكة فى السموات العلى، قد ناط بك التكاليف الحيوية التى يستلزمها الصعود الى تلك المنصة العالية فباطلا تحاول الرجوع عنها وعبثاً تتشبث بالحيد منها . فاما ان تهم بالصعود اليها واما ان ترضى بأن تكون سلما لغيرك يتخذ عاتقك

موطئاً لقدمه فيصعد وانت سافل، ويكمل وانت ناقص، ثم تنزح عن هذا العالم الادنى موقراً بطين هذه الطبيعة السفلى (ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور)

الايمان في خلال القرون

مرّ الانسان من حيث الايمان على ثلاثة ادوار مهمة ، لكل منها مميزات ولوازم خاصة به . أما الدور الاول فهو دور الفطرة الاولى حيث كان الانسان مؤمناً ايماناً فطرياً مسوقاً الى الاخبات والخضوع للخالق بغير سائق ولا دافع غير احساساته الداخلية وعوامله الباطنية ، لشعوره شعوراً ضرورياً بالاحتياج لذلك ، ولم يك يفترق هذا الاحتياج فيه عن احتياجه الى المأكل والمشرب من حيث الاهتمام به والجرى وراء مطلوبه منه .

يمتاز هذا الدور بتنزهه عن الشبهات والشكوك ، فلم يك يعرف انسان ذلك الزمان ما هو التردد في اصل الايمان ، وما هي الحيرة في صحة العقيدة او عدمها ، وسيمر بك ان شاء الله ان سبب ذلك كان وقوفهم عند دين الفطرة البسيط المبرأ من شوائب الظنون والاقاويل . هذا الدور يبتدئ من مبدأ الخليقة الى قبل بعثة المسيح بقرون لا يمكن تحديدها بالضبط .

أما الدور الثاني فهو دور الفلسفة والحكمة ، وفيه فتقت انوار العقل حجب الكثافات الطبيعية ، واخذ الفكر يجول في موامى التصورات السامية ، والمدركات العالية ، ويسبر مساتير المجاهيل الوجودية ليحيط بما خبأته له يد القدر . من عالم الشهادة وعوالم الغيوب .

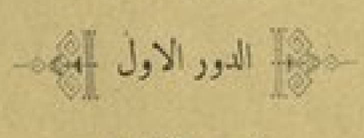
يعرف هذا الدور بتولد الشكوك فيه ، وسريان شياطين الشبهات الى العقول ، من بعض الافراد ضد بعض الاصول الاعتقادية . وكان ثوران تلك الشبه كنتيجة طبيعية ضرورية لان العقل الانساني لما اراد ان يتفصى من اصفاد هذه الطبيعة الكثيفة ، ومال لأن يفتق تلك الحجب التي تمنعه من متابعة شهواته في النفوذ الى سرائر الموجودات الكونية استلزمت تلك الدفعة ان يطوف من المدركات على ما يلائم درجته من الرقى ، فكان الخيال قائده في تلك الرحل الفكرية ، وناهيك بعقل يرشده الخيال ، وتقوده احساساته البشرية الملازمة لتركيبه . لا جرم انه لا ينال من الحقيقة المطلقة الا ما يناسب درجته المقيدة ،

فكان من الضرورى ان يهب عليه ما يتلتل به عن الوقوف فى مركزه ، ويصيح به لأن يشرئب الى ما فوق ذلك ، ليعلم ان الحقيقة ابعد مما كان يتوهمه . لذلك بعث الله تعالى عليه روحا دافعة ظهرت بمظهر الشبهات والشكوك ، لتسوقه رغم انفه الى غاية ما يمكن ادراكه من معنى اللاهوت الاقدس وما يتعلق به من شؤون الحضرة الالهية .

من هنا نشبت الحرب العوان بين الفلاسفة ورؤساء الاديان ، وحمى الوطيس فيها لحد انها كانت الشغل الشاغل لكبار العقول فى الامم ، حتى صار علم اللاهوت عبارة عن جدل وحل شبه .

اما الدور الثالث فهو دور العلم الطبيعى والفلسفة الحسية ، ويبتدئ من حوالى القرن الخامس عشر لغاية النصف الاول من القرن التاسع عشر . في هذا الدور استطار لهب الحرب الدينية العلمية بين قادة العلوم الطبيعية ، وحملة النصوص الاعتقادية ، وتحقق الفوز للحزب الاول وكان ذلك رد فعل لما كان قد حصل من غلواء انصار الحزب الثانى فى الابعاد عن العلم ، والتنديد بمجافاة العقل وما يثمره الفكر ، ولقد بلغ عدم الاهتمام بالدين عند بنى هذا الدور بحيث عدت التعاليم الالحادية ، من الافكار الواجبة الاعتبار والاحترام ، الجائزة السريان بين العوام رغم انف حملة الدين ومؤيديه .

أما الدور الرابع فهو دور الفطرة ، وهو الدور الذي نحن فيه ويمتاز بمحاولة النوع الانسانى فيه الرجوع الى دينه الفطرى البعيد عن مظان الشبه المنزه عن مثارات الشكوك . لهذه الادوار الاربعة تفصيل لابد من الالمام به . فنقول :



الدور الاول

(دور الفطرة)

اختلف العلماء الباحثون فى اصول الاديان في اول معبود عبده الانسان في اول نشأته فذهب الماديون منهم الى انه عبد الاصنام مباشرة على ادنى اشكالها ثم اخذ فى الترقي فيها شيئاً فشيئاً على قدر رقيه العقلى والفكري ، ولم يزل ينتقل من دور الى دور حتى وصل من

فكرة اللاهوت الى مثل ما وصل اليه « باسكال » و « جول سيمون » و « رينان » واضرابهم من التنزيه المطلق والتوحيد الخاص ، ولم يحدُ بهؤلاء الماديين الى مثل هذا التطوح الا وقوفهم مع الحس المجرد ، وزعمهم انه لا سبيل لسائر المعقولات الانسانية غير الحواس الخمس . ومال الروحيون من الفلاسفة (١) الى ان الانسان عبد الخالق الاقدس على اكمل صورة من صور التنزيه والتوحيد، واما عبادة الاوثان فهي عرض طارئ اقتضاه ميل الانسان الى تحديد كل مايحس به الانسان احساساً مبهماً . فيكون مجمل هذه النظرية ان الانسان فطر على الدين الحق وحمله معه كلازم من لوازم روحه ، ثم لما مال الى عالم المحسوسات اراد ان يحدد ذلك الشعور فيه ، فوقع فى اوهاق (٢) الوثنية على اختلاف اشكالها ، وكان من أمره فى ذلك ما ترويه لنا فلسفة الأديان من التدافع الذي سيمر بك طرف منه .

اما النظرية الاولى وهى نظرية الماديين فقد سقطت الآن الى الحضيض وتبين فسادها بما اكتشفه العلماء البحاثون فى اصول الأديان، ومناشئ العقائد قال الفيلسوف الشهير (جيو) في كتابه المسمى (عدم التدين فى المستقبل) : « ان نظرية الفلاسفة الحسيين بالنسبة للأديان كان يتوقع سيادتها المطلقة منذ بضع سنين وقد كان رضيها الكثيرون بدون ان يستنتجوا منها سائر نتائجها الضرورية . اما الآن فقد اصبحت واهنة واهية . »

وقد تصدى اكبر عمرانى العصر (هربرت سبنسر) لهذه النظرية فى كتابه « الاصول الأولية » فدحضها دحضاً واظهر فسادها بواسطة التحليل العلمى الدقيق . اما النظرية الثانية فهى السائدة اليوم لانها ليست من باب الفروض الظنية بل مما يمكن تحققه بالاختبار اذا صعد الانسان ببحثه الى مناشئ العقائد فى الانسان وهذا الامر مهما كان صعباً فان وراءه رجالا يهتمون به غاية الاهتمام ، ويبذلون في سبيل استكناهه كل مرتخص وغال . وأحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل فاجاد وافاد ، هو الاستاذ الطائر الصيت (ماكس موللر) الالمانى فانه كتب فيه كتابا جليلا سماه « أصل الدين وارتقاؤه » اثبت فيه بالنصوص الدينية

(١) نعني بالروحيين الذين يعتقدون ان العالم مركب من طبيعتين : طبيعة مادية هى هذا العالم المشهود ، وطبيعة روحانية هى عوالم ما وراء المادة .

(٢) أوهاق جمع وهق أى مصايد

الهندية وهي ابعد الديانات عهداً واقدمهن تاريخاً بان الانسان اول ما عبد عبد الخالق جلّ وعلا على صفته غير المحدودة ، واما هذه الاوثان والاصنام ، فليست الا بنات الخيال استدعتها محبة الانسان للمس كل ما يشعر به في نفسه قال : « ان هذه الآلهة المجسمة ليست الا تمثيلا طرأ على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية ، وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا امام الله الحق حتى قبل ان يجسروا على الاشارة اليه باسمه . » ثم جزم هذا المؤلف بأن أصل الاديان كلها واحد ، وما سبب اختلافها الا ما احدثته النزعات الانسانية ، والاهواء النفسانية ، من حب التحديد والتقييد والحصر .

هذا كلام لم يجاف العقل ولا النقل . اما قول الماديين السابق ، فلا ينطبق على علم ثابت ، ولا يستطاع ان يقام عليه دليل . وليس هذا الشطط ببعيد عنهم فانهم متى رأوا حرج مركزهم حيال مسألة من المسائل ، اعتادوا التعسف في التفلسف ، وملأوا الارض احتمالات وفروضاً ، ولو كانت اعرق في السفسطة والهذيان مما تعالوا عن قبوله مبدئياً . سلهم قائلا : هل يعقل ان الانسان يعبد شيئاً مجسما قبل ان تكون تلك العبادة مسبوقة بفكرة دعت اليها ؛ هل يتصور ان الانسان بمجرد خروجه من عالم الغيب اكب يعبد الحجارة والجبال والاودية والاشجار ، بدون ان يكون له شعور مبهم سابق على ذلك التحديد ؛ لا يتصور ذلك بوجه من الوجوه . اذن فاول عبادة عبدها الانسان كانت روحية قلبية على صفتها الصحيحة وموجهة للخالق الاقدس المنزه عن الحدود والقيود .

يقول الماديون مما يدل على ان اباءنا الاولين كانوا محددين مجسمين ، لا مطلقين منزهين ، ان لغتهم خالية مما يدل على الاطلاق وعدم الحد فلا تجد فيها لفظة (لا نهاية) . نقول ان خلو اللغة منها لا يدل على عدم وجود معناها . على انها في كل لغات العالم مركبة من كلمتين يمكن تكوينهما حالا في اثناء التخاطب كقولنا : لا نهاية . او لا حد . او لا غاية . او لا آخر وهكذا . ومع ذلك فان اللغات القديمة قاصرة عن اشياء كثيرة ، حتى في المحسوسات فلم يوجد في واحدة منها الاشارة الى تدرج الالوان وتداخلها في بعضها بدون شعور ، وليس في اغلبها الا اربعة الوان فقط ، الاسود والابيض والاحمر والاصفر ، فهل يصح ان يقال انهم كانوا لا يعرفون الزرقة من الالوان والسماء فوق رؤوسهم تتألق في حلتها

النضراء . على ان فكرة (اللانهاية) يميل اليها المتوحش اكثر من المتمدن . ألست ترى ان الجاهل من الناس اذا اراد ان يصف لك عظم بلدة من البلاد لم يجد في فكره من اوصاف المبالغة ما هو اقرب من قوله : تلك بلدة ما لها اول ولا آخر . وهذا الاستعمال يشاهد عند الجهلاء والمتوحشين اكثر ممن عداهم . اذن فنظرية الماديين قاصرة ولم يحد بهم الى اعتقادها الا أصولهم القاضية عليهم بعزو جميع المدركات الى الحواس الخمس وما أضيق هذا المجال واحرجه ؟

لا يجدر بنا ان نختم هذا الفصل حتى ننبه أن فيه معجزتين عظيمتين تعدان من أكبر المعجزات لسيد الأنام صلى الله عليه وسلم ومن أوضح دلائل نبوته العامة لمن كان له قلب يذوق العلم ، ووجدان يحس بالحقيقة . (اولاهما) ان قول الاستاذ (ماكس موللر) ان الانسان مفطور على (الدين الحق) تعد منه ترديداً لمعنى هذه الآية الكريمة التي انزلت على سيد الانام قبل ميلاد (موللر) بثلاثة عشر قرنا تقريباً وهي : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . » وقد رأيت انها لم يتحدث بها في العالم العلمي الاوربي الا في القرن التاسع عشر ولم يذعها الا كتاب الاستاذ (ماكس موللر) في سنة ١٨٧٩ (ثانيتهما) ان فلسفة الأديان أرتنا كما نقلناه عن الاستاذ المومأ اليه ان اصل الاديان كلها واحد ، وان ما أحس وعمل به الانسان الاول من الدين هو بعينه ما يحس ويعمل به اكبر انسان في العصر الحالي . ولا تغرنا الالفاظ المفوفة والعبارات المزخرفة والاساجيع المنمقة فانها كلها تعبير لما في الوجدان وليس وجدان الجاهل بأقل شعوراً بها من وجدان اكبر فيلسوف . وهذه أيضاً فكرة جديدة جداً سبقهم القرآن الكريم اليها وقال صريحاً بأن أصل كل الاديان واحد وهو الامر بعبادة الله الواحد في قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً)



الدور الثاني

« دور الفلسفة »

كان الانسان فى دوره الاول مطبوعاً على الايمان كما أثبتنا ذلك في الفصل المتقدم ، فلم يكن للشبهات والشكوك سلطان عليه ، وكيف يشك الانسان فيما يحس به فى ذاته ، ويشعر بالدافع له اليه ، ولكن لما ابتدأت خصيصة التعقل تسوق الانسان الى التملى بمجالى هذه الطبيعة الباهرة ، وتبعثه للحكم عليها بقدر ما وهب من القوة المميزة ، أخذ قبل كل شيء يبحث فى موضوع عبوديته واخباته ، وطفق يسمو بروحانيته ليدرك ذات المتصرف المطلق فى هذا الكون العجيب ، فجال في هذا المبحث العظيم جولة الطفل تشغله ملهيات الظواهر عن حقائق البواطن ، وتستوقفه بهارج الاعراض عن النفوذ الى الجواهر ، وناهيك بعقل البسطاء من سكان الكهوف والمناور ، فهب يشخص الهه على مقتضى حواسه الشخصية ، وخصائصه الذاتية ، ثم أخرج تلك الصورة من حيز الخيال الى حيز الظهور فاصطنع الاصنام والتماثيل ، وملأ بها الهياكل والمعابد ، وكلف نفسه تقديم الهدايا والذبائح اليها ، واقامة الحفلات والولائم لها ، وصار يرقي معبوده فى الشكل والخصائص ، كلما ارتقى درجة في التصور ، حتى انتهى حالها من جمال الصنع ، ورشاقة الوضع ، الى ماوصلت اليه عند قدماء اليونانيين والرومانيين .
في هذا الدور دور التخيل والتعقل ، كان الله تعالى يرسل رسله تترى الى الامم بالعقيدة النقية الخاصة من قذر الظنون ، وكدر الخيالات ، ليخلع الناس ذلك النير الثقيل الذي ألبسوه أنفسهم فما كان يهتدى منهم الا اللذين استعدت افئدتهم لقبول ذلك النور وقليل ماهم بين تلك الامم الطفلة .

عرف الانسان فى كل زمان ومكان بشدة الكلف بدينه ، وعظم التمسك بمعتقداته ، فكان يدافع عنها دفاع المستميت اليائس ، وينتصر لها انتصار المهضوم حقه ، المصاب فى عرضه ، ولا يتأخر من الحاق الضرر بالساعين في تهذيبه ، حتى قتل بهذه الحجة عدداً من الانبياء ، ومئات من الحكماء واصحاب البصر ، وعد قتلهم نصرة للدين الحق على الاباطيل .

ظل الانسان ينسج على هذا المنوال العدائي ضد عقلاء افراده ، حتى تفجرت ينابيع الحكمة في باحات القلوب ، ولطف احساسات الناس نوعا بواسطة تلك العوامل التي خلقها الله تعالى لأيقاظ هذا النوع فتبين لهم [١] ان الوثنية عبء ثقيل على المدارك ، واتضح لهم انها بنت الخيال ونبت الضلال ، فافردوا للمكون الها واحداً وعزوا اليه من الصفات منتهى ما وصلت اليه مداركهم .

هذا الرق التدريجي في الدين يشاهد باجلى مظاهره عند براهمة الهنود ليس في المجتمع فقط بل في العائلة الواحدة أيضاً . روى الاستاذ « ماكس موللر » الموما اليه في نفس كتابه المتقدم ذكره ان البراهمة قد وصلوا من حرية الاعتقاد الى حد انهم يتركون كلا يعبد ما يوصله اليه عقله ، فترى الاب الهرم في عائلته العديدة الافراد ربما وصل الى اعلى مقام من التنزيه والتوحيد ، ولكنك ترى ابنه امامه يضحي الضحايا لصنمه المعبود ، وعن يمينه ابنه الثاني يرتل الاشعار الخيالية في مناقب الآلهة المختلفة . يرى كل هذا ولا يتأثر له تاركا لعقلهما حق التصرف في ايصالهما الى نقاء العقيدة

في هذا الدور كثر التجادل والتنابذ في أصول العقائد ، وكان اختلاف الناس في المدارك وتباينهم في درجات التصور ، سبباً في انفراج مدى المذاهب بينهم ، فأخذ كل فريق يجهد عقله ويعمل فكره ، على حقية الصفات التي يعزوها للخالق جل شأنه ، ويكلف نفسه الاتيان بمزاعم خصمه ويكر عليه بالحجج الداحضة ، حتى صارت كتب اللاهوت عبارة عن تحاور في الالفاظ ، وتناقش في الاصطلاحات ، مما يدل الرائي انه لا سبيل الى الوفاق ولا مساغ لطرد شيطان هذا الشقاق . وأنى يستتب الوفاق بين أحزاب جعلت العقل المجرد متكأ للحكم على أصل الاصول ، وحقيقة الحقائق . لا جرم ان الخلاف يكون بينهم مستحكماً ، والتفرق سائداً ، على نسبة اختلاف البشر في درجات العقول وتفاضلهم في مواهب الفكر . ولما كانت سائر المعقولات قابلة للاخذ والرد . وكان من أساليبها المعمول بها فرض الفروض التي لا تعقل وتكلف الرد عليها ، كانت الشكوك والشبه من لوازم هذا الدور ، بل

(١) نحن لا نريد عموم النوع الانساني وانما نريد ارقى الامم منه فانه يوجد في كل عصر أمة يتركز فيها مبلغ الرق الانساني كله .

من اخص مميزاته . لهذا وجدت بعض الافكار الحادة مجازاً الى الافراط والتفريط ، فتقمصوا لباس المشككين ، وظهر في كثير من الامم رجال جعلوا ديدنهم التشدق بنفي الصانع ، وبناء النظريات الفارغة على مجرد الوهم . وما المانع لهم عن ذلك ما دامت المسئلة اصبحت فوضى وصار العالم الذي يشار اليـه بالبنان هو الذرب اللسان ، الشديد المحاولة في كبح الخصوم ، واضحى العلم كل العلم هو دقة التعبير وابتكار ادق الاساليب ، لتكون بمعزل عن مماسك علم المنطق ؛ لا مانع من كل افراط وتفريط فى صوغ النظريات ، ما دام السلطان المطلق للجدل العقلي ليس الا . من هنا ظهرت النظريات الالحادية ومال اليها بعض الفلاسفة فنشأت بينهم وبين الاعتقاديين حروب قلمية ، استحالت الى حروب دموية وليس هذا موضع التفصيل .

تفنن الاول في ايجاد الشبه الدقيقة ، ومهروا فى صوغ العبارات الجدلية وهبوا ينسفون اراكين العقائد من اصولها ، ويذرون بناءها الشامخ فى عواصف الشكوك ، فلم يسع حفظة العقائد الا التألب على دحض مفترياتهم ، وسحق نظرياتهم ، غير انه لم يمض الاقليل من الزمن حتى اصبحت الفرق المذهبية تعد بالمئات ، لا يجمعهم أصل ، ولا يضمهم فرع ، فركن حزب الدين بما له عند بعض الامم من نفوذ الكلمة والسيطرة على الهيئة الحاكمة الى استعمال القوة ، بعد ما أعلنوا ان البحث بالعقل في اصول العقائد محظور ، ظناً منهم ان القوة تفعل مالا يفعله الاقناع بالبرهان ، فقرروا من انواع العقوبات على المبتدعة ماينفر منه طبع الانسان ، ثم اوغلوا فى تنفيذ قانونهم هذا بغاية الشدة والصرامة ، ومالأهم على ذلك اصحاب السطوة والسلطان ، وما علموا ان صرامة العقوبة لاتستطيع ان تقاوم السنن الطبيعية ، ولا أن تعكس سير الاميال البشرية ، وانهم بذلك يزيدون الداء استعصاء ، والكلم انكاء واستشراء ، والنفوس جماحاً واباء ، وفى الواقع رأيناهم كلما تشددوا فى التشفي والانتقام اشتد ساعد الالحاد ، واندلع لهبه بين الافراد ، حتى حدثت فى الاذهان ثورة فكرية ، تبعتها ثورة فعلية ، قلبت شكل الوجود رأساً على عقب وخلصت العقل من اوهانه الاولية ، وبسطت للعلم والفكر ميدان الحرية ؛ هنالك ظهر من الافكار ماكان مستوراً مكنوناً ، وبرز على رؤوس الاشهاد ماكان سراً مصوناً ، ولعبت هزة النصر بالافكار المذبذبة دوراً مثلت فيه اقبح الادوار الماليخولية ، على مراسح تلك الحرية العلية . ومما زاد الطين بلة ظهور الفلسفة الحسية ، فصار من المقرر عند

الأكثرين ان زمان الاعتقاد قد فات وانقضى ، وانه لايمر بضعة اجيال حتى تتلاشى آثاره من العقول دفعة واحدة . هذا ما حصل فى دور الحرية العلمية الذى نريد ان نشبع الكلام فيه فنقول

الدور الثالث

(دور العلم)

لم يمر على حفظة العقائد دوراً اشد هولا من هذا الدور . على ان حدوثه مع ما فيه من افراط وتفريط وغلواء وسفسطة وعناد ومغالطة كان امرا منتظرا لا بل حادثا طبيعياً لان كل الرذائل التي شوهت وجه هذا الدور كان لها مقدمات تقتضيها في الدور الذى سبقه فلم تكن لتوجد هذه لو لم تكن تلك .

ارتكب حملة بعض الكتب السماوية فى الدور الفارط غلطات افراطية استدعت مايقابلها من السفسطات التفريطية ليحصل التوازن بين الشقين المتنابذين ويؤوب الى الاعتدال من هدى الله من اصحاب الفطر السليمة . وهى سنة من سنن الخالق تشاهد فى كل خطوه من خطوات الافراد والامم .

من تلك الغلطات الافراطية ضغطهم على حرية العقل والعلم ، واهتمامهم بحصر الافكار فى دوائر ضيقة لايمكن اجتيازها ، وزعمهم ان العقل عدو الدين ولا سبيل لفهم الدين بواسطة العقل . ومنها عدم اقرارهم بالعجز عن ادراك ذات الخالق وتشبثهم بوصفه بما يروق لعقولهم وترضاه لهم مداركهم ، وحمل الناس على اعتقاد ذلك والعمل به ومعاقبة كل من يناقشهم فيه . ومنها حسبانهم مسائل خلق الكون من الدين وتقدير الطبيعة بحسب افكارهم وقصر قواها وعجائبها على ماوصل اليهم من الاقاصيص القديمة الخرافية .

بلغ الغلو فى حمل الناس على هذه الاغاليط الى حد انهم تربصوا لكل من يشمون فيه بارقة الحرية العقلية فنكلوا به شر تنكيل ، واذاقوه العذاب الوبيل فكم احرقوا من علماء وصلبوا من حكماء وسموا من نبلاء ازكياء ، حتى شوهوا وجه مذهبهم وجعلوه عنوان العسف والاجحاف ، بعد ان كان الدين رائد العدالة والانصاف . ولكن هيهات ان يوقفوا سير ناموس

الرقي الذي يدفع الانسان بمؤثراته وفواعله غير المحصورة الى اجتياز كل عقبة وتخطى كل مفازة للوصول الى قمة ما اعد للوصول اليه . فكانوا كلما اوغلوا في الظلم والضغط تدبه الناس بحكم الضرورة القاهرة الى تلمس المخلص من هذه السيطرة المخوفة المحفوفة بالمكاره وكلما نمى فيهم هذا الشعور بتوالى تلك الضربات القاسية وحميت حرارة الاسى فى سويداء افئدتهم انفجرت ينابيع مواهبهم وملكاتهم ، واشرقت في صميم ذواتهم انوار مداركهم فشجعتهم على الثبات والمصاولة، فصار اؤلئك الغلاة كلما صدوا لهؤلاء تياراً لاقاهم تيار اقوى منه سيرا حتى بلغ التدافع منتهاه ، وتكافأت القوتان وادرك اولئك المسيطرون ان حكم الله لا يرد ولا يعقب فألانوا الجانب وحاولوا ان يأخذوا باللين ماتعاصى عليهم بالقوة فاخفق مسعاهم ولم يلبثوا ان تحققوا ان خصومهم احاطوا بهم من كل جانب وساوروهم من كل صوب فلم يسعهم الا الصمت على مضض منتظرين مايأتي به القدر .

هذا ما كان من اولئك، اما اصحابنا نصراء الحرية العقلية وزعماء العلوم الطبيعية والفلسفية فقد انتشوا بسلاف الانتصار وازدهتهم تلك الحرية المطلقة بعد ذلك التقييد الجهنمى ، فجازوا تخوم الاعتدال . وبدلا من ان يرجعوا الى انفسهم ويتحدوا على ما يجب الاعتماد عليه من اصول العقائد ليحملوا العامة على تقليدهم فى مناهجهم ، استقل كل بنفسه ووقع في مثل ما كان يجاهد لازالته من الافراط والتفريط فمهم من ترك المعتقدات وشأنها حقيقة كانت اوباطلة واكب على درس المادة وحدها ومنهم من لم يقف عند هذا الحد بل تطوح الى نكران كل شيء لايقع تحت حسه ؛ ومنهم من اطلق لنفسه عنان الحرية فى الاعتقاد وكون لنفسه ديناً خاصاً بها ، وبقيت العامة بين هذه المذاهب المتشاكسة لاتدرى اى الطرق اقوم ولا الركون الى اى حزب اسلم، فأدتها تلك الحيرة الشديدة الى مجافاتها كلها دفعة واحدة وصاروا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء وثبتهم في موقفهم هذا تنازعهم فى البقاء واستنزاف الاغنياء لسائر اوقاتهم فى الشغل بتعصباتهم الاشعبية ، فصار العامل يصبح مشتغلا بجسمه ومخه حتى يمسى ثم يتقاضى اجره دريهمات معدودة، ويذهب الى بيته فتنهال عليه وساوس الفقر والفاقة وسوء الحال فلا يجد مسليا له من هذا الكد الواصب والهم الناصب غير معاقرة بنت الحان

فيصرف عليها ثلثي اجرته ويترك اولاده يموتون جوعا [1] .

هذه الحالة التعيسة تسبب عنها انتشار جملة احزاب وجمعيات مدمرة شريرة لا هم لها الا تغيير النظامات وتبديل الاحكام وابادة الحكام واصحاب الحطام . قالوا ما بالنا احط رتبة من الحيوانات في نظاماتنا الاجتماعية واقل تمتعاً منها بمزايا الحرية الطبيعية ؟ ما هي تلك القوانين المسطورة في بطون الاوراق، وما هي تلك الفئات التي تدعي لنفسها حق الاشراف والسيطرة على اميال الشعوب ؟ ما معنى رجل يتبختر في الاستبرق والحرير، ويتهادى بين الحياض والازاهير، وامامه رجل ليس له من حق الوجود غير استنشاق الهواء، وتوقع الفناء تحت كلاكل الضراعة والضراء ؟ كلا . ان العدالة كل العدالة هي ترك الانسان وشأنه تحت رحمة قانون التغالب ، حتى لا يفوز براحة الوجود الا من وهبته الطبيعة قوة الغلبة في هذا المعترك المشهود . وعلى هذا فمن الواجب تضحية كل مرتخص وغال في سبيل الوصول الى هذه الرغبية السنية بكل الوسائل الامكانية . بالحيل والمخاتل . وبالقنا والقنابل . بالمدى والمعابل . حتى يخلو الجو من هؤلاء المسيطرين ويتجلى عن الوجود هذا الظلم المبين

هذه فرقة من فرق كثيرة يعد افرادها بالملايين نشأوا تحت سماء تلك التعاليم الالحادية وازداد عددهم بمؤثرات تلك المدنية المادية حتى خشي على بناء المجتمعات المتمدنة ان يتصدع ان لم يتداركه الله بروح من عنده . كل هذه الزعازع والفتن لفتت عقلاء الامم الى تشخيص هذا الداء وتلمس الدواء ، فرأوا والبرهان امامهم ان ميكروب هذا المرض هو فقدان الدين وخلو الفطر من انوار اليقين فهبوا يستردون ذلك المفقود الغالي ويسترجعون ذلك الا كسير الشافي ولكن بأي الوسائل ؟ اخذت تعاليم الفلسفة الحسية من العقول مأخذها ولم يعد من الممكن ادهاشها بخيال ، ولا الهاؤها بزخرف مقال . اشعرت النفوس ان رضوخها لمحض الدليل العقلي تطوح بذاتها الى مثل ما كانت عليه في الماضي واتضح بطلانه في الحاضر، وعلمت ان ارتكانها على معقول لا يسنده من جانب الحس دعامة قوية ، لا يسلم من شوب المسائل الوهمية . فهبت تسترد اصول العقائد ولكن بنور العرفان وتسترجع مفقود اليقين ولكن باسنة البرهان .

(١) انظر مجلة المجلات الفرنساوية مجلد ١٧

رجوع الانسان لدين الفطرة

هذا الاندفاع من الطبيعة البشرية وراء تلمس العقيدة النقية ، المبرأة من كل الشوائب الوهمية والفروض الظنية، تعد من اكبر مميزات القرن التاسع عشر فقد اصبحت الشغل الشاغل لأساطين العلماء في البلاد المتمدنة لارتباطها بمستقبل الامم تمام الارتباط . جاء في مجلة المجلات الفرنساوية مجلد ٢٤ ماياتى : « ان هذه المسئلة هى أهم ما يشغل العالم المتمدن لأن مستقبل الامم المتمدنة يتعلق بحلها . »

ولكن من أى الطرق توجه العقل الحاضر الى حل هذه المسئلة السامية، ومن اى المنافذ سرت اليها اشعة الافكار المبرأة من خطرات الوساوس، وعلى اى دعامة ارتكز التصور للصعود اليها ؟ لم يجد الانسان الحالى محيصاً امامه الا الرجوع الى أصل الفطرة التى فطر الله الناس عليها خصوصاً بعد ما أصبح من المقرر الثابت ان نزغات تلاعبت بالاديان فاخرجتها عن أصولها، ونزوات توزعت مبانيها فزحزحتها عن مراكزها اللهم الا تلك الفطرة الاولى التى لم تزل في كل دور من ادوار الانسان تبرهن على استقلالها وثباتها، قال (هنرى بترنجيه) المتقدم ذكره في المجلة نفسها « اذا كان الانتقاد التاريخى قد هدم كل الاشكال الثابتة غير القابلة للتغير فى الاديان فانه لم يستطع ان يمدوا على تلك الغريزة الدينية بل قد شهد باستمرارها وشيوعها فى كل دور من ادوار التاريخ وان كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم انفه . ففى كل جهة وكل زمان وكل مكان قد شوهد احتياج الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية في اخس الاديان الوثنية كما فى ارقى العبادات الروحانية هذه هى الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الاديان فمن المستحيل عليه ان يطفئها ولكنه سينقلها الى المستقبل وحيث ان الاديان ليست الا مظاهر خيالية لهذه الغريزة الدينية، فستتلاشى آجلا او عاجلا ككل الآثار الانسانية ولكن تلك الغريزة لن تتلاشى أبداً الا مع الانسان نفسه . »

هذا الرجوع من الطبيعة البشرية الى دينها الفطري ليس ببعيد العهد عنا قال الكاتب نفسه (نؤمل في ذلك (اى الوصول الى حل المسألة الدينيـة) لا سيما وانه منذ مائة عام قد

كوّنت الديانة الباطنية ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنساويين (فجان جاك روسو) و (لمرتين) و (لمنيه) و (ميشليه) و (كينيه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة. وقريب منا (ارنست رنان) و (جيو) و (شوريه) و (سبتيه) قد اعطوها قوة جديدة ودقة عظمى .) فما هي يا ترى أصول هذه الديانة الجديدة التي يؤكدون انها غاية ما ترمى اليه مواهب الانسان من العقيدة؛ يحسن بنا ان نلق هذا السؤال على أساطين الفلسفة في اوروبا . قال الفيلسوف (كارو) في كتابه (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) : (قواعد الديانة الطبيعية هي الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانساني (وهذا غاية التنزيه) ووجود روح في جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة في هذا الجسم المادى امداً لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها ان تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها ان تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس . ووضع الحرية الاخلاقية التي هي ينبوع واصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقي وهو التخليص التدريجي للنفس من علائق الجسم والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . واخيراً الاعتراف بقانون الترقي ولكن بدون فصل رقي الانسان في مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة » وقال الفيلسوف الطائر الصيت (جول سيمون) في كتابه « الديانة الطبيعية » : « كل اصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . اما أصوله فهي الاعتقاد بوجود اله قادر على كل شيء ولا يغيره شيء خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة . ووجود حياة أخرى تؤدى لنا كل وعود هذه الحياة وتكافئ المظالم بالجزاء الاوفى » هذا ولا شك رجوع من عقلاء النوع الانساني الى الدين على أبسط أشكاله اى الى الدين الفطري الذى حمله الانسان معه بالفطرة . فلنرفع صوتنا اذن في ظل معارف القرن العشرين قائلين



الاسلام هو دين الفطرة

الفطرة لغة الخلقة ، والخلقة في اللسان العصرى الطبيعة ، فالدين الفطرى يمكن تعبيره باللسان العصرى بالدين الطبيعى ومعناه انه لا يكلف الانسان الا بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته وقد سعى فى القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعى في أوروبا وكونوا لهم ديناً سموه بهذا الاسم ولم يدخلوا الى أصوله الا ما تقضي به الفطرة الانسانية وتقر على حقيته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزهاً على الرموز والاسرار عملا بقول شيخهم الكبير (كانت) الفيلسوف الالماني حيث قال : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوى الا على قوانين أعني قواعد صالحة للجرى عليها نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة وتكون مجردة عن الاساطير والتعالم الكهنوتية »

سلك هؤلاء هذا المسلك في القرون المتأخرة بعد ما سئموا من تناقض الاديان ، وانفوا من الرضوخ للكهان ، ولم يعلموا ان الدين الطبيعى قد اوحاه خالق الطبيعة على اشرف عباده قبلهم باكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق في كتابه المبين . ولنثبت لقرائنا ان الاسلام هو الدين الفطرى الذى لا يعتريه الزوال ، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول :

تبين لنا ان الانسان على حالة البساطة الاولية ، والسذاجة المبدئية شعر بلزوم الاخبات لخالق ذاته ، واحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فلم يحرمه الله من اسعافه بعباد له كان يصطفيهم لحمل امانته ، والقيام بتبليغ امره الى خليقته ، فكانوا يجيئون اقوامهم بدين الفطرة ، لان الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) ولكن الناس فى تلك الاحيان كانوا من سن الحياة العمومية ، في دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات اكثر من الحقيقة ، فكانوا لا ينصاعون لرسولهم الا مادام فيهم ومتى انتقل الى العالم الآخر ارتكسوا الى عقائدهم الاولى مكسوة بثوب جديد ، حتى اذا جاءهم رسول آخر قاوموه ونابذوه ، ومكروا به وصاولوه ، وماروه بكل حجة وجادلوه ، وفيما يحكى الله عن حالهم صورة من امرهم مع رسلهم قال تعالى : « وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الارض جميعاً فان

الله غنى حميد . الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم، لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم فى افواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب . قالت رسلهم افى الله شك فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى، قالوا ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

هكذا كان حال الامم مع رسلهم فى خلال تلك القرون المتوالية حتى جاء القرن السادس وسترى حال الامم فيه فيما يلي من الفصول ان شاء الله مما كان داعياً الى آية كبرى تردهم عن غوايتهم وتوقظهم من سكرتهم ، وقد كان ذلك ، فارسل الله تعالى خاتم انبيائه بدين الفطرة الذي ارسل الله به رسله من قبل (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) . فخاطب الناس قائلا عن ربه (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيما) فدخل الناس أفواجاً فيه لانهم كانوا قد سئموا الخيالات المضلة التى مزقتهم احزاباً، وفرقتهم افذاذاً ، فدخل فيه من غير العرب فى قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ولم يزل ينمو لليوم بصفة مدهشة بتأثير المدنية الاوربية نفسها وان تعجب من ذلك فاليك التفصيل : قد رأيت ان الفارق بين الدين الفطرى اى الطبيعى والاديان الاخرى هو ان الاول مرتكز على الحقائق المحسوسة والثاني على الخيال ، فيكون الانسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه، والامم قبل سريان الحركة الاوربية الاستعمارية في العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها مستنيمة الى أساطيرها لا يزعجها عنها شئ : تؤله ماشاءت من الرجال ، وتعبد ما ارادت من الحكماء والابطال ، والخلاصة انها كانت من الدين على خيال ومن المدركات في ضلال . فلما جاء دور الاوربيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار، والكهرباء والبخار، اقاموا لتلك الامم بأفواه المدافع والبنادق وبالسنة المشرفيات الصوارم، اكبر البراهين الحسية على ان عهد الخيالات قد مضى وان ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة ذلك الاله او كرامة ذلك الكاهن، خرافات باطلة، وترهات فاضحة فانجلى الدين عن افئدتهم وخوى جنانهم من العقيدة فاستعرضوا الاديان التي وصلت

اليهم فلم يرتضوا منها غير الاسلام ديناً لخلوه من الخيالات ، وارتكازه على المحسوسات ، فدخلوا فيه افواجاً افواجاً ولم يسمع فى تاريخ الانسان ان القبائل بجذافيرها تدخل الى دين فى زمن ضعف سلطة اهله غير الدين الاسلامي . وبناء على هذا فكلما توغلت مدافع الاوربيين فى احشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار الحقيقة على الخيال ، وفتحوا الدين الله اكبر مجال « ان الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله »

الاسلام هو الدين الفطرى او الدين الطبيعي لانه لا يكلف الانسان الا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده ، ولا يجيئه من العقائد الا بما لا يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه وترقيه لان غرضه الاول تخليص النفس الانسانية من تلك الكسف الظلمانية التي اسدلها عليها حفظة العقائد ، وسدنة المعابد ، والزاعمين بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق ، وليطهر الافئدة مما ران عليها من آثار الوراثات والتقليد ، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصبات والجمود

كان الناس من جهة الدين فى غيابة من الوهم ، وظلمات من الجهل ، يقدسون اساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين مالو أرادت البصيرة ان تتنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف فى اصفاد اليأس ، واغلال اللبس ، من هول ما وضع امامها من عقبات وما احيطت به من غياهب وظلمات ، فكانت بين امرين اما ان تقتنع من الحياة بمجرد البقاء ولو كان العمه لزيمها ، والحيرة صفتها ، واما ان تحاول ان ترى النور فتعرض نفسها لخطر ايسره ان تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولا توهما . جاء الاسلام والبصيرة فى هذا الانين ، من ثقل نير الدين ، وفى لهف شديد ، الى نور جديد ، فصاح بالناس : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيما »

كانت النفوس حيرى فى معنى الدين ؛ لا تعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال المهين ، فقرر لها الاسلام بان الدين ضالة الارواح وانشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الراحة والطمأنينة ، ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لا تعدد فيه ، بعث الله به كافة الانبياء الى الامم رفعاً لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسما لما احتوشهم من روح النزاع : « كان الناس امة واحدة فاختلفوا »

اما ذلك الدين فهو الاسلام لله اى الاستسلام الى احكامه بالقيام على صراط الفطرة المجردة عن الاوهام والافكار البشرية التى هى داعية الخلاف ، ومثيرة التنابذ بخلاف الفطرة ، فانها واحدة فى عموم النوع الانسانى فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليها ، ولا يتصور شقاق بالانصياع لمقتضياتها « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك (اى جادلوك) فقل اسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ، فان اسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » « بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم فمن يهدى من اضل الله وما لهم من ناصرين . فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون »

التفت الى اولئك الذين استعبدوا أنفسهم للاهواء ، وخضعوا لسلطان الاوهام ، وحصروا عقولهم في مضائق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم قائلا : « ان هى الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ثم طالبهم بالدليل على ماحملوه عقولهم من هذه المدارك الفاسدة قائلا : « ائتوني بكتاب من قبل هذا او أثارة من علم ان كنتم صادقين » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون » « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »

ثم سجل عليهم انهم أسراء الوهم ، وعبدة الظن فقال : « وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لايغنى من الحق شيئاً »

ثم بين لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم لزخارف الخيال ، الاسير لكواذب الاوهام فقال « افمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم »

ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر وخلعوا عن اعناقهم ربقة الذل والاسر ، ونفضوا عن رؤوسهم غبار الصغار والعبودية فقال « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور . ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما

عملوا ان الله عليم بذات الصدور » « ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا »

ثم امرهم ان لا يتبعوا ديناً من الاديان التى أقيم لها المعابد والكهان ، وصارت عبثاً ثقيلا على هامة الانسان ، لما سرى اليها من الضلال والبهتان ، ولكن الزمهم الاعتراف بان اصل جميعها واحد ، وهو الناموس الاقوم الذي بعث الله به الرسل الى الامم كافة فلم يحفظوه من التبديل والتحريف ، فكلف الاسلام اهله بالايمان بها اجمالا فقال : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

هذا هو الدين الفطرى فى بساطة معناه ، ومتانة مبناه ، وهو الذى دعا اليه الانبياء كافة وتمت الدعوة اليه بخاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت انه من جهة التدين لا يدعو الا لما يشعر به الانسان في ذاته شعوراً ضرورياً طبيعياً ، اما تلك الاساطير التى حامت بها الديانات وعدت من اركان الايمان فيها فقد أثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرة وصار اعتقادها والتمسك بها من الازراء بالعقل ، والتغرير بالنفس لانها ليست الا مبلغ علم الاقدمين بالطبيعيات والتاريخ توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلا مقدساً كما هي سنة الناس فى احترام اسلافهم ، حتى صارت هي الدين بذاته وقد سبق القرآن العلم والفلسفة الى تقرير انها اباطيل واوهام فقال « ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ثم انبأنا بأن الاسلام مقدمة عصر العلم ، وطليعة دولة الحق ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعي الكبير الذي اكتشفه (دارن) و (ولاس) بعد القرآن بثلاثة عشر قرناً تقريباً وهو قولهما (لا يبقى الا الأصلح) فقال تعالى بافصح عبارة واكمل بيان « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

اما من جهة العلم بالكون واشيائه فارانا اننا لم نعلم منه الا قليلا وامرنا بدوام طلب العلم فقال تعالى «وما اوتيتم من العلم الا قليلا» « وقل رب زدني علما» وبهذا فقد هدم صرح

تلك العقائد الباطلة التي يزعم اصحابها انها حوت علم الاولين والآخرين، على السموات والارضين مما اذن الله به للعالمين، وان ما عداه فرجس باطل، وخيال حائل، يستحق معلمه ان يحرق بالنار، او ان يصلب كالفجار. اما من جهة سير الماضين، واخبار المتقدمين، مما جعلوها اساس العبادة والايمان، وعلقوا عليها نجاة الانسان، مما اثبت التاريخ العصري بالحس والعيان، انها خرافات اخترعها الخيال، وسطرها الجهال، وانها ليست خاصة بدين دون دين، ولكنها عامة عند الامم اجمعين، مما يشعر انها دأب الاولين، فقد سد الاسلام هذا الباب سداً محكماً بتقريره «وان ليس للانسان الا ماسعى وان سعيه سوف يرى» و«كل امرئ بما كسب رهين» و«تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون»

اما سرد حوادث الماضين فهي وظيفة التاريخ له فيها اسلوب خاص به مثل سائر العلوم الاخرى، اما الاديان فوظيفتها اشرف من كل وظيفة وهي اقامة الانسان على سنة الفطرة بتخليصه من كل ماليس طبيعياً فطرياً، وتنزيهه مما يرضخ له تقليديا. ليعيش حراً متمتعاً بعقله وفكره وحكمه، لا عبداً لاوهام غيره. الا ترى انه لما سأل فرعون موسى كما قال تعالى: «فما بال القرون الاولى» اجاب موسى عليه السلام كما قال تعالى «قال علمها عند ربي في كتاب لايضل ربي ولا ينسى» فانظر الى هذا الجواب النبوي الكريم الذي يشير بغاية الصراحة الى ان التاريخ ليس من وظيفة الانبياء من جهة، ومن جهة أخرى يشير الى ان سير اهل القرون الاولى ليس مما يمكن التهجم عليه بتلك الجسارة التي تشاهد في الجهال بالتاريخ بل هي حوادث كبرى تحتاج لمثل مايحتاجه كل علم من العناية والدقة. انظر الى هذا الجواب النبوي ثم انظر الى اولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم الى اليوم سرداً يشعرك بانهم شهدوا احوالهم، ومن العجب انهم يعلقون على ذلك عقائدهم وايمانهم

أما من جهة الاخلاق والعوائد فالاسلام لا يطلب من الانسان فيها غير الاعتدال والتوسط. لانه لما كان الدين الفطري (او الطبيعي بلهجة أهل العصر) فينظر للانسان نظر العلم الطبيعي له اى بصفته ابدع الانواع الحية واكمل نموذج للصورة المادية «انا خلقنا الانسان فى أحسن تقويم» ليس فى تركيبه الخارجي والداخلي ولا فى شكله الصوري والمعنوي زيادة ولا نقص لو اتبع في نموه قانون الحكمة الالهية، ولكن الخالق الحكيم اذ أعده الى منصات

من الكمال يحسر دون ادراكها التصور، فقد متعه بخاصيتي الاختيار والارادة وأراه طريقي الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحي، وصرح له بأنه ان اعتدل نال غايتي كماله المادي والادبي وان انحرف ارتطم فى عقبات النقص وارتد الى اسفل من عالم الحيوان كما هى السنة الطبيعية فى هبوط العالى فقال تعالى: « انا خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون »

نظرة على الادوار التي تنتاب العقائد

من اكبر الشبه التى يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور الملبين، وينغض بها الماديون من أعين الاعتقاديين هى قولهم ان الانسان مر ويمر من عقائده على ثلاثة ادوار (أولا) دور الاحترام والاجلال، والاعتقاد بانها نهاية الكمال (ثانياً) دور الشك والارتياب، عند يقظة الافكار والالباب (ثالثاً) دور العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده، وينال الانسان رشده، فيعلم ان الاديان أساطير الماضى، ووساوس الاقدمين فيتركها ويتجه للعلوم يغتذى لبابها، ويستسق ربابها، ويكون بذلك كالشاب جاز دور الطفولة، واتسم بصفات الرجولة، تمر به مدركاته القديمة فيعدها حلماً لذيذاً، وخيالا مسلياً، ويضحك منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل؛ ثم يأخذ فى شأنه من الجد وراء الحقائق المحسوسة والدأب لاستغلال خير الطبيعة، وتحسين بنى نوعه من كل الوجوه الممكنة

نقول ان هذه المقولة ان صدقت فى نسف صروح العقائد التى انس بها الانسان فى دور طفوليته، فلا تصدق على الاسلام الذي ارسله الله عند ما بلغ الانسان رشده وسئم الوصاية عليه. واليك التفصيل:

المسائل الكبرى التي يطأطئ المسلم امامها رأسه ويحترمها جهده هي بعينها كبرى المسائل الفلسفية التى ستبقى ما دام الانسان حياً، نقطاً بارزة في حياته يزيدها مر الايام وضوحاً وجلاء، وتكسوها زيادة العلم كمالا وجلالا وهي

اولا -- ان لهذا الكون الباهر غير المتناهي صانعاً حكيما « لا تدركه الابصار » ليس كمثله شيء » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » « اعطى كل شيء خلقه ثم

هدى » « خلق كل شيء فقدره تقديرا » ولا ينكر احد ان هذه كبرى المسائل العالية التي لا يتصور زوالها بوجه من الوجوه .

ثانياً — ان للانسان روحاً غيرمادية لها حياة خالدة فى وجود غيرهذا الوجود . وهذه ايضاً من المسائل العظمى التى اصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول كما ننقله عنهم فى كتاب ما وراء المادة

ثالثاً — ان لله ملائكة وهم خلق متجردون عن المادة « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون مايؤمرون » وهذه ايضاً مسألة اثبتتها مسألة استحضار الارواح اثباتاً حسياً كما ستراه ان شاء الله

رابعاً — ان لله رسلا من الناس يمتعهم بخاصية الاشراف على الملا الاعلى ويستودعهم اسرار وحيه ، وقوانين الدين ليبلغوها الى أممهم « وان من أمة الا خلا فيها نذير » « وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم » « كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق » وهذه ايضا مسألة كبيرة زادتها مسألتا التنويم المغناطيسى واستحضار الارواح جلاء ووضوحا لما اثبتتا من ان الروح الانسانية اذا جردت عن الاشتغال بالماديات امكنها ان تستقى معلوماتها بدون وساطة المشاعر كما فصلنا ذلك في محله من كتبنا

خامسا — الكتب التى يرسلها الله الى خلقه أي وحيه الى انبيائه ، وهى مسالة كبري ايضا لا يرتاب فيها الا من يجهل علم ماوراء المادة العصري كل الجهل ورضى ان يكون واقفا من العلم حيث وقف ملحدو اوروبا قبل قرن من الزمان وزعم ان الكون محصور على مايعلم . . .

(سادساً) مسألة القضاء والقدر وهى مسألة عظمى توزعت عقول الفلاسفة اجمعين من القدم لليوم ، ولها أنصار وزعماء حتى من الذين لا يعتقدون بغير المادة ، لان تشبع الفكر العصري بوجود نواميس للكون ثابتة لا تتغير تجعل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعى نفسه

هذه هى مسائل الاسلام التي نحترمها وامرنا بالتفكر فيها للوصول الى المدركات العالية منها وقد رأيت انها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم ، وانها مما لا يتصور فى العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى في اى دور من ادوار الرقي العقلى لارتباطها بحياة

الانسان مباشرة ووقوفها في مهب فكره ومضطرب ذهنه

اما دور الشك فان صح على العقائد الاخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه . الشك هو التردد فى صحة شيء ودواؤه العلم . وقد رأيت ان المسلم ليس له من العقائد الا ماهو مغروز فى طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده ، وهى تلك المسائل الست ، وبما انه قد يطرأ الشك للانسان فيها لقلة علمه ، فالاسلام لايعاقب الشاك او المستشكل بالحرق بالنار او بالصلب بل بدوائه الحقيقي وهو العلم واستنزال روح الرحمة الالهية من قبله ، وقد وعده الله بحسن النتيجة فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » بل انذر الضارب عن العلم صفحاً بالطبع على قلبه فقال عز وجل « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون »

قلنا ان الاسلام جاء بعد ان بلغ العقل الانساني اشده ولذلك فهو لاينزل الانسان منزلة القاصر بل الراشد الذى له حق التصرف بفكره وارادته ، بخلاف الاديان الاخرى التى ادعى قادتها انهم اوصياء على الانسان وانه لاحق له فى استعمال عقله وفكره فى شؤون حياته الا طبقا لما يوحونه اليه من التعاليم والقواعد ، وقد اساؤوا استعمال هذه الوصاية لحد ان الناس تركوا الدين من اجلها وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلاد دام قرونا متوالية ، وعدى على حياة ملايين كثيرة من الابرياء ، اما الاسلام فلم يجعل لاحد من بنيه حق الوصاية على غيره ، بل اسبغ على الكل نعمة المساواة الحقة وآخى بينهم اخاء ملكوتيا لم يسبق له مثال فى تاريخ العالم ، وجاء الخطاب عن لسان العزة الالهية بهذا القسطاس العادل : « الجنة لمن اطاعني ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاني ولو كان شريفا قرشياً » ولذلك تراه يخاطب ابناءه عموما بلسان واحد لايخص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلا دون قبيل ، ولم يعلق نجاة روح على روح أخرى وفى هذا الحديث الشريف اكبر عبرة لمن يعتبر : « اعملي يا فاطمة فاني لا أغنى عنك من الله شيئا » وهذا غاية ما يتوق اليه انصار حرية النفس ، ومحبو رفع القوة الاستبدادية

انظر الى هذا المثال الباهر من الحرية وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذى طوق به قادة الاديان الاخرى اعناق اتباعهم حيث علقوا نجاة السواد الاعظم منهم بشفاعة رجال

قلائل او رجل واحد . ولا غرو فانهم يتصورون الخالق تعالى على صورة الملوك الارضيين الذين لا يمكن التقرب اليهم الا بالتوسل بحاشيتهم وذوى الزلفى منهم ، اما المسلم الذى ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين ولا يجرى عليه صفاة الملوك الارضيين ويعلم انه ارحم الراحمين ، واكرم الاكرمين ، وانه ليس بينه وبين عبيده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وانه سميع مجيب « وهو اقرب اليه من حبل الوريد » فانه لا يحتاج لمن يقربه اليه زلفى غير صالح اعماله ، وعقائل صفاته : اما التعلق بشفاعة الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقربين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم فى الدين ، وما ورد من ذلك عندنا فمقيد باذن الله ومعلق على أمره بالنسبة لبعض مستحقي المغفرة قال تعالى « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى . » اما اؤلئك الذين ليس لهم فى اعمالهم ما يؤهلهم للحظوة بمغفرة الله فلا يستطيع احد ان يشفع عنهم قال تعالى « فما لهم من شافعين » « فما تنفعهم شفاعة الشافعين »

هذا الاصل وحده هو أهدى قائد لنفوس الآخذين بالدين الى باحات الحرية ، وأقوى باعث لهم الي ساحات المساواة الأخوية ، ومن يعلم ان الحرية اصل كل الاصول المهذبة للأمم الرافعة لها الى منصات العظم ، الباعثة الى نفوسها روح الهم ، تحقق معنا ان هذا الاصل كان من اقوى الاسباب التي نهضت بأسلافنا الاولين الى أعلا عليين ، بينما كان غيرهم فى أسفل سافلين ، مأسورين لرؤساء الدين ، ويتأكد معنا انه كما كان سبب اسلام عشرات الملايين ، من الاقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين ، هرباً من الضغط المهين ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للعواطف ، المالك للاميال في هذه القرون وما بعدها حتى يخلص السلطان للاسلام ويكون الدين كله لله . فان روح هذه العصور المتأخرة قد بعثت الى قلب الانسان حب الحرية والمساواة وسينمو هذا الشعور فى الانسان بتوالى الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، واين يوجد ما يلائم هذا التصور غير الاسلام الذى يخلى بين الانسان وربه ، ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل انني هدانى ربى الى صراط مستقيم ، ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل ان صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وأنا أول المسلمين . قل اغير الله ابغى

رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »

والباحث فى أسباب خلع اوروبا لطوق العقائد يرى من اهمها مسألة الشفاعة والوساطة. قال الفيلسوف (لوسيان اريا) في كتابه (عقائد الغد) : « ان كراهة الناس لرؤساء الدين هي التي ولدت فى أكثرهم كما يظهر لى المجافاة للدين . فأن الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين لا من الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضيع المناقشة فى مؤتمر الأديان ولكنها فيما أري من المسائل الأوليه التي يجب حلها في مستقبل قريب» انتهى. وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزايا الكثيرة التي للاسلام على سائر الاديان وأقرب شاهد على ذلك ما ورد في (المجلة) الفرنساوية في جزء ١٥ مايو وهو : « ليس في الاسلام البتة لاطقوس دينيه ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هيا كل ولا شيء مما يعتبر شرطاً اصلياً فى اداء العبادة . بل فيه ان الانسان شفيع نفسه امام خالقه فتراه يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه، وبعبارة الاصطلاحات الدينية الاسلام يعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة . »

قلنا الاسلام ينزل الانسان منزل الراشد لا القاصر ولم يكلفه من العقائد الا ما لو خلي ونفسه لاهتم بها لانها نتيجة عواطفه المغروزة في طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغط على فكره او حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين ، حتى فرضه على عموم اتباعه من ذكر أو أنثى ، وسن لهم كل ما من شأنه زيادة العلم ونمو مادته . كالسياحة واستشراف أحوال الامم وتعرف نواميس الخليقة والعمران . وكالنظر في الكون وتنور اسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة « أو لم يسيروا فى الارض فينظروا . الخ الآية » « قل سيروا فى الارض فانظروا الخ الآية » وقال عن النظر فى الكون « وفى الارض آيات للموقنين وفى انفسكم ، افلا تبصرون » فانظر كيف ان السياحة واستطلاع احوال الامم والكون التي شككت اليونانيين فى عقائدهم قبل الميلاد باربعمائة سنة ، وحلت معاقد عقائد الاوربيين في ابان اختلاطهم بالمسلمين واشرافهم عن مدنيتهم كما اثبتنا لك ذلك فى كتاب الاسلام ، قد ندب اليها الاسلام بصفتها مقوية

للعقيدة ، مثيرة لروح الدين ، مثبتة لاراكين اليقين حتى قال الله عن السياحة « افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وقال مبكتاً الذين لا ينظرون فى مساتير الطبيعة « وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فاى فرق هائل بين دينين يقوى احدهما بما يهدم الآخر ، ويحيى بما يلاشى ضده ؟

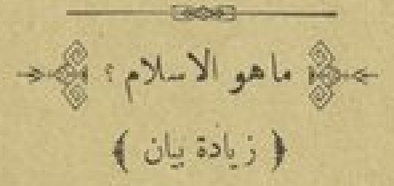
السياحة تزيد في سعة المدارك وتشرف بالانسان على اسرار العالم وعلى نواميس العمران والخراب في الامم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية فى الشعوب وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة . والنظر في الكون نتيجته توسيع نطاق سلطة العقل الانساني على الادراك ، والسريان في ضمائر الكون ، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التي هما جديران بها من هذا العالم البديع ، وتخويل القوة البشرية خاصية استخدام قوى الكائنات فى تحسين الحياة الانسانية وتهذيبها بما يفتح للعقل من مغلق المساتير ومؤصد الاسرار . وهذا كله كما لا يخفى يعلو بالعقل والفكر ويسمو بهما درجات متوالية على اقدار محسوسة فيحصل ما يسمونه الترقى فى الهيئة الاجتماعية ، وهذا الترقى كما يحصل فى الصنائع والفنون كذلك يحصل فى المدركات والعقائد ، والدليل على ذلك ان كل امة ترتقى تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد ارقى منها . وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على اتباعهم ، وقرروا ان كل علم لا يوافق العقائد فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الاسلام هذه السنة التى جرى عليها حفظة العقائد ويعلق كمال الايمان وتمام اليقين على ما احدث الشكوك فى اذهان أهل الاديان الاخرى وانتزع العقائد من افئدتهم ؟

ذلك لان الاسلام كما قلنا لم يكلف الانسان من العقائد الا بما لو ترك وشأنه لتعلق به من نفسه لانه نتيجة قوى عواطفه واحساساته ، وهى تلك العقائد الست التى ذكرناها آنفاً ، ثم انه بعد ذلك لا يكلف الانسان الا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه خلعاً كلياً ليستوى بشراً سوياً خالصاً لله ، لا تمثالاً محشواً باقذار آبائه واجداده ، وضلالات اسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل في قواه ومواهبه ، او مسلوب التصرف في نفسه . فما

الذى يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم ؟ وهل للروح المسلمة غذاء غير العلم ، ونور غير الحكمة ، « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء »

اذا تقرر هذا فهل يسرى قانون الادوار التى تنتاب العقائد على الاسلام . وهل يخشى على المسلم من تشبع فكره باحوال الامم وعظمة الكون ، وهل يليق بعد هذا ان يقال لمسلم انك لا ترتقى الا اذا خلعت طوق الدين من عنقك كما فعله غيرك من الامم الراقية ؟ وهل يقال له انه من الحياة الانسانية فى دور الطفولية او انه يود ان يبقى فى ذلك الدور ويسابق الامم الاخرى التي تجاوزته ؟

ان الذي حرم المسلمين من التمتع بمزايا دينهم هو إضرابهم عن السياحات وعن تعرف الاحوال والنظر فى الكون ومتى جاء ذلك اليوم الذي يأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية ان تنفذ الى اوروبا من خلال هذه التعصبات القديمة المتكاثفة لما ترتقي روحها السائدة في هذا الجيل عما هى عليه درجات اخرى ، فسترى في ذلك اليوم كيف يكون رجوع الحق الى نصابه بل كيف يكون الدين كله لله « ولتعلمن نبأه بعد حين »



ماهو الاسلام ؟

﴿ زيادة بيان ﴾

لو ادرك الناس كافة معنى الاسلام وفقهوا كنه ما يرمي اليه لما بقى على وجه الارض من يدين بدين آخر ، لانه مطلوب كل روح ومرمى كل قابلية ، وأُنشودة كل استعداد ، ومطمأن كل احساس ، ومنتهى كل عقل من معنى الدين والايمان ، وهذا سر قوله تعالى (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ولولا ان الاسلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد ، ويلائم كل عاطفة واحساس لما كلف الخالق به عموم خلقه من انس وجن وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة (لايكلف الله نفساً الا وسعها)

هذا اجمال يستدعي شيئاً من البسط وانا موجزون الآن بحثاً في هذا الموضوع نفصل به للقارئ معني تكليف الخلق كافة بهذا الدين ونفسر له ما يقوله علماء المسلمين من ان هذا

الدين سيرث عموم الاديان وسيسود على جميع نوع الانسان ، وانه منطبق على كل قابلية وصالح لكل جيل من البرية . وهو بحث جليل الفائدة يجلي لنا الحقيقة الاسلامية في اجلى مظاهرها واكمل معانيها

(الناس أمام الاديان)

الناس ثلاثة اقسام : فهم إما جهلة لايدرون من معنى الوجود والحياة والعالم الا ما علمه بعضهم من افواه بعض علماً ناقصاً مشوشاً ، وإما علماء وقفوا على غايات العلم على قدر ما فتح الله على الناس من حقائق طبيعية واسرار كونية ونواميس وجودية . وإما اوساط لم يحطوا الى حضيض الجهال ولم يصعدوا الى منصات العلماء فهم وسط بين ذلك . هذه اقسام ثلاثة كلية بينها اقسام ثانوية قد لا تعد ولا تدخل ضمن حد . فان الجهال اصناف شتى وطبقات عدة ، وكذلك العلماء والاوساط ؛ الا ان صعوبة هذا الاستقراء وعدم فائدته لنا في موضوعنا هذا يقف بنا عند هذه الاقسام الكلية ؛ فانا انما نريد ان نعطي قارئنا صورة جملية عامة لها صور تفصيلية لا تستقصى تتغير بتغير الاحوال والظروف ، ولا يمكن ادخالها الى قاعدة . فلندرس الآن كل من هذه الاقسام من حيثية علاقته بالدين ليرى قارئنا تفصيل ما اجملناه له في مقدمة هذه المقالة ببيان جلي وشرح كاف فنقول :

﴿ حظ الجاهل من الدين ﴾

قلنا الجهال أقسام لا يمكن حصرها بالضبط ولا فائدة لنا هنا من التقيد بها والسعي في حصرها فانه يكفينا ان نعرف مقدار الجاهل في العرف فقط

لا نريد بالجاهل من لا يقرأ ولا يكتب فقط فقد يكون الرجل قارئاً كاتباً وهو من الجهل بحيث لا يدري انه جاهل

اذا كان يمكننا ان نشبه حياة العالم بحالة الانسان في اليقظة في وضوح مجال الوجود امامه ، ونصوع اشيائه في نظره ، وادراكه اطراد علله في انتاج معلولاتها ، وارتباط أسبابه بمسبباتها ، وانتظام حلقات الكائنات واتساقها ، يمكننا ان نشبه حياة الجاهل بحالة الانسان في الحلم فهو يرى ويسمع ويبصر ويشم ويحس بكل ماهو من خصائص الحس ولكن احساساً ناقصاً غير مرتبط ولا متسق . يرى العلل ولا يجد من نفسه القوة على رؤية معلولاتها ويرى المعلولات

ولا يرى عللها فيخلط بينها خلطا وربما علل وجود الشيء بما هو سبب عدمه . يرى الحوادث تترى وتمر فيحسبها حوادث يقذفها الوجود على غير قاعدة ، وتلقفها الشؤون بغير ضابط ، لا حظ له من تتاليها الا الاشراف على آثارها والفرح والحزن بما يقع على حسه منها

الجاهل قليل العجب بالبدائع ، ضعيف الشعور بالجمال على اخص معانيه ، لانه لا يعرف النظام ولا يدرك معنى الائتلاف والاتساق ، دنيء الحظ من اللذة من حيث هي لانه محروم من اللذات المعنوية لعدم قابليته للشعور بها ، ولا نصيب له من اللذة الا ما يشعر به جسده وهو مما يشاركه فيه العالم ويزيد عليه شعوره بمكان تلك اللذة من عالمها الخاص بها

كل منا علم الجهل علما ذاتياً وذاقه ذوقاً وجدانياً حينما كان طفلا من بعد السنة السابعة الى السنة الثانية عشرة تقريبا ، وقد يزيد هذا التقدير عند بعض الناس وقد ينقص على حسب الاحوال وهو امر لا يغير جوهر الموضوع ، فكلنا ذاق الجهل وعده ويستطيع ان يعطي نفسه منه صورة على قدر طاقته في تصوير المعاني ومكانه من حسن الذاكرة

هذا الجاهل لا حظ له من الدين الا على قدر مايخفف عنه من ألم في مصيبة ، ويجفف له من دمعة في نازلة ، من وعد بأجر ونعيم ، وإيعاد على معاقبة عدو لئيم . اما فيما يسمو على ذلك فشعور الجاهل به ضعيف ، وطلبه له اضعف . لذلك ترى شيعة الباطل من الاديان جهالا كلهم وقد يكون معهم افراد من الاوساط المتأثرين بآثار العادة والالف ، لانهم لا ينتظرون من الدين الا التعزية في وقت الشدة ، والعدة بالتعويض في دار بعد هذه الدار . وهذه الخاصية موجودة في سائر الاديان على خلاف بينها في وجوه تلك التعزية ووسائل ذلك التعويض وموجباته . لهذا لا يفكر الجاهل في ان يثور على دينه بشك ، او يقاومه بريبة ، وان كان يتألم من تناقض يجده في بعض قواعده ، واختلاف يصادفه في أمهات مسائله ، الا انه ألم لا يلبث مع سلطان العادة وبطش الوراثة وسطوة التقليد الاعمى ، فتراه لا يكاد يضطرب بوجدانه هاجس من مقدمات الشك حتى تغشاه غاشيات الوراثة من كل فج ، فيعتري ضميره نوعاً من الاغماء فلا يفيق الا وهو في واد آخر من أمور حياته وشؤون جهاده . مع كل هذا فالجاهل المسلم احسن حالا واوسع صدراً وأقل هواجس واروح روحاً من أي جاهل من جهلة الاديان الاخرى ، لانه لم يكلف باعتقاد مالا يعقل ولا بتصديق ما

لا يدرك ولا يعمل ما يشق عليه ولا يقتل عاطفة من عواطفه . فهو يحس من نفسه الحرية ويأنس من روحه الغبطة والسرور دائما ، فتراه في صلاته وصومه ونسكه وتسبيحه حتى في سلامه ودعائه فرحاً مسروراً مطمئنا مرتاحاً ، يكرر الحمد مراراً في يومه على ان خلق مسلما ولا يرى فوق ذلك نعمة ، ولا يجيش في صدره ان يرتد عن دينه لاي سبب يمكن تصوره . بينما نرى جهال الامم الاخرى يسلمون كثيراً ولو عنيت صحف الاخبار في بلادنا وفي غيرها باستقصاء عدد الذين يسلمون يوميا لبلغ في السنة مئات الالوف . وقد سمع عن اهل الملل الاخرى من يهدد اهله باسلامه اذا لم يسعفوه بمطلوبه ولم يسمع عن اجهل المسلمين مثل هذا التهديد مطلقا ولو بلغ ألمه وكدره اقصى مبلغه ، وفي هذا دليل محسوس على الطمأنينة السائدة على نفسه ، والهدو المستفيض على روحه

(الاوساط والدين)

قلنا ان بين الجهال من الامم والعلماء طائفة وسطى لم تحط الى حضيض الجهل ولم تصعد الى قمة العلم فهي في عالم وسط في الحياة ويمكن تشبيه حالها في الوجود بالنسبة لشعورها به وبنظام كائناته وارتباطها بحالة الانسان بين النوم واليقظة ، يشعر شعور الصاحي ويدرك مداركه وليس كالصاحي في ضبط علاقات ما يقع على حسه من الحوادث ، وادراك النسب الموجودة بينها ، وهو لايعني بذلك ولو عني به وسعى وراء تحصيله خانته وسائله فيحصل منها ما يشبه الحقيقة وليس بها . ولو كلفت نفسك باستشراف افكار هذه الطائفة وهي الشق الاعظم من متنوري الامم لرأيت لكل من افرادها فلسفة خاصة تشمل كل المسائل الانسانية . فله فلسفة في الدين والعلم والمدنية والعمران والاخلاق على قدر وسائله تعطيك شكلا فلسفيا كاملا وان كان ناقصا من جهة الاستقراء والاستدلال وخالية من روح التحليل والتشريح ، ولكنها على اى حال فلسفة يقنع بها اهل طبقتها ويقف معها ذووها من اهل درجتها

قلنا ان هذه الطائفة لها فلسفة على الدين خاصة بها فتتطلب ديناً ينطبق على مقررات العقل ولا ينافي بدائه الحس

ديناً يحببها في الحياة ولا يزهدها فيها

ديناً ينشطها للعمل ويحرضها على استصلاح المعيشة

ديناً يحثها لطلب العلم ويدعوها لاحترامه واستثماره

ديناً يبيح لها مجال الفكر ويفسح لها ميدان النظر

ديناً يسمح لها بالتمتع باللذائذ البدنية المعتدلة ولا يحرم عليها الا الافراط فيها

ديناً يفيض على نفوسها روح الحرية ويبث فى افئدتها حرارة الشمم والحمية

ديناً يفضي بالروح الى خالقها ولا يقيم الوسطاء بينهما

ديناً يرحمها فى ضعفها ولا يطلب منها فوق طاقتها ويتنزل معها الى حيث هى ويعلو بها ولا يعلو عنها

ديناً يراعى بها ادوار الطبيعة ويلاحظ لها اطوار الحياة فيعطى لكل دور ما يناسبه، ويقابل كل حال بما يلائمه

هذا هو الدين الذى يتطلبه الاوساط من الامم ولا نجد فيما نراه من صور الاديان الموجودة للآن ديناً فيه هذه الخاصية وزيادة غير الدين الاسلامي . لذلك ترى الاوساط من هذه الامة اغير الناس على دينهم واحماهم قلباً على كرامة ملتهم، حتى انه ليوجد بين اوساط هذه الامة نهضة دينية تشبه من كثير من الوجوه تلك النهضات التاريخية، وقد سرى تيار هذه الحماسة الدينية فى الافئدة كافة وصار من مقررات الرأى العام اليوم ان تأخر المسلمين سببه ترك الدين وهجر تعاليمه، وهو اجماع عجيب فى عصر هجر الدين فيه كل الامم الراقية والاسلام وان يكن حقيقا بهذا الاجماع وزيادة، الا اننا نعجب من ان فتنة المدنية التى اجتاحت كل عاطفة فينا كيف ابقت على هذه العاطفة الدينية مع معارضة المدنية لها جملة وتفصيلا

هذا عجيب فى ذاته ولا علة له الا ان الاسلام انشودة روحية غالية جدا لا تسطو عليها فتنة مهما عمت وطمت، بل ربما كانت الفتنة تبعث النفوس اليها وتأخذ باكظام العواطف لهفا عليها

كيف لا يكون التفاف اوساطنا حول الاسلام عجيبا وكل شىء فى الشرق الاسلامى اليوم منفر من الدين ومبعد من الايمان واليقين؟ امامهم مدنيـة قامت بلا دين بل بنت عظمتها من انقاض مجد اشياعه وهى للآن تعمل على اسقاطهم واراحة العالم منهـم، وبين يديهم جرائد ومجلات تدس لهم السم فى الدسم، وتصور لهم العلم الاوروبى فى صورة وحش

كاسر سطا على العقائد فقوضها ، وعلى التقاليد الانسانية فهدمها وعلى كل قديم فاوهى اساسه وتركه خاويا على عروشه ، وزيادة عن ذلك فبين ايديهم نفر من شذاذ الآفاق اتوا بلادهم للارتزاق وهم من عدم احترام دينهم بالمكان الاسفل وكفى بهم مثالا سيئاً لامة اصابتها مموهات سحر هذه المدنية اصابة افقدتها التمييز والرشد . اليس اصرار اوساط المسلمين الآن رغماً عن كل هذه الحوائل على الدعوة الى الدين والحماسة به يعد امراً عجيباً مدهشا ؟ نعم والذي هو اعجب من هذا وادعى للبحث هو ذلك السر الكبير الذى اودعه هذا الدين القويم ، وما منحه من لدن خالق الكون والانسان من تلك القوة الطائلة التى تسمح له ان يقارع بها كل هذه الحوائل الصورية والسواحر المعنوية والفتن الاجتماعية والفردية ويتغلب عليها ، ونكون فى القرن الرابع عشر الهجرى او القرن العشرين الميلادى على الصفة التى نحن عليها ننتظر روحا اسلامية تحل بنا ، وحياة محمدية تفيض علينا ، فترجعنا الى مثل ما كان عليه اباؤنا صلاحا وكمالا .

لا يمكن ان يكون هذا كله الا لأن الاسلام حاصل على الخصائص التى ذكرناها وزيادة ولو لم يكن كذلك لما امكن ان يكون هذا اثره على العقول والعواطف فى عصر اصبح فخار اهله فضلا شعارهم الطعن على الاديان والافرار بتخلصهم من سلطة سائرها

هذه الطائفة الوسطى تعترى افرادها شكوك في بعض مقررات الدين ، ولكنها شكوك مشوبة بعاطفة من الغيرة والحب ، فترى الرجل منهم يشك ويتمنى من صميم فؤاده ان يرزق بمن يزيل له شكه ، وربما تألم من شكه اكثر مما يتألم من فقد ابنه مخافة من ان يفصله ذلك الشك عن انشودة روحه ، ومطمأن عواطفه وهو الاسلام ، وقد رأينا باعيننا شاكين يتألمون من وجود الشاكين ، فهم بهذا الفعل المتناقض كانهم يعترفون فى سويداء افئدتهم بفساد شكهم وحقيقة الدين فى ذاته ، وان كان عقلهم يتطلب برهاناً من عالم العلم يزدادون به قوة في عالم الاعتقاد ، وهذه سلطة على النفوس قد لا تصادف فى متبعي دين غير هذا الدين

يقول بعض المتفلسفين هذا تأثير قانون الوراثة ، واثر من آثار قوة العادة ، ويغيب عنهم ان لقانون الوراثة حدا محدودا ، ولسلطة الاوهام العادية نفوذاً معلوما ، فان الحقائق الساطعة ، بل الحوادث المضلة والفتن المفسدة المستمرة تقف امام قانون الوراثة حينا او احيانا ثم تحمل

عليه حملة منكرة فتبدد آثاره تبديدا ، وتصل فى اندفاعها الى ابعد ماتصل اليه لو كان الطريق امامها خاليا ، لذلك ترى فجور الفاجر بعد الصلاح اشد وطأة من فجور من نشأ على الفجور من اول مره

على ان هذا القانون الشديد البطش لماذا يصدق على المسلمين دون غيرهم ؟ ها هى شعوب اوروبا لم تقو فيها الوراثة الدينية على صد كتائب الشبه والشكوك فجنحت الى الالحاد عامتها وخاصتها وجاهر الكل بنبذه للدين على حد سواء . بل هذه أمم الشرق الاقصى من الهند الى الصين الى سائر الامم الاخرى سواء كانت اسيوية او افريقية مما يستوي فى الجهل مسلموها وغيرهم ترى المسلمين ثابتين على دينهم ، فرحين مستبشرين بعقائدهم ، وترى غيرهم من الوثنيين المجاورين لهم يدخلون الى ملتهم افواجا افواجا بطريقة مستمرة تشبه الحوادث الطبيعية ذات النواميس الثابتة . فلماذا تشتد آثار الوراثة على المسلمين وتضعف عن الآخرين ؟ أليس لكون سلطان الاسلام على العقول والارواح قويا جداً يصعب ان لم نقل يستحيل زحزحته عن مكانه ؟

هذا الاثر بعينه ظاهر فى الطبقة الوسطى من المسلمين اذا قورنوا بأمثالهم من الامم الاخرى وهو دليل محسوس على ما نقول من ان الاسلام مطاب كل روح وانشودة كل استعداد وقابلية

كما ان هذه الطبقة الوسطى لا تتنزه عن شك في الدين كذلك هي عرضة لنفثات المشككين ولكن لا نتيجة لهذه النفثات الا تثبيتهم فى دينهم وان كان ذلك خلاف المتبادر للذهن

ذلك لان المشككين انما يتصيدون الشبه على القرآن وعلى الداعي اليه تصيدا ، ويتعسفون فى صوغها تعسفاً بيناً ، وفوق هذا كله فانهم يتسلحون لها بسلاح من الانتقاد ماض جداً فاذا تشبع احد المسلمين بشبهاتهم وتسلح بتلك الاسلحة الانتقادية في نقد ما يقدمونه اليه من تعاليم دياناتهم التي يدعون اليها كر راجعا الى الاسلام رغم انفه لما يجده امامه من التناقضات والتعاكسات التى لا تدخل تحت حصر فيرجع للاسلام لا رجوع المفضل له علي غيره ، بل رجوع الموقن به المتحمس له تاليا على نفسه قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)

ثم ان هذا التشكيك على دين الاسلام من أولئك المشككين يفيد الاسلام من جهة النشر فائدة كبيرة جداً . ذلك انا قلنا انهم فى تشكيكهم يتصيدون الشبه تصيداً ويستعملون سلاحا انتقاديا حاداً جداً فيطلع اهل ملتهم بحكم الحال على تلك المقالات الانتقادية الحادة سواء كانت في الحوادث التاريخية او فى الامور الاعتقادية او في المعاملات فيكتسب الشاب منهم قوة انتقادية خاصة به تشتد وتضعف على قدر مداركه ، فاذا استعرض معتقداته أمام نظره بذلك العقل الانتقادى الصارم واشرف عليها وهى على ما يعلم الناس من التناقض والمجافاة لبدائه العقل في أكثر جهاتها رجع والشك ألصق به من ظله ، فلا يجد له محيصا الا السكوت على مضض ، والى متى ؟

بهذه الصفة نرى ان هؤلاء المشككين يخدمون الدين الاسلامى اجل خدمة وان كانوا لا يتوهمون ذلك ولا يضطرب في خيالهم ، ولو كان فى بلادنا احصاآت لرأينا ان عدد الداخلين فى الدين الاسلامي فى هذه الايام الاخيرة التي انتشر فيها أولئك المشككون يزيد يوماً بعد يوم . وهو وان كان لانتشار العلم اثر كبير في احداثه لان العلم يبعث الانسان نحو الحقيقة دائما، الا ان لاولئك المشككين اثراً يذكر ايضا ، فانهم بتشكيكهم يوقظون العواطف النائمة ويبعثون الشبه الكامنة ، ويجعلون المسئلة الدينية فى مجال البحث والمجادلة ، وكفى بهذا الجهاد محرضا للشاكين منهم على ترك دينهم والمجاهرة بزعزعة يقينهم

قلنا ان هؤلاء المشككين لا يكسبون من وراء جهادهم شيئاً غير تثبيت المسلم فى دينه ونصبه مناظراً لدوداً لهم ينقض بنيانهم وينفض حبائلهم ، لان المسلم ان شك في دينه لجأ الى النظر والاستدلال ، واعتصم بالعلم والبرهان ، وكل هذا من أصول ديانته وقواعدها . فهل يسمح له اهل دين آخر بان ينظر ويستدل او يستشهد بالعلم والبرهان على اصل من أصول العقائد ؟

اذا تقرر هذا علمنا ان الطبقة الوسطى من المسلمين يستحيل عليها ان تصبأ عن دينها الى دين آخر وانها اثبت بدينها من نظيراتها لدى الامم الاخري ، وهو ما قدمناه من ان الاسلام انشودة كل فطرة ومطمأن كل عاطفة ومطلوب كل استعداد وقابلية

(العلماء والدين)

أريد بالعالم هنا العالم العصرى الذى تركزت في مداركه صورة مصغرة من معلومات هذا الجيل على اختلاف أصولها وفروعها ، وتجلت له بكل شدتها وهولها تلك المعارك القلمية الصارمة التي حدثت بين حفظة القديم وانصار الجديد فى القرن الماضى والذى سبقه

أريد من صنف العلماء المومإ اليهم من سلمت فطرهم من الطمس ، وطهرت جواهرهم من خبث العماية الجبليـة . فانا فى بعض كتبنا قسمنا الفطر الى ثلاث : فطرة مؤمنة وفطرة كافرة وفطرة جامدة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . فأريد هنا من العالم العالم السليم الفطرة المتلألئ الوجدان ، فهو الذى اقصده ، وهو المستحق لهذا اللقب الفخيم باخص معانيه ، بل هو الذى يصدق عليه انه صورة حية من حال القرن الذى يعيش فيـه . اما غيره فلا يريك تلك الصورة الا ناقصة مشوهة

الدين روح كلية مستولية على سائر الارواح الجزئية استيلاء البحر على احيائه السابحة فيه ، لكل روح منه قسط يناسب مداركها ، ونصيب يوافق شعورها ، ويلائم استعدادها ، ومن انكر الدين في ذاته فقد انكر اكبر أرواح الوجود تأثيراً واقواها على العالم تسلطاً ، وكان كالعلقـة الصغيرة تسبح فى القطرة وتنكر البحر الذى يشملها ، او كالبعوضة تمرح فى جو الحجرة وتجحد الجو الذى يحملها

قلنا الدين روح شاملة تأخذ منها كل روح على قدر حالها . وقد درسنا حظ الجاهل من الدين وحظ الطبقة الوسطى منه في الفصلين المتقدمين ، وهنا ندرس حظ العالم منه

أخص صفة من صفات العالم العصرى « الاقرار بالجهل » حتى حدد الاستاذ (ايزوليه) المدرس (بمدرسة فرنسا) العلم بقوله : « ان علومنا هى الجهل المرتب » وقد حلل الفيلسوف الانجليزى (هربرت سبنسر) العلم الانساني في كتابه (الاصول الاولية) فاحاله الى درجة العجز المطلق أمام ادراك كنه اصغر ذرة من ذرات الوجود . وقرر انه لا يكسبنا فى الالمام باشياء الوجود الا ادراك علاقاتها ببعضها وصفاتها الخارجة عن كيانها وكنهها

اذا تقرر ان الاقرار بالجهل هي صفة العالم العصرى وان العلم الحالى قد بث هذه الروح فى نفوس اهله ، قلنا ان كل دين لا يكون من اوليات أصوله ومبنى قواعده مايلائم هذه الروح

التى اكتسبها العالم العصرى من العلم الحاضر فلا يصلح ان يكون له دينا . بل ان كل دين لا يقول للانسان « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ولا يعترف له بقانون الترقى بالنص قائلا له « وقل رب زدني علما » ولا يريه ان المعلومات غير قابلة للانتهاء وان الانسان بازائها شيء صغير كقوله تعالى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » قلنا كل دين لا يواتى الانسان من جهة هذا الميل لا يصلح ان يكون دينا للعالم العصري بوجه من الوجوه

اكبر مسئلة متسلطة على الفؤاد الانساني هي مسئلة العقيدة بوجود الخالق . مسئلة تتولى الانسان من أول شعوره بالعالم حتى كأنها قطعة من فؤاده ، او كأن فؤاده قطعة منها . فلا يزال يترقى فى الشعور بها حتى ينتهي لأن يعجب من نفسه في عدم استقرارها من هذه المسئلة عند حد ، وكيف يقف منها عند حد وهى مسئلة الخالق جل جلاله الذى ليس كمثله شيء ؟

قد كشف العلم العصرى لذويه من احوال الامم البائدة او العصرية الجاهلة فى درجات مداركها من هذه العقيدة ما يريك بالحس كيف يعبد الانسان خياله ، وكيف يجسم وهمه . صورت كل أمة الخالق تقدست صفاته على قدر عقلها وعلى حسب قوة خيالها حتى لو أردنا إيراد مذاهب كافة الناس فى هذه العقيدة للزمنا ان نفرد لها مجلداً كبيراً ثم لا نستطيع حصرها بالضبط . أفلا يعذر العالم العصرى أمام هذه الافكار بل الاوهام المختلفة ان لفظها كلها الى عالم الخرافات والاضاليل ، وحكم عليها حكمه الصارم الذى يرهبه اتباع الاديان الباطلة فى كافة البلدان ؟ اذا كان العلم العصرى قد كشف لذويه بالدلائل العيانية ان الانسان قاصر عن ادراك ذات المادة وانه جاهل جهلا مطلقا حتى فيما يدعى معرفته ، فكيف يشرئب الى زعم تصور الخالق بصورة ذهنية ، ويتعالى الى الحكم على ذاته وصفاته بحكم ليس له عليه دليل مشاهد ؟ لاجرم ان كل دين لايقرر فى اوليات أصوله عجز الانسان عن ادراك الخالق ووجوب وقوفه عند حده كقوله تعالى « ليس كمثله شيء » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » لا يصلح لان يكون دينا للعالم العصرى مطلقا . بل لا يريح بال العالم العصرى ويقطع هواجسه الا دين ينص له ما نصه له العلم من ان كل تلك العقائد اوهام

وظنون وان الحق وراء ذلك كقوله تعالى « إن يتبعون الا الظن وإن هم الا يخرصون » « إن هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » « وان الظن لا يغني من الحق شيئاً »

وكما ان العالم العصرى يرى من العلم ان يقر بعجزه عن ادراك خالق الكون كذلك يرى من العلم ان يقر بقصوره عن ادراك كنية خالق الكون وان لم يكن ذلك الادراك من المستحيلات عليه . وكيف لا يقر بقصوره وكل يوم يكتشف من قوى الوجود ما لا كان يحلم به ويرى بعينيه ان مجال البحث بعيد الاكناف ومجاهيل الوجود لا تدخل تحت حساب وتبرهن له المكتشفات كل حين بانه كان جاهلا وانه لا يزال كذلك حتى يأذن الله له بشيء من الفتح لا يضطرب في خياله

من هنا يرى العالم العصري ان العلم متبع ناموس الارتقاء وهى حقيقه لا يمترى فيها انسان فلا يحب ان يكون دينه الذى يدين الله به واقفاً عند حد ، او حاكما عليه بحكم بل يرى ان الدين اجل من ان يتبع العلم فى دور من ادواره السابقة او اللاحقة لانها كلها ناقصة باعتراف الحس والمشاهدة . فكل دين من هذا القبيل لا يصلح ان يكون دين العالم العصرى ، فهو لا يرضخ الا لدين يقول له « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » اشارة الى ان ليس من وظيفة الدين الا الحقائق الاولية لا المعلومات الناقصة الجزئية . ويقول له « قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربى في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » اشارة لان ذلك ليس من وظيفة الانبياء حتى يسألوا عنه ، بل هو مما يفتح الله به على بعض المشتغلين به

ترى العلوم التاريخية للعالم العصرى حال اهل الاديان كلها فى اختلاف وشقاق واقفين مع مفاهيم الالفاظ ، متشاكسين فى مضامين الكلمات ، منقسمين فرقاً واحزابا ، يكفرون بعضهم بعضا ، ويمزق بعضهم احشاء بعض . يرون هذا شائعا فى اهل كل دين على حد سواء غير مقصور على قوم دون قوم ، فيرون ان ذلك كله ليس من الدين وانما هو من الاهواء والنزعات فلا يرضى العالم العصري ان يدين لله الا بدين يقول له « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء »

ترى الفلسفة الانتقادية التاريخية للعالم المصرى ان كتباً قد كتبت لدى اهل كل دين على حد سواء، وملئت بالمقالات الطويلة الذيول في الكلام على الخالق وصفاته واحواله وعلى مذاهب المخالفين لهم مما يستوجب الردود المستفيضة ويستدعى المجادلات العنيفة فى مواضيع يستوي الجميع فى جهلها، ولا يفضل بعضهم بعضا فى العجز عن ادراكها، فيرى العالم المصرى أن كل ذلك ليس من الدين في شيء، وان هؤلاء الناس انما يتناقشون فيما وصلوا اليه من العلم، وانتهت مداركهم اليه من الفهم، ولا إثم عليهم فى شىء من الجدل، لولا انه جدل في الدين أقاموه باسمه وروّجوه بسلطانه، فلا يرضى العالم المصرى الا دين يقول لاهله « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »

دين يقف صاحبه على الناموس الطبيعى فى اختلاف المدارك وتباين القابليات لادراك الحقائق كقوله تعالى « وما انت بهاد العمى عن ضلالتهم » « انك لا تحيي الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين » « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير »

يرى العالم المصرى من استقراء حوادث التاريخ ان حوادث اجتماعية كبيرة وانقلابات سياسية وحربية هائلة حصلت على اثر ظهور رجال حفظ التاريخ اسماءهم للآن، ظهروا في أمم مختلفة وازمنة متعاقبة، متحدين في الوجهة، متوافقين في الغاية، يظهر امرهم أولا ضعيفا هيناً ثم يقوى ويشتد، ولا يزال كذلك حتى تصير كل قوة بازائهم ضعفا، وكل مقاومة استسلاما، وهم فى زمان قوتهم كما في زمان ضعفهم كبراء الافئدة لا تستخفهم المموهات الارضية، واللذات الوهمية، أحرار لم تأسرهم فواتن الدنيا ولا سواحر الحياة، مسلمين وجوههم لله لا يخافون بطش جبار ولا سطوة غاشم، داعون الى سبيل الله، لا يفترون ولا يملون، ولا يضعفون ولا يجبنون، جسوم آدمية، واخلاق ملكية، قد وسع الناس حلمهم وعلمهم، واتسع للكل صدرهم ووجههم، فقراء ولكن تستخذي الملوك أمامهم، حلماء ولكن ترتعد العتاة بحضرتهم. هؤلاء العظماء الذين برهنت افعالهم على صدق اقوالهم، وجاءت الحوادث مؤمنة على دعائهم، اتحدوا كلهم على القول بانهم رسل الله الى خلقه، وأمناؤه على

أسرار وحيه ، وان بينهم وبين العالم العلوي صلة مستمرة ، ومدداً لا ينقطع ، وانهم جاؤا للارواح بنورها ، وللعقول بريحانها ، وللافئدة بمطالوبها ، وللصدور بشفائها . رأى العالم العصرى هذه الحوادث الكبير فى التاريخ يتلو بعضها بعضا كأنها سلسلة متجانسة الحلقات فلم يسعه الا الاعتراف لاولئك الرسل الفخام بوظيفتهم ، وكيف لا يعترف لهم بها وقد ادعوها واقاموا الدليل المحسوس على انهم رجالها واصحاب تكاليفها بنجاحهم فيما تصدوا له وهو امر جلل ، وعمل دونه كل عمل

يرى العالم العصري نفسه مرغما على الاعتراف لهؤلاء الرسل بوظيفتهم لانهم قالوا نحن انبياء ، وجاؤا لمن بين ظهرانيهم بألوف من الدلائل المؤيدة لدعواهم ، وقالوا نحن رسل الله ونصبوا الاعلام الواضحة على صدق مدعاهم ، قالوا من آمن بنا نجا ، ومن اعرض عما جئنا به هلك ، فكان ما قالوه رغماً عن تألب اعدائهم عليهم ، وتمالئهم على احباط سعيهم . قال كل منهم انى جئت بشريعة ناسخة لشريعة من كان قبلى او مكملة لها ، وفعل كما قال ، وأيده الله رغما عن كل معارضة ومنابذة

هذه آيات يهديها تاريخ العالم الانسانى للعالم العصرى ويجليها له بالاسلوب النقدى التحليلي تجلية لا تدع للناظر شكا بأن لهذه الطائفة الطاهرة شأناً فى الوجود غير شأن الانسان العادي ، مما لا مشاحة فى وجوب التسليم لهم بما يعزونه لانفسهم من انهم فى عالم وسط بين العالمين الانساني والملكوتي وانهم يشرفون على مافى الحضرة الروحانية بخاصية وهبهم الله إياها بالفطرة فيرون من أمر الملأ الاعلى مالا يرى الناس ، ويأتون لنا من ذلك الطريق بمعلومات يقصر العلم ان يتوهمها توهماً فضلا عن ان يطلع على شيء منها

يرى العالم العصري السليم الفطرة ان لا مناص من التسليم لهؤلاء الرسل كلهم بكل ما عزوه لأنفسهم من المكانات الروحية ، والمقامات الملكوتية لانهم قالوا وبرهنوا ، وادعوا واقاموا الدليل المحسوس

ثم يرى العالم العصرى ان يسلم لهؤلاء الرسل بشأنهم ولكن بدون تعصب لبعضهم ضد بعض ، وما الموجب لهذا التعصب المستغرب ؟ كيف يسوغ لمن ينظر فى تاريخ الانسان هذا النظر المجرد عن الغرض المضل ان يؤمن بجميع الانبياء ويكفر بواحد منهم او باثنين مع

ان مثل الكل واحد ، والناموس الذى ساروا عليه في وظيفتهم واحد لم يتغير ؟

اذا كان هذا التعصب فى ذاته عجيباً ، فأعجب منه الهوى الذى يحمل بعض الناس على التكذيب بنبوة خاتمهم وامامهم محمد صلى الله عليه وسلم مع انه اقرب منهم الينا عهداً وأفعاله وأقواله وأحواله وسيرته محفوظة فى الصدور والسطور تناقلتها الامم عن الامم من عهد مبعثه الى اليوم وهي حاصلة على كل الشروط التى تسمح لاقسى أساليب الفلسفة الانتقادية ان تتناولها بحثاً وتنقيباً وقد بدى أمره صلى الله عليه وسلم عجيباً غريباً كما بدى أمر كل رسول ثم انتهى الى ان افرع وانتشر نوره شرقاً وغرباً وأحدث فى الوجود تغييراً لم يحدثه أى رسول آخر ممن يحفظ التاريخ اسماءهم ، فهل يليق بالعاقل ان يسلم برسالة كافة الرسل الا خاتمهم وهو على ما نصف لك من وضوح السيرة وقرب العهد وفخامة الآثار وجلالة الاعمال ؟ ألا يخجل المكذب برسالته من ان يتهم نواميس الحكمة الوجودية وقوانين الحياة الانسانية بهذه التهمة البطلة ؟ هل عهد الناس ان الحكمة الالهية تؤيد المبطلين ، وتعلو برؤوسهم فوق الرؤس أجمعين ؟ هل عهد الناس ان العدالة الالهية تنصر المدعين للرسالة ، وترفع من شأنهم حتى يسود دينهم على سائر الاديان وتبقى حجة قائمة للآن ؟

الله أكبر ! ان تشكك الانسان في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فبأى رسالة بعدها يصدق وبأى رسول غيره يؤمن ؟ هذا رسول ايدته الحوادث وشهدت له الوقائع ، واقام الوجود له من دلائل الشهود ما لا يسع العقل انكاره ، ولا يسوغ للبصيرة جحوده ، فبأى حيلة يجحده الجاحد ، وبأي جسارة يكذب به المكابر ؟

هذه مسالة حلها العلم العصرى ، ولئن كان فى الشرق والغرب للآن رجال لا يزالون جامدين على موروثات آبائهم ، وواقفين من امر الانسان والانسانية عموماً على ما وجدوا عليه اهل بلادهم ، فقد قضى العلم بان هذا تعصب لا يطول امده ، وقد انقطع مدده ، وان العلم قد وصل بالعالم الى نقطة عرفه بها ان العالم الانسانى عائلة واحدة يجمعها اصل واحد وهى وان كثر افرادها حتى توزعت في اقطار شاسعة واصقاع متنائية الا انها لا تزال يجمعها ناموس واحد

هذه الامم التي تفرقت وتوزعت وانقطع الاتصال فيما بينها قروناً مستطيلة فظنت كل

منها انها قائمة بذاتها فكونت لنفسها ادياناً خاصة سينتهي امرها كلها لان تتصل ببعضها اتصالا اخوياً بضرورة الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية . وقد ظهر امر هذا الاتصال ولاحت بوادره ، فان الآلات البخارية والاجهزة الكهربائية جعلتنا نعرف عن احوال اقصى بلاد الله في الساعة الواحدة ما لا كان يحلم آباؤنا ان يعرفوه في سنة . بل نحن اليوم متصلين غاية الاتصال ببلاد لم تكن معروفة للعالم من قبل خمسمائة سنة

هذا الاتصال بين شعوب الارض سينتهي امره شيئاً فشيئا لان يمحو اختلافات الجنسية والقومية والوطنية التي فرقت العالم الانساني لليوم وكانت سبباً لكل المنابذات التي حصلت بين جميع افراده

هذا الاتصال يستدعي ان تقوم جميع الامم من الدين على عقيدة يرضى بها الناس اجمعون ، ولا تكون سببا لان يتشاكس عليها المتعاملون . هذا لا مناص منه لان حالة التقرب بين الشعوب تولد الشعور به توليداً طبيعيا حتى انه لو لم يكن في العالم دين فيه هذه الخاصية لأسس العالم دينا من هذا القبيل ، فما بالك وهو موجود ، وقد شهد له الوجود ؟

قلنا ان الاحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية عاملة جاهدة في ربط الامم وايصالها ببعضها ، وهل يمكن انكار هذه الحقيقة احد بعد ما يرى بعينيه ان التجارة وهي اخص مظاهر الاحوال الاقتصادية اصبحت اكبر اسباب التعارف بين الامم شرقيها وغربيها متمدنها ومتوحشها ؛ وهل يتجاهل الناظر في الاحوال السياسية العصرية ما احدثته من اختلاط الامم ببعضها ان لم يكن طوعا فكرهاً ، وهل يجهل انسان حق العلم في مساعدة تحقيق هذه الغاية البعيدة وقد اصبح بمعلوماته الحقة في التاريخ والعمران والفلسفة اكبر صقال للاذهان العصرية يزيل عنها تلك الاغشية التعصبية التي ركمها على مدارك البشر أولئك القادة الذين تسلطوا على الشعوب آماداً طويلة فصوروا لهم الحياة بغير صورتها ومثلوا لهم الجمعية البشرية تمثيلا ساقهم اليه الحقد والاثرة والتفريق

ثم جاء العلم فارى الناس عموما معنى قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم » فبات محبو الخير العام ينتظرون ذلك اليوم الذي يكسر فيه العلم تلك السدد الوراثية التي اقامها القادة في الاجيال

الماضية بين الامم واخواتها. في ذلك اليوم المنتظر يدرك الناس اجمعون معنى (الاسلام) ومعنى (خاتم النبيين) ويظهر من امر هذا الدين الالهي ما يشاء الله ان يظهر مما يكاد اللاحقون يساوون فيه السابقين ولله فى خلقه شؤون

قلنا ان الامم كلها مسوقة بعوامل الامور الاقتصادية والسياسية والعلمية الى الوحدة سوقاً قسرياً لا يمكن ايقافه، وقلنا ان هذه الحالة تولد فيها الشعور بوحدة العقيدة توليداً طبيعياً كما تشاهد بوادره الآن، وقلنا ان ذلك الدين العام لو لم يكن موجودا لاوجده الشعور العام بحكم الضرورة، ثم قلنا ان ذلك الدين موجود وهو الدين الاسلامي، فما برهاننا على ذاك

نحن لاجل البرهنة على ان الاسلام جاء لتوحيد الاديان كلها وتخليصها من التعصبات التقليدية والغشاوات الخرافية، لا نتكلف ان نسلك مسلك الجدل، ونعمد الى اساليب الفلسفة، لاننا نرى ان مجرد تذكر وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم كما وصف به نفسه ودعا الناس اليه، يكفينا مؤونة كل جدل ويرينا رأى العين ان ديننا هو ذلك الدين الذى يساق البشر اليه سوقاً طبيعياً وسينتهي أمرهم اليه لا محالة (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد)

جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم داعيا الثقلين الى دين الله الاقوم وناموسه الاعظم وهو توحيد الله وتنزيهه والوقوف بهذه العقيدة الالهية عند الحد الذى حدها الله به فى المعنى الانسانى فكل ظن وكل وهم وكل هاجس يخطر بالبال مما يميل به الانسان لتحديد صفات الله تعالى والحكم عليها بقضايا هذا العقل الناقص فهي مردودة على صاحبها ليست من الدين الحق فى شيء، لانها لو كانت من الحق لاهتدى الناس منها الى النقطة الجامعة ولما كانت سبب الخلاف والنزاع بين العالم. أليس افتراق العالم الى مآت من المذاهب في صور هذه العقيدة يدل على ان الجميع انما يغترفون مقالاتهم من عالم الخيال والظن؛ أليس يكفي مجرد هذا الافتراق على اعتقاد ان الداعى اليه (وهو توق العقل لتصوير الخالق وتكييفه فى الذهن) ليس من الدين العام فى شيء؛ وكيف يكون من الدين العام ولم يفرق بين العالم فى العقائد عامل اكبر منه.

لو وقف الانسان من العقيدة بالخالق فى الحد الذى يشعر به في معناه الانسانى وهو

اعتقاده ان لهذا الكون خالقا عظيما قويا حكيما عليما ، ولم يكلف نفسه البحث فيما وراء ذلك لما رأيت فرقا بين الابيض والاسود من الناس فى شىء ، بل لرأيت عقيدة اعلم العلماء لا تفترق عن عقيدة اجهل الجهلاء من هذه الوجهة مطلقا

جاء النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى هذه العقيدة الفطرية ويطالب العقول بان تتخلص من الغواشي الوهمية التى غشاها بها قادة الاديان وهى الاساس الاول لتوحيد دين النوع الانساني ، لان النفوس متى لفظت تلك العقائد الوهمية التى اخترعها رؤساء المذاهب وزعموا انها وحى من الله اليهم استحال الناس الى تلك العقيدة الاولية الفطرية التي هى واحدة عن جميع افراد النوع الانسانى . ومتى استحالوا الى هذه النقطة استقامت كل عقائدهم الاخرى واعتدلت جميع افراطاتهم وتفريطاتهم من ذاتها ، كأن التوحيد حصن الروح ، وموئل العواطف ، ومطأن العقل متى وصل اليه الانسان تأدت قواه ومواهبه الى جانب الامان الالهي ، والسلام الصمداني

ألم تر ان العرب لم يكن بينهم وهم فى الجاهلية الجهلاء ، والفتن الصماء ، وبين ما آلوا اليه بعد اسلامهم من المكانات العلى ، والمقامات الكريمة ، الا ان يصلوا لدرجة التوحيد والتنزيه على الاسلوب القرآنى والتعليم المحمدى ؟ لا غرابة ان رأينا هذا الانتقال الفجائى الباهر من جاهلية جهلاء الى ملكية علياء ، فقلنا لا بد من ان يكون لعقيدة التوحيد والتنزيه يد قوية فى احداثه ، ولا عجب بعد ذلك ان بذلنا الجهد فى التحسس من هذا السر الكبير ، والاكسير الشافي (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)

نعم ان عقيدة التوحيد والتنزيه تحمل للنفس الانسانية روحاً من الادب لا يقدر على الاتيان بمثلها غيرها مما تخيله البشر ، ذلك لان هذه العقيدة تؤثر على كل قوة من قوى النفس تأثيراً مناسباً لها من الجهة الخاصة بها فتقيمها على صراطها العدل اقامة تحير شيوخ الفلسفة وتعجز اساة الاخلاق ، وان تصغ الى احدثك بطرف من هذا الباب يهديك لشىء من عجائب هذا السر

العقيدة بوجود الخالق أول العقائد التى تولدت بالفطرة في نفس الانسان ، فان شئت فقل انها لازم من لوازم معناه ، وان شئت فقل انها صفة من صفات جوهره ، وان

شئت فقل انها شعور روحاني حملته روحه معها من عالمها . هذه العقيدة هي أعطف شيء عليه في مصائبه واحنى آس عليه في نوازله ، يعتصم بها في مخاوفه ، ويلتجئ اليها في معاطبه ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ومرارات العيش ، ويموت بها مرتاحاً قرير العين لتيقنه ان يداً تنتظره لتحمله الى عالم أرقى من هذا العالم ، وقدرة تحتف به تحفظه من عاديات الفناء وجائحات العدم . تأمل في أمر هذه العقيدة التي تمس أخص جهة من جهات حياة الانسان ، وتدبر بامعان في شعوبها وفنونها السارية من سائر عواطف النفس مسرى الكهرباء في أسلاكها والاشعة على ذرات اثيرها ، ثم دع هذا العالم الباطني واستجل هيكل الانسان الظاهري تر قوى النظر والشم واللمس والذوق والحس مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة ايضاً ، فما مناظر هذا الجمال التكويني وبدائع هذا العالم الحسي مما يؤثر على كل حاسة من جهة قابليتها الا مثيرات لهذه العقيدة موقظات لزيادة الشعور بها . تأمل هذا بامعان ثم تيقن ان كل تغير يحصل في العقيدة بالله مهما كان صغيراً يقع من هذه المشاعر الباطنة والظاهرة موقعاً يناسبه ، وينزل منها منزلة تلائمه فان كان هذا التغير في الجهة التي تقويها قويت كل قوي نفسه على حسب جهة تلك القوة ، وان كان في الجهة تضعفها ضعفت كل تلك القوى ضعفاً مناسباً . ونحن لا نعني هنا بالقوة والضعف ما يعطيهما اللفظان على اطلاقهما ، وانما هما قوة وضعف معنويان يدريهما كل من يشعر بقوى ذاته

علمنا مما مر ان العقيدة بالخالق جل شأنه مستولية على سائر عواطف النفس وقواها استيلاء تاماً بحيث انها تعتبر المصرفة المدبرة لتلك العواطف والقوى على ما يناسبها ويلائمها ، وعلمنا تبعاً لهذا ان كل تغير وتحور يحصل في تلك العقيدة يؤثر على تلك العواطف والقوى تأثيراً خاصاً على أشكال لا تحصى ولا تعد

ونحن هنا قبل ان ندرس الادب الآلهي الذي تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه لنفس الانسان وجميع قواها يحسن بنا ان نورد هنا صورة موجزة من الآثار التي تحدثها عقيدة وجود الخالق على عواطف الانسان لنعرف بالحس كنه تسلطها عليها جميعها ترشيحاً لادراك كنه ذلك الادب الآلهي الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه عليها فنقول :

القلب يشعر بوجود خالق لهذا الكون البديع اقامه على هذا السمت المدهش ، فيهتز

في العقل عاطفة تعطفه لان يتعقله ويدركه ، فيستعين بالفكر في اتيانه تلك الانشودة فيجول صاحبنا الفكر في فيافي التصورات فيعتضد بالخيال في شطحاته فيلبيه الخيال بنشاط بعد ان يعد كافة جنوده المعنوية ، فتثور في داخلية الانسان ثورة تتيقظ لها سائر عواطف النفس وقواها لان الموضوع ماس بها من أخص جهاتها ، فتهب الحواس الخارجية ايضاً من سباتها ، فتنظر العين الى ابعد مدى تصل اليه فاذا كلت وحسرت تركت ما بعد قواها لجياد التصور والفكر فاذا عجز ادعوا الخيال لينفذ الى حيث لم يصلا اليه ، وهكذا حتى يصل الانسان لتصور خالقه بأكمل صورة يشعرها ويهبه من الصفات اكمل ما يدرك انه كمال . فاذا ارتقى عقله درجة ادرك انه وصف آلهه وصوره بما لا يحسن فيصلح من خطأه ، ثم يرتقي عن ذلك ايضاً فيرجع للتغيير والتحوير . وهذا ما تريناه فلسفة التاريخ في جميع اطوار النوع الانساني . وليس هذا موضوع بحثنا فانا انما نريد ان نصور لقارئنا صورة موجزة من صور انفعال قوى النفس وعواطفها لتأثيرات العقيدة بوجود الخالق توطئة لادراك كنه ذلك الادب الالهى الذى تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه على سائر تلك القوى والعواطف

(الادب الذى تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم)

لا ينكر علينا اليوم احد ان العرب بعد ان كانوا من الجاهلية على حال من الخلل الاجتماعي والخلقى لم يمكنهم من الصعود في مراقي العمران درجة واحدة ، اصبحوا فجأة بواسطة الروح التى بعث الله بها رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أمة دانت لها الامم طوعاً وكرهاً وآلت اليها خلافة الله في الارض قروناً طويلة كانت في خلالها حاملة لواء العدل والعلم والحرية والمساواة والرقي الصورى والمعنوي باخص معانيهما

اذا تقرر هذا فلا مناص من التسليم بان لهذا الرقي الفجائى سراً كبيراً اتاهم من تلك الروح الكاملة العالية التى تنزلت عليهم ، وما تنزلت عليهم تلك الروح الا لما استنزلوها بما أشربوه من عقائد وخصال . من هنا كان البحث في اسرار عقائد الاسلام هو الطريق الصحيح المؤدى الى ادراك تركيب ذلك الاكسير المحمدى الطاهر ، ولما كان التوحيد والتنزيه هما اكبر ما جاء النبي صلى الله عليه وسلم لتقريره للعالم الانسانى ، فلا شك في انهما القانون الجامع لاسرار ذلك الاكسير كله ، او انهما العنصران الفعالان فيه من بين سائر عناصره الاخرى

التي هى بمثابة المساعدات لفعله، العاملات على أثره. وها نحن شارعون فى بحث هذا الموضوع الجلل على الاسلوب التحليلي والله وليّ المؤمنين

التوحيد هو أن توحد الله فى ذاته وصفاته وافعاله. ومعنى ذلك فى اصطلاح المتكلمين كما جاء في كليات ابي البقاء « ان للتوحيد ثلاث مراتب: مرتبة (توحيد الذات) وهو مقام الاستهلاك والفناء فى الله فلا موجود الا الله. ومرتبة (توحيد الصفات) وهو أن يرى كل قدرة متفرقة فى قدرته الشاملة، وكل علم مضمحلا في علمه الكامل، بل يرى كل كمال لمعة من عكوس انوار كماله. ومرتبة (توحيد الافعال) وهو ان يتحقق بعلم اليقين او بعين اليقين او بحق اليقين أن لا مؤثر فى الوجود الا الله. » انتهى

وأما التنزيه فهو أن تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق، وان تتبرأ من كل مايجيش بصدرك من الميل الى تكييفه وتصويره، وان تسد نافذة الخيال فى مجال التفكر فيه، وان تعتقد قلبا وقالباً بانه الحى القيوم اللطيف الخبير « ليس كمثله شيء » « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » « لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار » وان كل سعى تبذله فى تصوره بصورة، وكل جهد تعمله في الوقوف له على ماهية او كيفية او كمية ضائع سدى وذاهب عبثا، وان تجزم جزما لا تردد فيه ان (كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك)

لهاتين العقيدتين اثر على نفس معتقدهما من جهة التأديب النفسانى والتكميل الخلقى لا يدرك خطارته الا من اشرقت عليه لمعة من نوره، وحفت به نفحة من جلاله فهما اكسيران إلهيان، وروحان سماويتان، تنزلان من النفس الانسانية منزلة الشمس من سمائها فتطرد من دياجير الرعونات البشرية، وتزيل من ادران المقتضيات السفلية، ما لاتستقل بوصفه الاقلام، ولا تتطلع لمداه الافهام، كما سترى له شيئا من التفصيل. قلت ان لهاتين العقيدتين اثراً على نفس المعتقد بهما، وأريد بالمعتقد من يدل عليه اللفظ بمعناه الصحيح، لا من ألصق نفسه بالعقيدة وادعاها، فان اصل معنى (اعتقد الشيء) صدقه وعقد عليه قلبه وضميره. وقد تسامح الناس فى هذا المعنى حتى اطلقوه على الذين يتوهمون انهم معتقدون وما هم كذلك في الواقع، وما هم الا قوم ورثوا عن آبائهم تينك العقيدتين بعد ان طال على آبائهم الامد ونسوا حظاً مما ذكروا به، فاخذوهما عنهم لفظا مجرداً، وحشروا انفسهم بذلك في مصاف اهل التوحيد والتنزيه

اسما ، ثم تركوا انفسهم عملا وفعلا لاهوائهم واهواء آبائهم من قبلهم مما ينافي تينك العقيدتين ويجافيهما ، وسموا ذلك ديناً لهم جروا عليه احقابا وقرونا فجمدوا عليه جمود الانسان على صفاته الموروثة ، وعاداته المألوفة ، فان نبهتهم الى ذلك مستشكل قابلوه بحشو من التأويلات وقذفوه بسيل من القياسات والتشبيهات ، حتى يفحموه او يهجروه . وليس هذا ببدع في اصحاب العقائد بل هو مقتلهم الوحيد ، وجهة ضعفهم التي يتسرب منها اليهم التشتيت والتبديد « وما ربك بظلام للعبيد »

نريد بالمعتقد بهاتين العقيدتين من عقد لهما قلبه ، ووقف عليهما عقله ولبه ، فسرت انوارهما في اعماق سرائره ، ونفذت سيالاتهما المحيية الى طويات ضمائره ، وبات وهما ادخل في نفسه من نفسه ، والصق بمعناه من حسه

لا جرم ان المعتقد على هذه الصورة يحس في نفسه آداباً عظاماً ، ويأنس من ذاته سجايا فخاما ، تنشأ فيه نشوءاً طبيعيا ، وتنبع من جوهره نبوعا ذاتيا ، فلا يلبث ان يكون فاضلا وهو لا يدرى معنى الفاضل في عرف الحكمة الاخلاقية ، ويصبح حكيماوهو لا يدرك تحديد الحكمةفي الاصطلاحاتالفلسفية . وهل بغير هذا البيان يستطيع الباحث ان يفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء ، الى المدنية الادبية العلياء في اقل من ربع قرن ؟ وهي مدة لو كانوا قلبوا البيوت فيها مدارس وأتوا للعرب بكبار فلاسفة الرومان واليونان والفرس فما كانوا يستطيعون ان يبطلوا ما كانوا مغرمين به من شرب الخمر ، وهو اقل مصائبهم خطراً ، فما بالك بتلك القوة التي كرهتهم (بدون مدارس ولا فلاسفة) في الخمر والميسر وطلب الثار وحب الانتقام والغارات والانقسامات والتفاخر بالآباء وعدم المساواة وهضم حقوق النساء ودفن البنات احياء الخ من المصائب الاجتماعية ، والبلايا الاخلاقية . ثم ان اضفت لهذا ما تلاه من رقيهم السريع وقيامهم بخلافة الله في الارض قياماً أدهش الحكماء ، وحير العرفاء ، وارغم معاطس العتاة ، وطأطأ جباه المتألهين الجفاة ، وهم شرذمة معدودة ، وآحاد محدودة لعلمت ان هذه قوة القوى وان الباعث لها من العقائد لا بد من ان يكون ناموسها الاكبر وملاكها الاعظم

أنا هنا لا اريد ان اسوق البراهين الطبيعية الدالة على وحدانية الله تعالى وتنزهه عما

يشا كل مخلوقاته ، وعلوه على كل ما يخطر ببال أحد من عباده ، فان الكون بجملته وتفصيله يدل على هاتين العقيدتين دلالة لا تحتاج لاحالة نظر ، واعمال فكر ، انما الذى اريده هو ان اشرح ذلك الادب الالهى الذى تفيضه تانك العقيدتان على المعنى الانسانى فتقلبه انساناً سويا على مقتضى القالب الفطري والنموذج الالهى بدون علاج من كتب الاخلاق ، ولا رياضة من قانون الفلسفة ، ولو كنت واثقا من صحة وجود اكسير الكمياء الذى يقال انه يقلب المعادن ذهبا ، لقلت ان هاتين العقيدتين تشبهانه من حيث استيلائها على جوهر الانسان ونفي التلونات العارضة عنه ، وسبكه سبكا جديداً على مقتضى قانون ليس فى قدرة العقل الحوم حول تفاصيله .

من وحد الله فقد اعتقد ان « لا اله الا الله » ومن اعتقد ذلك رسخت فى ضميره عقائد تتبعها وانجلت عنه اوهام لا تتفق معها . اما ما يرسخ فى ضميره من العقائد التى تتبعها فتيقنه بان لا معبود الا الله ، ولا محيي الا الله ، ولا مميت الا الله ، ولا رازق الا الله ولا حارم الا الله ، ولا نافع الا الله ، ولا ضار الا الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وان لو اجتمعت الانس والجن على ان ينالوا احداً بخير فلن يستطيعوا ذلك الا باذن الله وتقدير الله ، وان اجمعوا على ان يصيبوه بشر فلن يطيقوه الا بقضاء الله وحكم الله ، وان كل ما دون الله وجود حائل ، وظل زائل ، وما يشاهد من افعال الناس وحركاتهم مما ينسبه قصر النظر اليهم ، فهى نسبة مجازية ، وأمور اصطلاحية . اما هم فى الحقيقة فآلات منفعلة ، وحوادث متصرفة ، لا يملكون لانفسهم نفعا ولا كسبا ، ولا يستطيعون لغيرهم شراً ولا ضرا ، مملوكون لقدرة لا تحدّ بحد ، ولا تقاس بعدّ ، فما مثل الملوك في أبهتها وتعاظمها ، والقادة في تكبرها وتغشمرها أمام هذه القدرة المحيطة بالاكوان ، التى لا تحدها الاذهان ، الا كمثل الضعفاء في مسكنتها ، والبسطاء فى خمالتها وعجزها

لو عقد الانسان فؤاده وعقله على هذه العقيدة ، وابعد عنه شياطين التأويلات وابالسة التحريفات ، تنزلت على فؤاده من عالم الكمال الالهى صفات عالية ، وخصائص سامية ، تستدعيها الحالة التي آل اليها ذلك الفؤاد من التجرد والصفاء ، كما يستدعى الملزوم لازمه ، وكما يطلب الموصوف صفته ؛ واول ما يهب عليه من عالم النفحات القدسية عاطفة الاستقلال والحرية ،

تتنزل عليه هذه العاطفة من اعتقاده ان لا معبود ولا نافع ولا ضار ولا رازق الا الله وان لا حول ولا قوة الا بالله ، فيحس انه والكل سواء فما الملوك في قصورها ، والكبراء في ثروتها ورياشها الا مثله مربوبون مملوكون لا يملكون لانفسهم حياة ولا نفعاً ، فيسقط من ذهنه صنم الوهم الذي يخيفه منهم ، ويدعوه للتحكك بهم ، لثقته انهم آلات منفعلة لقوة الله وتأثيره ، واشباح تروح وتجيء بأمر الله وتسخيره ، فيرى انه حر ليس لأحد عليه سلطان ، في أي أمر كان ، وانه والعالمين في مستوى واحد من حق الوجود ليس لاحد عليه ميزة في الحقوق الانسانية ، وان القانون الذي يجب ان يشمله هو وجميع أفراد نوعه هو قانون العدل والمساواة ، لا قانون التمايز والمحاباة ، ويتحقق ان ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع للقادة المطلقين والسادة القاهرين الجبارين ، هو تسامح الناس في حقوقهم الشخصية وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تريهم ان قادتهم من طينة أرقى من طينتهم ، فتراه مسوقاً سوقاً اضطرارياً لان لا يسلم بتحكم روح على روحه ولا بعدوان أحد على حقوقه ، فلا يرضخ لمسيطر يميل لتسخيره في اهوائه ، وتصريفه في شهواته . هذه الروح المستقلة تدفعه بطبعها لمعاداة كل من يعارضها من بني نوعه سواء كانوا من المدعين للوصاية الروحية ، المتصقين بالوظائف الدينية . او من الذين يريدون اغتصاب السلطة الدنيوية ، وصرف الامة الى أحكامهم الاستبدادية ، فهو من هذه الجهة من ألد أعداء المتألهين ، واشد اضداد المستبدين ، من أي قبيل كانوا وبأي صبغة ظهروا ، فلا تذله ما يبذله الملوك من كواذب الالقاب ، وجواذب الوسامات ، ولا تأسره ما يأتيه به مدعو السلطة الروحية من فواتن الاوهام ، وخوادع الاحلام ، لما يرى فيها من العدوان على استقلاله ، والذهاب بحريته وكماله .

تخيل أمة يكثر في آحادها الموحدون الصادقون ثم انظر كيف تعدم فيها تانك السلطتان الضارتان ، سلطة الملوك المطلقين ، وسلطة الرؤساء الدينيين ، وهما السلطتان اللتان نخرتا عظم الانسانية ، وبلغتا من هضم حقوقها الى زعم ان لا وجود لها مع وجود رؤسائها ، وان حياتها فانية في حياتهم .

ثم تنعدم هاتان السلطتان وينعدم معها ما يتبعها من نقض في نظامات الحكومة ، وجور في قوانينها ، وامتيازات بين رعاياها ، واستئثار من طائفة منها بالسلطة الروحية ، مدعية حق

الهيمنة على ارواحها وعقائدها ، مما دعا ويدعو الى امور تستفز العواطف الساكنة ، وتوقظ الفتن النائمة ، وتجر الى كراهية السلطة ومجافاة التدين بالكلية هربا من اولئك المتعصبين ، وحالة العالم كله شاهد بما نقول

هذا وحده اثر عاطفة الاستقلال التي يشعر بها الموحدون بحكم عقيدتهم ، وأعظم به من اثر . اما ماينشأ عن التوحيد من عواطف اخري فما لا يستقل باستيفائه كتاب ، كعاطفة الشمم وكبر الفؤاد التي تنتج من اعتقاد الموحد وتيقنه بان لا رازق ولا حارم الا الله فتراه ابي الفؤاد عزوف النفس لا يداهن للملوك ولا للامراء ، ولا يتقرب الى الاغنياء ، لتيقنه ان الذى اعطاهم قادر على ان يعطيه اضعاف ماعندهم ، ان اراده لذلك ووفقه له ، فان هم به خاطر رغبة الى الصعود لتلك المراكز الدنيوية وجه وجهه شطر من بيده الاعطاء والمنع راغباً اليه ان يهبه من القوة والاهلية ، وان يوقظ فى ذاته من عوامل النجح في مراميه القصية ، ما يذلل به صعاب الحوائل ، ويسنى له منال الوسائل ، فان نال مناه ، وبلغ مداه زاد بالحق يقينا ، وفى مذهبه تمكينا ، وان اخفق سعيه ، واكدى جهده ، اتهم الوسائل التي استعملها ، واستقل القوى التى بذلها ، فزاد فى وسائله تكميلا ، وامد قواه تنشيطا ، حتى يبلغ ما قدر له وهو عالى الهمة ، كبير الفؤاد لم يلق به الجهل الى مداحض الذلة ، ولم يدهوره الطمع الى مزاق الخسة .

تخيل امة يكثر فيها امثال هؤلاء الموحدين تَرها افخم مظهرا ، واكبر مخبرا من أية أمة عصرية ممن وقرت في نفوس آحادها عاطفة الاعتماد على النفس والثقة بالذات كالانجليز والالمان والامريكان مثلا فان هذه الامم استمدت هاته العاطفة من النظر في نواميس الحياة نظرا مقصورا عليها اما اؤلئك الافراد فتنزلت عليهم هذه العاطفة من جانب الكمال الالهى الاقدس ، فلا جرم ان التاثت هذه العاطفة لدى الامم العصرية بشيء من النقص والجور والشره والمزاحمات الجنونية القاتلة لكثير من العواطف القلبية ، ولا غرو ان نشأ تحت سمائهم الفوضويون والعدميون وغيرهم . اما الأولون فتراهم مع تمتعهم بتلك العاطفة عاطفة الشمم وكبر الفؤاد متراحمين متعاطفين ، جمعتهم الحياة برباط من حب خالص وود وثيق العرى لاتحاد وجهتهم فى طلب الكمال الالهى ، لا لقيام امرهم على النفع الدنيوى .

هؤلاء، لا يتنزهون عن امراض المجتمعات الحية فتصيبهم لفحات من التنافس على اعراض الحياة، وفوائن السلطة والجاه ولكنك مع ذلك لا تعدم فيهم تلك الاريحية للرحمة، وذلك الميل للتصافى والحب، فلا يضيع بينهم فقير ولا يهضم لديهم حق ضعيف، وان ضاع فقيرهم او هضم حق ضعيفهم، فهما ضياع وهضم يمدان رحمة اذا قيسا بما يصيب ضعفاء سواهم من الامم التى فيها عاطفة الاعتماد على الذات مرتكزة على قوانين الحياة الحيوانية

هذا كله ولا تنس عاطفة الشجاعة والعزة التى هى من أخص صفات الموحدين وهى تنبع فى افئدتهم من اعتقادهم انه لا ينفع ولا يضر الا الله. نعم متى اعتقد الانسان ان الانس والجن لن يصلوا اليه باذى لو حماه الله، وانهم لن يصيبوه بحسنة الا اذا بعثهم الله، سقط من عينه كل صنم يقيمه الوهم فى ذهنه، فتراه لا يخشى الا الله ولا يرجو الا الله، ولن يموت الا اذا أماته الله؛ وهذا موقف قد أمر به الله، فما الذي يؤخره عنه غير جيشات الوهم، وسطوات الجبن؛ هذا تفصيل موجز لبعض الخصال الكريمة التى تنشأ من عقيدة التوحيد نشوءاً طبيعياً ولا احيلك فى نظر ذلك بالحس الا على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم وحدهم المثال الكامل الذى يليق ان يتخذ حجة محسوسة على ما نقول

من هنا ترى ان عقيدة التوحيد تهب على الروح الانسانية بأدب الهى يقيم الشخص على صراط الحق ويبعثه للسير فيه بعثاً ذاتياً، ويحليه من الصفات الصالحة لعمارية الأرض وحماية الجامعة بخلائق تعجز عنها التربية وتعيا دونها أساليب التقويم والتهذيب المعروفة.

هذا الأدب لا يقتصر على تأدية الانسان لارقى مظاهر الكمال الدنيوى فقط بل يؤديه لاسمى منصات الرقى الروحانى ايضاً، لان الروح الانسانية لا يحجبها عن مشارفة عالمها الذي تنزلت منه، ولا يمنعها عن المتاع بجمال مشاهده ومعاهده الا ما استدعاه هذا الجسم من صفات الحيوانية، ولوازم الحياة البهيمية. هذه الصفات واللوازم التي اكتسبها الانسان بتلبسه بهذه المادة كالهلع والجزع، والبخل والشح، والخوف والجبن، والحسد والحقد، وغير ذلك من الصفات الذميمة المستوعبة لحيوية اكثر الناس والمستولية على مجموع هممهم والمانعة لهم عن السكون الى ذاتهم، والطمأنينة الى ارواحهم سببها نقص ايمانهم بالخالق الحق، فان الهلع والجزع صفتان معناهما اظهار الحزن من فقد الصبر عند المصيبة، وقيل

هما بمعنى وقيل ان الهلع افحش الجزع ، فهاتان الصفتان ليستا من صفات الكاملين قال تعالى « ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين، الآية . »
وكذلك البخل والشح والحقد والحسد والخوف والجبن صفات خسيسة لا تحل الا قلوباً جاهلة خلت من الايمان الكامل لأن مدارها كلها على الشؤون السافلة ، والامور المنحطة ، ومن كان يؤمن بالله ايمانا كاملا ويرى انه الفاعل الحق والمؤثر الفرد ، فلا يحقد ولا يحسد ولا يخاف ولا يجبن ، ولا يشح ولا يبخل ، فيخلو فكره من الجولان فى هذه الصفات وما يلازمها ومتى خلا فكر الانسان من الروع فى قذر هذه الصفات الخسيسة وتوابعها التى يقضى فيها ناقصو الايمان اعمارهم الثمينة جال بطبعه فى عالم الحقائق وسلك من باحاتها طرقا سلكها قبله الانبياء والصالحون فيمر فى أثناء سيره على عوالم الجمال والكمال بطريقة طبيعية لا صناعية فتزداد علاقته بالعالم الروحانى متانة ، ويزداد الاتصال بينه وبين حقائقه احكاما فيرتقى فيه ارتقاء تدريجيا كما يرتقى جسمه فى عالم المادة فتكون روحه في عالم القدس تملى وتمتع ، وجسمه فى عالم الحس يكافح ويجاهد كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وكافة المرسلين والصديقين مع اختلاف فى الرتب وتباين في الهمم كما لا يخفى

من هنا يرى قارئنا ان (لا اله الا الله مفتاح السموات والارض) كما جاء فى الخبر النبوى ، فهي مفتاح السموات لأنها تؤدى الشخص الى الكمال الروحاني فى أبدع مجاليه ومعانيه ، وهى مفتاح الارض لانها أقوى عامل كما رأيت لتربية ملكاته ، وتهذيب مواهبه وتأديته الى أرقى مظهر من مظاهر الحياة الارضية .

اما عقيدة التنزيه وهى اعتقاد ان الخالق اعلا من ان يحد بحد أو يصور بصورة ذهنية ، فأثرها على النفس من أكبر الآثار واعجبها ايضاً واليك شيأ من التفصيل

قلنا ان الانسان مفطور على العقيدة بالخالق جل وعز لمساسها بحياته الشخصية وعواطف فؤاده الداخلية ، وقلنا ان هذه المسئلة مستولية على سائر مشاعره واحساساته استيلاء غير محدود فعقله وفكره وخياله وذاكرته مسخرة لها مشغولة بها شغلا يعرف بعض آثاره من احوال الامم قديمها وحديثها ، وان مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الانسان لخليقة بان تقف في مهب فكره ، وتكون دائما حيال خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان

بمدركاته فيها شطحا استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال ، ولا غرو بعد ذلك ان اصبح لكل امة فى صفات الله تعالي وذاته كلاماً ينافي كلام جاراتها ، ولماذا لاتكون هذه العقيدة بعد ذلك تابعة لنمو المدارك وسعة العقل ، فيصلح اللاحق غلط السابق ، وينقح الابناء ما تسامح في اعتقادة الآباء وينتهى الحال بالناس الى النظر لاصحاب الاديان نظارهم للمحرفين المؤولين ، المتذبذبين المتلاعبين ، ولهم الحق فى هذا النظر

جاء الاسلام ساداً هذين البابين الهائلين باب الفكر فى ذات الله وباب اعمال الخيال فى ادراكه ، مقررا ان كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، منذرا بالهلاك والثبور كل من يجارى على التطفل على الحوم حول هذا الحمى المنيع ، او التطلع لا كتشاف هذا السر العزيز لانه ليس من اختصاص هذا العقل العادي الوصول اليه ، والاشراف عليه . الا تري ان هذا العقل يرقى كل يوم نحو الكمال ، فلو اطلقنا للعقل حريته في الفكر في ذات الله وشؤونه العالية وسمحنا للخيال ان يأخذ حظه من هذه المجالات السامية ، اصبحت عقائد الدين كعقائد العلم عرضة فى كل جيل للتحوير والتغيير ، وكفى بهذا مسقطا لمهابتها من نفوس الآخذين بها ، ولو تركت بلا تحوير ولا تغيير لكانت بنفسها ادل الادلة على انها افكار بشرية ، وخيالات ذهنية ، صورها الجهل ، وزينها الاهواء ، ولأصبحت بذلك في واد وعقول اتباعها فى واد آخر ، اذ يستحيل على الانسان ان يعتقد ما لا يعقل او يحترم ما يجزم انه وهم باطل وخيال من الحقيقة عاطل ، كما هو حال اتباع اكثر اصحاب الاديان اليوم .

قلنا ان عقيدة وجود الخالق امس مايمس حياة الانسان الشخصية فهو يبحث عن صانعه الحكيم طلبا للطمأنينة على ذاته ، وغيرة على حياته ، لانه لا يستطيع ان يدرك له وجودا ابدياً ، ولا حياة فيها جزاء عادل على الحسنات والسيئات ولا ناموساً عادلا سائداً على الكون والكائنات حفيظاعليها ، ومراقبا لحركاتهاوسكناتها ، ولا قدرة شاملة وحكمة كاملة وضعت هذا الكون على قواعد الحكمة وحسن التقدير ، الا باعتقاد وجود ذات اولية متمتعة بكل الكمال ، ومتصفة باقصى ما يمكن من صفات الجلال . ثم قلنا ان هذه العقيدة لما كانت امس العقائد بحياة الانسان فهي اكثر مدركاته تسلطا على مداركه ومشاعره وفؤاده ، ثم قلنا وان مسألة هذا شأنها من التسلط على فوآد الانسان خليقة بان تقف في مهب فكره وتكون

دائما فى مضطرب خياله ، ولا عجب بعد ذلك ان شطح الانسان فيها بمدركاته شطحا استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال . ثم قلنا بعد ذلك جاء الاسلام فسد باب الفكر وباب الخيال دون هذه العقيدة ، وحال بين شهوات العقل وبينها حيلولة لا يصح اسلامه الا بها فكيف يمكنه الصبر على هذا الفصل بينه وبين اكبر شئ يؤثر على فكره وخياله ؟

نقول ان الذى يصبره على ذلك ويثبته فيه هو ما يشعره بسببه من الكمال المعنوي الحقيق الذى ينبع فى فؤاده ، والنور الذى يشرق على سرائره فيملأه سعادة وغبطة . والانسان مغرم بالكمال ، ومشغوف بالنور والسعادة . واذا أردت معرفة طرف من ماهية تلك اللذة وكيفية نشوءهما فاليك :

الانسان ما انساق الى الفكر فى ذات الله والطيران فى اجواء الخيال فى تحديد صفاته وشؤونه الا بما يجده من اللذة المعنوية فى ذاته من جراء التحسس على علم ما لم يعلم ولو وهما . وقد عودنا انه متى عدم الحقيقة ولذتها قنع بالخيال وتلهى به وربما غلا فقهر نفسه على اعتبار خياله حقيقة ، وهو يعرف هذا الضعف من نفسه ولا ينكره .

كل منا يشعر بلذة العلم الذى يمس مصلحته من اى جهة كانت فتراه يرتاح لسماعه او لاستنباطه ومتى حصل له منه شئ طار به فرحا وترنح له عجبا واودعه فى صميم فؤاده ، لا سيا لو كان ذلك العلم ماسا بما يشعره من الحاجة الدينية وما يرمي اليه من المقاصد الروحية ، وقد تحمل هذه اللذة بعض الناس على هجر اهله وبلده اكتفاء بها عن كل محبوب ، وتفضيلا لها على كل مألوف

ما منا احد الا وقد شعر بهذه اللذة العلمية سواء كانت فيما يتعلق بمصالحه الدنيوية او بمراميه الدينية ومطالبه الروحية ، وهو امر معقول لدى الكافة لا يتردد في حصوله احد لأن اللذة نتيجة سبب معلوم وهو العلم ، ولكن ادعاؤنا حدوث لذة ونور وسعادة بمحض صدقوى الفكر والخيال عن الجولان في موضوع العقيدة وبمجرد القناعة بها كما هي بدون تحديد ولا تعريف ، امر لا يسلم لنا الا بدليل منير .

نقول اذا كان سبب اللذة المعروفة لنا هو العلم فان عقيدة التنزيه اكبر درجة ممكن ان يبلغها الفكر البشرى من درجات العلم ، فلا عجب ان كانت لذتها اكبر لذة معروفة عند البشر .

اما كونها اكبر درجة من درجات العلم البشري فلأنها تتعلق بصفات الخالق الاقدس من جهة كونها صفات غير محدودة ، وكمالات غير محصورة وان اردت ان تعرف كيف ان التنزيه اكبر العلم فاليك :

قلنا ان التنزيه هو ان تنزه الخالق عن كل ما يشاكل خلقه وان تعتقد ان كل ما خطر ببالك فهو بخلاف ذلك . ولما كان الفكر والخيال عاملين دائبين وراء استكناه المجاهيل واستنباط المساتير ، باعثين للعقل على مجاراتهما في تجوالهما فسيأتيانك من جهة هذه العقيدة بمحصول يحثانك على اعتقاده فان كنت غير مسلم فرحت بنتيجة كدهما واعتقدت ما اتياك به من العلم حتي ينبهك منبه على ضلالك اويرتقي فكرك وخيالك درجة فيهدمان من ذاكرتك ما بنياه اولا ويقيمان لك عقيدة جديدة وهلم جرا ، او يجمدان بك على عقيدة راسخة رسمية من قبل الطائفة المسيطرة فلا تستطيع ان تتعداها وهماً وان كنت قد فقتها فعلا . واما ان كنت مسلما منزها عاملا بواجب التوحيد والتنزيه واقفاً بقواك العقلية مواقفها الحقة على حسب التعليم القرآني يحصل بينك وبين تلك القوى الادراكية فيك ثورة داخلية يكون نتيجتها من العلم العالى ما يحييك ويسعدك . ولاجل تجلية عقيدة التنزيه كما هى في جلالها ، وتصوير ما يحدث في المعنى الانساني من الاخذ والرد فيها حتى يطمئن الضمير على حقيقتها نصف لك هيئة المناظرة التى تحصل بين القوى النفسية فى سر الانسان :

(العقل) انا نعتقد بوجود الخالق سبحانه وتعالى ولكن ما هو وكيف صفته ؟

(الفكر) لقد سألت عما يجب ان يسأل عنه وسابذل لك اقصى قواي فى الاشراف بك على أحسن ما تتوق اليه ، وساعتضد بالخيال

(الخيال) لبيك وسعديك انى معك حيثما تذهب فان عجزت عن الطيران بمقتضى طبعك طرت وحدى وصدقتك فيما احدث

(عقيدة التنزيه) كفوا عن هذا الجدال فانتم ومن فى الارض والسموات جميعاً أقل من ان تصلوا الى الله من هذا الطريق طريق المشاعر الحسية ، والعوامل الجسدية ، فان سلطانكم مقصور على عالم الشهادة واشيائه وليس الله تعالى بما يشابهه او يشاكله حتى تقدروا على الوصول اليه من هذا المسلك

(العقل) وما هو اذن وكيف الوصول اليه ؟

(عقيدة التنزيه) هو اكبر من ان يحيط الوهم بسرادقات كماله واعلا من ان يصعد التصور الى معارج مجده وعلائه ، قدرة لا تحد بحد وحكمة لا تنتهي لغاية ورحمة دونها كل نهاية ، وصفات كمال لو أردت تصورها بهذا الفكر القاصر فلن تصل لشئ منها لان فكرك مصوغ على قالب هذه العوالم المرئية المحدودة واقيسته منتزعة من عالم الحس المتناهى فمهما صعدت فانت في عالمك هذا لا تتعداه والله تعالى اعلا من ان يقاس بالحدود والهيئات او يدرك بالمعلومات والآلات

(العقل) اذن فكيف يعتقد الانسان ما يجهل ؟

(عقيدة التنزيه) اني اقول لك ان حقيقة الله اكبر من ان يصل اليها العلم واجل من ان يصورها الفكر وأعز من ان تحوم حولها المدارك . وصفاته أعظم من ان تحصر او تحد ، أليس هذا اكبر درجة من درجات العلم واقصى غاية من غايات قوة الادراك ؟

(العقل) العلم فى عرفنا ان نعلم حدود الشئ وصفاته وعلاقاته بغيره اما هذا النوع الذى تذكره فلم نصطلح على تسميته علما

(عقيدة التنزيه) ان ما اصطلحتم على تسميته علما أليس قابلا للتحوير والتبديل والزيادة والنقصان حتى فيما تدعونه علوماً تجريبية ؟

(العقل) نعم وهذا من أخص صفات العلم

(عقيدة التنزيه) أفتريدون ان يكون شأن العقيدة كشأن العلم من حيث قبولها للتحوير والتبديل على حسب درجات العقل ورقى المدارك ؟

(العقل) لا : لا يليق ذلك فان فيه حطا من كرامتها

(العقيدة) اذن فليس لنا الا امران اما تناولها بآلاتنا القاصرة وعقولنا المحدودة وتعريضها للتحوير والتبديل على نحو ما عليه عقائد الامم المبطلة واما وقوف العقل عند حده والاقرار بعجزه المطلق عن تناول ما ليس من عالمه ولم يؤت وسيلة الصعود اليه

(العقل) اذن كيف يثلج الصدر بالعقيدة وتطمئن الخواطر لها

(العقيدة) الاعتقاد على النحو الذى ارسمه لك لا يكاد يخالفك فيه اكبر ملحد فضلا

عن انه احسن ما يثلج عليه صدر المؤمن لانه مستند على الحس

(العقل) كيف ذلك ؟

(العقيدة) لا تشعر بضرورة وجود قدرة ابدعت هذا العالم المدهش وتلك القدرة كبيرة الى مالانهاية ؟

(العقل) هذا امر بديهي لا يحتاج لجدال

(العقيدة) ألا ترى ان هذه القدرة المبدعة دائمة العناية بمبدعاتها مواصلة الامداد والتربية لها

(العقل) كيف ينكر الحس عاقل ولكن الملحدة يسمون هذه القدرة نواميس طبيعية

(العقيدة) اذا كنت تنكر عليهم تسميتهم لها نواميس طبيعية فلماذا تهم انت أيضا بتقليدهم فى تصورها بصورة ما والحكم على صفاتها بحكم يناسب حالك ؛ اذا كان الملحدة قد جاروا بتحديدهم تلك القوة فلماذا تريدان تجور انت ايضا من جهة اخرى ؛ الا ترى انك لو اكتفيت بالعقيدة الفطرية وهي الشعور بوجود قدرة لاتحد ابدعت هذا الوجود على مقتضى الحكمة والعدل وأقلعت عن تحديدها وتصورها على قدر وسائلك القاصرة ، وكان اكتفى الملحد من جهة أخري بشعوره الذى لا يمكنه ان يخالفك فيه مطلقا لانه شعار هذه الانسانية امام هذا الوجود المعجز لأن الانسان لا يستطيع ان يدعى مطلقا وجود هذا الوجود بلا قدرة عالية قلت لو كنت اكتفيت انت بما تشعره بالفطرة من وجود تلك القدرة واكتفى هو ايضاً ولم يسمها نواميس اما كان ذلك داعياً لاتحاد كما فى العقيدة وتآخيكما عليها ، ولكنك لم ترض بالوقوف مع الشعور الفطرى فقمت تصور وتحكم ولم يقف هو ايضاً فى مركزه بل أخذ يجمل ويفصل حتى سماها نواميس طبيعية ، فنشأ بينكما خلاف موهوم ما كان لينشأ لو وقفتما عند حدكما ولزمتما مقامكما . اما ثلج الصدر واطمئنان الخواطر فهو من لوازم التنزيه وصفاته فان شعورك بقدرة عالية متولية أمر الكون والكائنات على دستور العدالة والحكمة والعلم وانها كما تولتك وانت نطفة وربتك تلك التربية الجنينية ثم هدت امك لتربيتك وساقتها للعناية بك حتى كبرت وترعرعت هى نفسها التى تتولاك الآن وتبعثك بالدوافع التى وضعتها

فيك الى كمال أنت مستأهل له وان لم تنته بعد اليه ولم تشرف عليـه . شعورك بانك مقود بتلك القدرة التي لا تحد ولا توصف والتي لا يستطيع ان ينكرها احد يجعلك هادئ الضمير ثلج الصدر خالياً من جيشات الشبه وسطوات الشكوك ، وهل الشبه والشكوك تطرأ الا على محصولك العلمي وقضاياك العقلية ولكن هذه العقيدة التي لا اسمح لك فيها بالحكم عليها بفكرك القاصر وعلمك الناقص وأريد منك ان تدعها فطرية طبيعية كما هي ، كيف يطرأ عليها الشك وليست من قبيل معلوماتك المتحولة وقضاياك المتغيرة ؟

الا ترى معي بعد هذا ان التنزيه ارقى درجة من درجات العلم وانه اوجب لأن يطمئن اليه الخاطر وينشرح له الصدر وادعى لان تجتمع الامم كلها عليه وتتآخى فيه تآخياً خالصا لتساوي الكل في الشعور بموضوعه شعوراً فطرياً . وانه اعدل طريق يسلكه الانسان امام حاجته للعقيدة وارتياحه لها

اما النور الذي يحل بالصدر والسعادة التي تفاض عليه من حلول عقيدة التنزيه به فلأن ردع القوة الفكرية والخيالية عن الجولان في اكبر موضوع يؤثر عليهما وايقافهما عند حدهما دون الخوض في مسائله يستلزم حدوث انقلاب غريب في دستور مملكة الانسان الباطنية واتجاهات قواه الداخلية . فانه بردع تينك القوتين عن الجولان في هذه العقيدة المستولية على مهاب مشاعر الانسان ومسارب مداركه كما اثبتنا ذلك قبل قليل فتنقطع عن شياطين الأوهام والخرافات التي تلصق بالدين زورا مادة البقاء فتنجلي عن النفس بحكم الضرورة وهذه الشياطين كما لا يخفاك قوى تسويلية تضليلية تحل بالنفوس المستعدة لها كما ينجذب الميكروب الى البقعة التي يجد فيها غذاءه فيفرخ فيها ويتكاثر حتى يخرج ذلك الشئ عن اصله بالتحلل . كذلك النفس الوهامة المخرفة تجذب اليها تلك القوى الخبيثة فتفرخ فيها وتنمو وتستدعي ما هو افتك بالحياة منها ولا تزال بضمير الانسان حتى تحلل فضائله او تمسخها وتصرفه في شؤونها واهوائها الى ان ينتهي وجوده على حال من الاحوال . ولكن حلول التنزيه في الفؤاد من جهة العقيدة وهي الجهة المتسلطة على سائر عواطف النفس واميالها يقف بالنفس موقف الطهر ويحميها من فواتك الصفات الخسيسة وخوانس القوى الشريرة فتدع الانسان لقواه الطبيعية ومواهبه الفطرية وهي اولى القوى بحق قيادته واهدى الادلة

لارشاده وهدايته

عقيدة التنزيه تفعل بالنفس من التطهير والتنقية وتعمرها من ارواح السكينة والحياة الصحيحة ما لا يفعله العلم الطبيعي الذي يزعم اليوم انه يحل محل الدين في قيادة الانسان وتخليصه من اسر الخرافات الاعتقادية التي حملها لنفسه ومسخ بها فطرته . يقول علماء الطبيعة والانسان ان الخالق تقدست صفاته وهب الانسان مواهب جليلة ومنحه بمزايا نبيلة وركبه مادة ومعنى على صورة قابلة للترقي والتهذيب ووضعه في وجود مناسب له من كل وجه وصالح لصقل ملكاته لما بينهما من الارتباط والمناسبة ، ولكن الاديان وكهانها قد كانت ولم تزل عقبة كؤوداً في رقيه بما تفتحه سبيل له من مجال الخيال والاوهام وما تلطخ به فطرته من الضلال والاحلام وما تصرفه فيه من الاعمال التي تفسد كيانه وتمسخ طبيعته فتجعله مملوكا للاهواء مستعبداً للاساطير فجاء العلم الطبيعي بعد ان فاز على رؤساء الاديان ونجا من مخالبهم لتخليص هذا الانسان الضعيف من ايدي مستعبديه ومضليه بخلع كل تلك الكسف المتراكمة على فؤاده ولبه من عقائد باطلة واوهام عاطلة وتجريد فطرته عما يقف بها في اوحال النقص ويغمسها في اقذاء الرجس فتخلص مواهبه من قيودها وتستقيم ملكاته على مناهجها ويزداد على نسبة العلم والعرفان الذي يعطي له رقياً ورفعة .

هذا مازعمه العلم الطبيعي العصري ويرجوه ويعمل عليه فماذا كانت النتيجة ؟ كانت تخليص الانسان من اسر الاهواء حقيقة ولكنه جار فعراه من عاطفة الدين ايضاً فضج العالم منه ضجة لم يزل دويها يخترق الآفاق للآن يسمعها اصحاء الآذان والافئدة وان انكرها الصم المفتونون قال (فيرنس جيانرت) في كتابه الغمة الحاضرة « ان العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة اكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد اثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعدها بتعويضها لها باصول ثابتة ابدية لدين حي جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للانسانية رشدها ، وقد فقدت شمرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ اوسع مما كانت فيه قبلا . وفي الواقع ماذا يفيد الانسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الالحاد المتجدد المؤلم الذي يجرنا اليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة »

« انهم ينصحون كل انسان بان يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفطنوا الى ان هذه

النصيحة المزدوجة تحتوى على تناقض بين حيث ان المذهب الحسى لم يترك للانسان مجالا فى غير المسائل المادية المحضة . »

« ان الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس اهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة الى الابد ، وان جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك لدى اهل اليسار والبذخ . وهذا الالحاد الآخذ فى النمو يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة الى حالة ثوروية دائمة . واصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم نكن نشاهد فى وزراء الازمنة الماضية . والحكم الاستبدادي بدل ان يتشبح في بعض الافراد اضحي منتشراً بين الملايين فكل ديموقراطى يتمنى ان يبلغ الرتب العلية، وترى الشعب لما أحس انه خلص من اسر الواجبات الروحية التي تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسى الذى يراه يتغير بسرعة جنونية اعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية وصار يعتبران ما له من حق المساعدة فى ادارة شؤون حكومته وسيلة لنيل مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ولقد رجونا ان نداوى مصائب النوع الانسانى بالكنوز المادية التي القيت بين ايدينا من منذ قرن من الزمان ، كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظمى ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات الا نشر حمى حب المال في الطبقات السحيقة جداً .

« فأى قانون اخلاقى يكفى لكبح جماح اهوائنا وادخالها الى مجاريها الطبيعية المعتدلة لقد ذهب عنا الكمال المعنوي ولم يبق فينا الا خوف مبهم من شيء غير مدرك . لان العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس ،فترى الذين لا احساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم في ارتكابهم الجرائم وبهذا فقد اصبحت الشهوات غير واقفة عند حد »

« ان تحت هذا السلم الذي اقتضاه الخوف العام لاحقاداً تختمر اختماراً بأشد مما كانت فى اى زمن من الازمان فان جرائم الفوضويين وافلاس الماليين وانتحار الاسر باجمعها والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس والجنون الذي لا ينتظر الا سنوح الفرص واصحاب الأثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم اجناسنا ناشيء من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لاحداث الوحدة والاخاء بين احتياجنا

الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب ،

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ملقية اطنابها على عالمنا . ويزعم الانسان في غروره ان حرية الأثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانشراح حتى صرنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنيل امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعي لنفسه حقوقا ليس لها حد تنتهي اليه وبذلك فقد اصبح الانسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفاً بأنه امام الحياة اضعف مما كان في أي زمن من الازمان »

وقال العلامة (كاميل فلامريون) ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لا يجوز لنا ان نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضينا به واصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لاهم لها الا اغراضها الذاتية اليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » « وان من التناقض البين المؤلم ان ترى ان الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للانسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا الى المدركات العالية اهبطت انسانيتنا الى اخس الدركات . ومن المحزن ان نحس بانه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم ، تنطفئ حرارة قلوبنا وتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » انتهى

اذا علمت هذا رأيت ان الصراط الالهي الاعدل والمخرج من كل هذه الفتن المزعجة المجتاحة هو الاسلام فانه المنهاج الوسط بين افراط الاديان المحرفة وتفريط العلم الطبيعي أفرطت الأولى في اسر الانسان واطلق كهانها لانفسهم عنان الحرية في اسر العالم وتسخيره لأرادتهم فثارت الانسانية في وجوههم وقارعتهم بالحديد والنار حتى خلص العالم منهم فجاء العلم ولكنه في طرف التفريط فازال عن النفوس اعز مطلوباتها وسعى في اقناعها بامكان قيامها على الصراط الحيواني مقصوراً على الطين ولذاته والحس ومقتضياته ، منكراً لها الروح والخلود والثواب والعقاب وعالم ما وراء المادة فاستراحت اليه هنية واستنامت له برهة ثم احست بما افزعها وازعجها فقامت تنشد مطلوباً عزيزاً وتطلب مفقوداً غالياً . وما هو ؟ هو

الاسلام لانه حاصل على ارقى ما تتوق اليه النفس من مطالب روحية وكمالات نورانية وعواطف قلبية . وحالٍ باقصى ما يتمناه العلم من معاداة الخرافات ومجافاة الظنون والوقوف بالنفس موقف الطهر عن اعتقاد الاوهام واقتفاء اثر الخزعبلات وتسليم قياد النفس للقادة المضلين والهداة الغاوين الخ الخ مما يطلبه العلم ويجهد نفسه فى تقريره لان عقيده التوحيد وهي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله وعقيدة التنزيه وهى ردع الفكر والخيال عن الحوم حول تصوير الخالق وتكييفه وما يقتضى ذلك من الادب النفساني الباهر وما يتبع ذلك من البعد عن الظن والتقليد والاعتقاد بلا دليل الخ الخ مما هو من قواعد هذا الدين القيم، كل ذلك يجعل المسلم أشد حيطة لنفسه من أى عالم او متعلم على الاسلوب الحديث فان المسلم يعتقد انه مسؤول عن كل شيء وعن أقل زيغ في الدنيا والآخرة لا في الدنيا وحدها كما هى عقيدة طلاب العلم الطبيعى فهو بالضرورة اكثر احتفاظاً منه بنفسه . لا تقل فلم لا نرى المسلمين كما تصف ، فاني اقرر ماهية الاسلام من انه الصراط الالهى الاعدل الذى سيرث العلم والاديان معا . اما المسلمون فلنا عليهم كلام آخر .

اذا تقرر هذا فقد ظهر لك باجلا الادلة ان الاسلام الذى عنوانه لا اله الا الله محمد رسول الله ، وحليتاه التوحيد والتنزيه بأخص معانيهما هو الدين الحق الذي سيؤوب اليه المفرطون والمفرطون معاً . أما المفرطون من أصحاب الأديان فانهم يلاقون من انفسهم ومن الوجود كل يوم حرباً عوانا وقد رأيت وترى انهم يقلون في كل صقع ويضؤلون في كل جهة وليس هذا الاضمحلال عرض يزول بل هو مستند على موانع طبيعية تمنع من بقاء اديانهم لمخالفتها للعقل وللطبع معاً . واما المفرطون من اصحاب العلم الطبيعى فلا يمكنهم الثبات فى وقفهم مع الحس وقد أريناك انهم أخذوا يجأرون ويصيحون بفقد العقيدة . اذن فلا بدّ من دين يتفق عليه الطرفان ويكون وسطاً بين الافراط والتفريط وكتابه محفوظاً من التحريف والتخليط وتاريخه معروف مشهور . ولا دين فيه هذه الصفة الالهية غير الاسلام الذى جاء يدعو الناس اليه محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله فيه « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون » « سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »

﴿ الرق المادى والشكوك فى الدين ﴾

نحن بعد ان جلنا بالقارئ هذه الجولة يحسن بنا ان نسأل انفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرق المادى والشكوك فى الدين ؟ وما هذه العلاقة الاكيدة بين العلم بالكون والالحاد ؟ لو كان هذا شأن امة من الامم لقلنا ان له سبباً عرضياً استدعته حالة من أحوالها الخاصة ولكنه يشاهد في جميع الامم على حد سواء (الا الامة الاسلامية) واظهر مثال لنا ماتشاهده باعيننا من الاوربيين فانهم اصبحوا من ترك العقائد بحيث لانستطيع ان نتخيل امكان رجوعهم اليها وقد علقو رقيهم كله على تركها وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل في هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة ان الدين باعثه الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الاديان الموجودة هي حوادث تاريخية استلزمتها أدوار خاصة وقد أدت وظيفتها وأخذت في الانحلال ولن يقوم لها في عصر العلم قائمة ؟

ان كان لا هذا ولا ذاك ، فهل في الرق المادى شيء من السحر يعترى النفوس فيلفتها عن مطالب ارواحها ويعميها عن رؤية كمالاتها ؟

ان كان كذلك فما هو ذلك السحر في نفسه وما منشأه وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن ان يوجد على سطح الارض مدنية مادية متحدة بكمالات روحانية ويكون الانسان بينهما مغموراً في نعيم روحه وجسده متمتعاً بلذائذ مادته ومعناه ؟ ان كان لا يمكن ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين وموقوفاً على المحرومين والمستضعفين ؟

وان كان من الممكن جمع مدنية مادية مع كمالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك فى قشور هذه المدنية الاوروبية قد خلعوا أعنة الدين ، واملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العدل ان نصمهم كلهم بالعماية والطيش فان منهم المتعلم الذى يفخر به معلموه ، والسمح الذى هام به محبوه ، والاريحى الذى يحمده قاصدوه ، فما الذى امال اعناق هؤلاء الى

الهوى ودفعهم الى الردى ؛ واذا كان لا مناص من ان يكون الرقي المادى يقابله عدم الدين وقد رأينا بوادره فى اخواننا الاقربين فانتظر اذن حيناً من الدهر لا تصادف فيه راكعاً في محراب ، ولا داعياً الى غير شراب ، لان المدنيـة الصناعية آخذة في الانتشار ومتسربة الى سائر الامصار ، وانك ترى انها تعدت من كبار الافراد الى من يليهم وممن يليهم الى من دونهم حتى دخلت الى قرى الفلاحين ، وكادت تطرق الباب على صغار الحراثين ، فان كان كما قلنا في المدنية شيء مما نسميه سحراً فقد قرب الوقت الذى ندعو فيـه الى الدين فلا يجيبنا غير الصدى ، ويذهب كل ما كتبناه فى الحث على التخلق به سدى

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لادراك سرها ، والوقوف على حقيقة أمرها ، لنعرف مكامن الداء وحقيقة الدواء تفاديا من التعب في غير متعب ، وهربا من الذهاب في غير مذهب ؟

ما هى المدنيـة وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ما هي الشهوات الجثمانيـة وما هى الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الانسان الشهوات الفانيـة على الكمالات الباقية ؟ هل السبب فى ذلك عدم الايمان ؟ فما هو الايمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل فى العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في ايتاء الروح حاجتها وتهدئة النفس في جيشانها ؟ هل فيها ما يغذى عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الارضية وتكتفى بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهي بالانسان الى اعتقاد بطلان الأديان ، وادراك فساد ما بنيت عليه من الاركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الامر بزوال الدين وانتهاء سلطته ، وقيام العقل مقامه فى اداء وظيفته ؛ يمكن ان يقال نعم ، وان يقال لا .

ان قيل نعم فما هو العقل وما هو الدين وما حدود سلطانهما على النفوس ؟ هل هما يتنازعان الانسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب منهما دون الآخر ، ام لكل منهما دائرة نفوذ خاصة يؤثر على انسان من قبلها ؟ فما هى جهة سلطة العقل وما هى جهة سلطة الدين ؟

وان قيل لا . تقول : اذن ما هذا الاثر الذي نشاهده ؟ لماذا نرى كل من ازداد علماً بالكون وبالامم من اصحاب الاديان سواء الاقدمين او المحدثين يشكون فى العقائد ويتهاونون في

أمرها، ولا يزالون كذلك حتى يتركوها بالمرة ؟

ان قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من اسباب اللهو والترف ، وما تجلبه لهم من المغريات على الخلاعة والسرف . نقول : وكيف يقوم لامثال هـذه الامم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ؛ عادٍ على كيان حوافظها الاصلية ؟ هل ذلك لأنا واهمون فى تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ ماذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال

« انكم سميتم عاداتكم فضائل ودعوتم اضدادها رذائل وجعلتم ذلك قانوناً تحكمون به على الأمم والافراد فيذهب كل يوم حكمكم ادراج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها فتحكمون عليها بأنها بعيدة عن الفضيلة وترون فيها اضداد عاداتكم فتحسبونها رذائل فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشى . والحقيقة غير ماتحكمون وما تظنون .

« انكم تنظرون الى الربا فتظنونه رذيلة مجتاحة (هذا قول المعترض) مع أن عليه تدور دائرة التعامل فى العالم المتمدن كله وبه تتوطد الدعائم الاقتصادية فيه . وتلتفتون الى الخمر فتعدونها رذيلة حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الاكبر لمالية الأمم المتمدنة ؛ وترنون الى مسألة تكشف النساء وحضورهن فى مجالس الرجال فتخالونه رذيلة مع أنه أهم الاسباب التي رقت الاوربيين واخـذت بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سميتم كل ما خالفكم فيه غيركم رذيلة وهى فى الحقيقة فضيلة وصرتم تتزرون بها كل يوم حتى اعتادتها الاسماع ولم يعدلها تأثير .

« انكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من انوفكم الى تقليد الأوروبيين والاخذ بعاداتهم وتذهبون فى تعليل هذا الامر مذاهب الخيال والشعر فتسمونه سحراً او تسمونه روحاً وقد جعلتم التفيهق بامثال هذه الكلمات مادة لكم فى ابحاثكم وكتاباتكم اندرون ماتجدونه فى أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر اي قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة فى الامم التى تحتكون بها لان الفضيلة جذابة خلابة تؤثر تأثير السحر على العواطف والاميال فهي تجذبكم كل يوم اليها بقوتها الذاتية فترضخون لاحكامها بالفعل بينما تكون السنتكم واقلامكم لائكة

تلك العبارات الاستفهامية والجمل التعجبية اندهاشاً من كونكم مسحورين بالرذائل ومجبرين على ترك الفضائل . فعليكم ان تتبصروا وتجيدوا استعمال الروية ، قبل ان تقع على عاتق المتهورين من كتابكم المسئولية ، مسئولية صد الشرق عن الاستفادة من خير المدنية »

هذا مايستطيع ان يقوله مجادل عنيد فى مناسبة ماسقناه من النبذة التاريخية، ومانساءلنا عنه من ذلك المؤثر الذى يؤثر على العقيدة الدينية في عصور المدنية. وهو من الشبه الرائجة في أيامنا هذه على ألسنة بعض الناس ممن يستطيعون التعبير . وفى ضمائر البعض الآخر ممن لايحسنون القال والقيل . فلا مناص لنا من حلها حلا جلياً تفصيلياً ان شاء الله تعالى لانها من احابيل شياطين الشرق اليوم التى وقع فيها كثير من افراد النشأة الجديدة مسوقين اليها بتيارين: تيار سحر الزخرف الصناعى المنصب الينا من اوروبا وتيار القوة والنفوذ اللذين هما فى جانب الغرب اليوم.

هذان التياران وان كانا فى العادة دافعين هائلين للامم المستضعفة الى الانحلال ، الا انهما لا يبلغان غاية قوتهما الا امام الامم الجاهلة الغافلة عن سر الحياة ، التى لاتسمح لها عمايتها بالتفكر فيما بعد يومها الذى هى فيه ، وتوهمها وساوسها بان الحال لن يتغير عما هو عليه ، وان العالم قد طبع بطابع نهائى اى ان القوى يبقى قويا الى الابد والضعيف لايبرح ضعيفاً الى الابد ، ولا معنى لهذا الا اليأس بعينه وهو اشد درجات الكفر فى مذهبنا .

فالعلم والحالة هذه يفتح للارواح باب الامل الواسع ويحلهم بساحة الرجاء المنعش فيطلبون الحياة بما لديهم من الوسائل فان اكدت الوسائل طلبوها ولو بالتمنى ، واحتموا بذلك من اليأس الذى هو طاعون الهمم ، وسرطان الشعوب والامم ، ولو لم يكن فى حلولنا لهذه الشبه الا الالمام بشيء من اسرار الحياة لكفى به نتيجة عظيمة

﴿ حلول الشبه المتقدمة ﴾

﴿ تمهيد ﴾

لو اردنا ان نعالج كل هذه الشبه التى سردناها واحدة بعد أخرى لطال بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارئ مع قلمنا مذاهب بعيدة يصعب معها اشرافه

على مجموع المقال ، ويتعذر عليه الاحاطة باطرافه من أول جولة فتضيع الثمرة التي نقصدها بالذات من اشباع القول في هذا البحث . لهذا رأينا ان نحدد ميدان المناقشة في دائرة محصورة يستطيع القارئ ان يلم بمحيطها من اول نظرة ويدرك لها مركزا معلوما ؛ ولا حرج علينا بعد ذلك ان مددنا انصاف اقطارها الى حيث يقتضيه مناخطر الموضوع ، فانه مادام واقفاً في مركز الدائرة يمكنه ان يتتبع خطوات القلم الى حيث يشطح ثم يعود بنفسه الى النقطة التي خرج منها ليتجه منها حيث اراد بدون ان يخشى الشرود عن جوهر الموضوع .

هذه الدائرة التي نقول عنها هي عبارة عن بسط مقدمات اولية اساسية صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالحدود المرسومة للبناء ، لانرى بدا من اقامتها ومن الله نستمد القوة والحول :

﴿ دستور الكائنات ودستور الانسان ﴾

لكل كائن في عالم الكون دستور يسير على موجبه في حياته ، وترتد اليه سائر محاولاته ، حتى ان الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بها ملائم لاحوالها وان كانت لاتتمتع من خصائص الادراك والتمييز بما يشعرها به ويهديها اليه وليس دستوراهما الا النواميس الطبيعية المسلطة على كيانهما حتى انك لو كلفت شخصا من اشخاص الجمادات او النباتات بما لاينطبق على تلك النواميس اى على دستوره الخاص لقاومك واعياك ، فاما ان تقلع عنه واما ان يذهب فقيد هواك . فاما الحيوانات الحاصلة من الحياة على قسط اكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها أوسع مجالا ، وابعد اختصاصاً وأنأى مرامي واغراضا ، ولكنه مهما اتسعت مجالاته ، وتشعبت اختصاصاته فلا تتعدى مراميه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدانية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد مهما ارتقى وتهذب لان ترمي لما وراء حسها بأى وجه من الوجوه

اما الانسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لاتقف به عند المطالب الطينية ، بل تتعداها الى باحات أخرى معنوية لايحددها له الوهم بحد ، ولا ينتهي منه تصوره الى غاية . وكلما ارتقى في الفكر والشعور درجة اتسعت امامه تلك الباحات المعنوية درجات

كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة اليها حتى انه قد يصل من الالتذاذ بالمعاني لدرجة يضحى معها الماديات في سبيلها ويكتفى من بواعث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغا لتلك المطالب العالية وجريا وراء أمانيه منها. وقد شوهد من احوال الانبياء انهم مع سمو مناصبهم ، واستطاعتهم للتنم بالماديات فوق مايستطيعه الملوك والقادة لتسلطهم على أرواح الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز بلقيمات تقيم صلبهم ، ويلتفتون من عالم القدس وانوار الجمال الالهي لما هو اكبر من الدنيا وما فيها في نظرهم. واعظم مثال نقدمه لقرائنا حال سيدالانام محمدصلى اللهعليهوسلم فقد كان من السلطان على رعيته فى درجة لم ينلهاعشاق الملك ومؤسسو الممالك بحيث ان كل واحد من اتباعه كان يهون عليه ان يفديه بنفسه وأهله وماله ، ومع ذلك فقد ابت نفسه الشريفة كل ذلك النعيم الفانى ولم يصب من حاجيات بدنه الا مايقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحانى الذى كان يشعر به مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار اصحابهوعظماءتابعيه فى كل الاجيال على ان منهم من تبعه في هذه الخطة الشريفة فانغمر مما يتوق اليه في بحر من الفيض الالهى لو وضعت الدنيا بلذائذها فى صدفة من اصدافه لما وازنت اصغر درة من درره المعنوية الكريمة .

ثم ان تاريخ النوع البشري ليدل دلالة صريحة لاسيما لواستقرينا أحوال الامم المرتقية منه على ان دستور الانسان في حياته ، الذي يسيطر على سائر حركاته وسكناته هو غير دستور العالم الحيواني ولا هو ترق منه

الحيوان لاهم له الا خدمة الجسد ، واداء مطالب البدن يعيش ويموت أسيره وخادمه ، والانسان على الضد منه ، له مرام أبعد مدى ، واغراض اشرف مقصداً ، وهو طلب كمال يشعر به في صميم ذاته ، ويتضرم لاجله في لباب كيانه ، وان لم يستطع ان يصوره بصورة ، او يقف منه وهمه على كيفية

ثم خلق الانسان مغرما بالكمال ، ولهان به فى كل حال .... فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسالم ، ولا ينقض ولا يبرم ، بل ولا يماكر ولا يداجي ، ولا يدلس ولا يحاجي ، وان شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل الا وفى قلبه نار

تدفعه لطلب الكمال ، وتزعه عن الوقوف فى الأوحال وان غلط فى اختيار الوسائل ، وارتكس بجهله الى اخس المنازل

طلب الكمال صفة من صفات الروح الانسانى ، ولازم من لوازم تركيبه الروحاني بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والاميال والقوى التي ركبت في هذا الفؤاد الخفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ماتعرفه من حال الانسان فى جهله وعمايته ، وما تسمعه من غيه وضلته، وما اكسبته له التربية الرديئة من الصفات الحيوانية، والاميال السفلية ، كالايغال فى المآثم ، والانغماس فى اقذار الجرائم ، وارجاس الذمائم ، وانظر اليه بشراً سوياً خالصاً من مؤثرات التربية المعوجة والوسط المفسد ، طاهراً من شوب التقليد والوراثات . تر كائناً اعطى من القوى والمواهب ، ومنح من الملكات والبواعث ، ما لايدخل فى حسبان حاسب ، ولا يحصر فى ابحاث باحث . ماذا ترى ؟ ترى ادراكا لاتعجزه حقيقة ، وعقلا لا تكله معضلة ، وفكرا لا ترتد تموجاته دون غاية ، وتصوراً لا تنتهى قواه عندنهاية، وخيالا ليس لمراميه دائرة تنحصر فيها ، وأميالا لاتنتهى لها مطالب . وقوى لا تعييها الرغائب ، وهو مع كل هذه العطايا فى عالم لاتنتهى عجائبه ولا تفنى غرائبه ، ولا تنضب مادة آياته ، ولا تغيض أسرار مدهشاته .

تأمل فى هذا الكائن المتمتع بهذه المواهب ثم قل لي اى مطلب يليق ان يتخذه له غاية في حياته، وأي مرمى يصح ان يجعله عرض محاولاته ، وانشودة ملكاته ؟ قلنا دع ما تعلمه من حالة الانسان فى الفساد والدنايا جانبا وقل لى بعدها أي طلبة تليق ان تكون مرمى هذه الخلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا التركيب البديع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ، ولائق بهذه المنح والنحائز ؟

ثم خلق الانسان وكل مافيه يسوقه ويحزه لطلب الكمال والجمال، بل ويهيئه ويدفعه فى سبيله دفع الجوع للجوعان ، ويسوقه سوق الظمأ للظمآن ! ولكن اين هو والاهواء متغلبة والشهوات متألبة والعوامل التى سلطها على نفسه لم تدع له اختياراً

اى قلب لايتفتت كمدا وحسرة ، وأى حشاشة لاتذوب أسفاوحزنا،اذا علم الانسان

من حال بني نوعه واستعدادهم لأسمي منصات الكمال ، ما اتينا على طرف منه ، وانهم قد وهبوا من الملكات والقوى ما يدفعهم اليه دفعاً ، ويهيئهم له تهيئا ثم يري ان اكثر هذا النوع المكرم قد شاكل البهائم في شرهها ونهمها ، وضارع الوحوش في ضلالها وجهلها ، واشبه الضياغم في ضراوتها وقسوتها ، وحاكى الشياطين في حيلها وخدعها ؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى والملكات عكسا سقط بهم دون عالم الحيوان، فروجوا بينهم ذمائم الصفات ، وخسائس الاخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم واحوالهم ، ورتبوا على أصولها قوانينهم وشرائعهم ، وحبسوا انفسهم بذلك في مضيق لا يليق بكمالهم ، ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذي كان يلم بفكر المصلح الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم فيجعله دائم الحسرة طويل الفكرة ، أسفاً على ما آل اليه امر هذا النوع الكريم وقد كان هذا الاسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى ان مبدعه جل وعز خاطبه على لسان الروح الامين قائلا : « فلعلك باخع نفسك (اي مهلكها) على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . فرجع عليه الصلاة والسلام الى هذا الادب الالهي وعلم ان تلك حكمة بالغة ، وابداع لا يعلمه الا هو . فهو وحده المصرف للامور . العليم بصيور الشؤون ، واعقاب الاحوال سبحانه لا معقب لحكمه.

انظر الى هذه الفطرة الانسانية الكريمة والى ما متعت به من قوى ومواهب والى ما تليق له من عاليات المراتب ، وساميات المناصب ، لو أسلمت وجهها الى الله أي لو تخلصت من شائبات التربية المفسدة، وحررت من مؤثرات العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات الى غير ما خلقت له من الكمال والاعتدال . ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التي تحجب عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجمالها الباهر ، وتأمل كما ينبغي ان تتأمل في تلك الغياهب الشيطانية التي تحول بين المرء وقلبه ، وتهبط به عن أوج مجده، واشكر الله على ان هداك للاسلام، وأقامك على منهاجه، وهل الاسلام الا اسلام الوجه الى الله وخلع كل الوراثات والعقائد والمدركات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والقيام على صراط الاحسان في القول والعمل على ما يقتضيه قانون الخلقة

وناموس الحياة « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن »

اذا تأملت فيما قلناه ورأيت انك بينما ترى الانسان نوراً صرفاً وجمالا خالصاً وكمالا بحتاً اذا هو بعدم اسلامه اي بعدم اسلام وجهه لله ظلمة متكاثفة وقذراً محضاً ونقصاً يسفل فيه عن أخس الحيوان ، اذا تأملت في هذا وتعجبت منه ، فان أعجب منه بما لا يقدر ان الحد الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة واحدة قد تحل بصميم فؤاده فتمتلك سائر قواه فتوجهها الى مصاعد الكرامة ، ومعارج الجلالة ، فيعرج على اجنحتها الى الغايات القدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ، وقد تخلى عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوى به الى اسفل من دركات الحيوانية ، ويغمره من عالم النقص الى اخس المنازل ، ويتركه من مداحض الاهواء فى هوة ليس لها آخر :

هذه العقيدة هى الايمان بالعالم الروحانى واليك البيان :

الناس امام هذه العقيدة

الناس بازاء الاعتقاد بالعالم الروحاني ثلاثة اصناف : صنف يعتقدها اعتقاداً ذوقياً فوق اقراره بها اقراراً برهانياً ، بمعنى انه لم يكتف باقامة الادلة على حقيتها وجعل دينه مجرد حفظ تلك البراهين والثرثرة بها كتابة وقولا فقط ، بل صدقها بالحجة والبرهان ، وعمل بما تقتضيه من الاركان فذاقها ذوقاً ذاتياً فانتجت فيه ثمراتها النورانية فسطعت في اعماق ضميره واقصى ثنيات فؤاده . ورجل لم يعتقدها ولم يصح لديه برهان على حقيتها فكشطها من ذاكرته ، ولم يعد يخطرها بباله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبن اموره على اصولها .

ورجل ثالث يعتقدها بالوراثة عن آبائه وأجداده فاكتفى منها بمجرد وهمه بانه واحد من حملة أماناتها ، وفرد من الامة التى كانت تحمل علمها ، وتستضيء بمصباحها

لاجرم ان لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستوراً خاصاً فى الحياة يلائم مكانه من هذه العقيدة لا بد لنا من الالماع الى طرف منه تمهيداً لحل كل تلك الشبه المتقدمة لارتباطها بهذا الموضوع تمام الارتباط

حال المعتقد بالعالم الروحانى

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به فى الدائرة التى تحددها له حواسه . أي لم يقصر عوالم الكون على محض ماتبصره عينه الكليلة . وما تلمسه يده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعه وذوقه ؛ وعز عليه ان يكون من الجمود والغلظ بحيث يجزم بأن هذا الوجود الذي لانهاية له لايشتمل الا عليه وعلى ما يمكن ان يحسه فقط ؛ وانف تصوره ان يحكم على نفسه بأنه والحيوانات في مستوى واحد لايمتاز عنهم في شيء مطلقا كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعي ؛ وابى فكره الطموح الجوال ان يزعم ان هذه الطبيعية المدهشة لايصرفها ويحركها الا نواميس طبيعية محدودة لاعلم لها ولا اختيار ولا ارادة . وان كل هذه البدائع المحيطة بها من كل جانب ليست الا مقتضيات تلك النواميس ونتائجها ؛ وتعاصي عقله ان يقبل تلك التعليلات الطبيعية التى جاءه بها اولئك الذين ذهبت بصائرهم ، وطمست أفئدتهم لعلمه بأنها ثمرة الفكر ولا يخفاه كلالة حده . وبعجزه عن ادراك كنه الذرة البسيطة فضلا عن الاحاطة بالكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر

علم صاحبنا كل هذا ثم نظر الى تاريخ النوع الانسانى نظرة فرآى ان العقيدة بالعالم الروحانى قديمة وعامة فى سائر الامم فصعب عليه ان يزعم ان النوع الانسانى عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموساً في بحار الخيال . ووآهما فى اكبر مسئلة تعنيه وتهمه ثم ألقى بنظرة اخرى على تاريخ الانسان ومر على احوال اولئك الرجال العظام الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب في سائر الاجيال من لدن القدم لليوم ، واحدثوا اكبر الحوادث الاجتماعية وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فرآهم كلهم مجمعين على وجود عالم روحانى فوق هذا العالم الجسداني ، ودعوا الى الاعتقاد به كافة الناس فاحدثوا بهذه العقيدة اعظم القوارع الادبية التي كان ولم يزل لها اكبر اثر فى حال الانسان واخلاقه. فرآى ان مجرد حال أولئك الانبياء والرسل ان لم يكن هو وحده ادل الادلة على وجود ذلك العالم فلا اقل من انه يستلفت اليه النظر ،ويوجه عليه الفكر ، ويميل بالعقل الى ترجيح وجوده ويحبب اليه المتاع بشهوده .

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ثم عاد الى نفسه فرأى ان الحياة الارضية دار آلام واحزان وقرارة اكدار واشجان ومحلة بلايا وارزاء، تارة في النفس والمال وأخرى في الاخوان والآل. وان حوادثها سلسلة من ادوار واطوار، لا تنتهي حلقة منها حتى تبتدي حلقة أخرى. والانسان بين تلك الحلقات في حرب عوان وضراب وطعان ضد نفسه واهله وبني بلده واخوان وطنه وعموم نوعه، وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها وهو من معمعان هذه المعركة الدائمة في تيار يجري به الى حيث يجهل، ويجول به في كل جدول. يجتهد ليقف لحظة او يرتاح هنيهة فيرى ان في وقوفه الهلاك المعجل والشقاء المسجل فلا يسعه الا الاستسلام لدفع ذلك التيار فلا يزال يقذف به من جانب الى جانب حتى ينتهي به الى غاية حياته او يصدمه في احدى جمحاته صدمة توقف حركاته. ربما يكون هذا الرجل في اثناء دورانه هذا قد جاء باولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه وصار حظهم من الحياة لا يفترق عن حظه وكثيرا ما تمزقوا امام عينيه فيكون المه مضاعفاً وحزنه وأساه ليس يسهل على الواصف.

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال فتحقق ان الحياة على هذه الصفة عبئاً ثقيلا. بل بلاء وبيلا وشراً مهولا يجدر بالانسان معها ان يحسد الفارة في وكرها. والنملة في مسكنها. والحمامة في عشها. بل والحجارة في جبلها. والرمال في سهلها. وبينما هو يفكر في هذا الشأن وييئس من حالته ويجأر الى قيوم الوجود ليهديه في حيرته، وينعشه من وهدته، اذا بصوت جهوري يرن له من أعماق قلبه. ويصعد اليه من لباب معناه تالياً عليه قوله تعالى: «انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا» فعلم عندها انه مستودع أمانة جليلة. وحامل سر عظيم؛ فهم يتعرف تلك الامانة ويدرك معنى ذلك السر ولكن اين العرفاء اين الادلاء اين المرشدون؟ اين الهادون الخبيرون اين الحكماء الروحانيون؟ فبينما هو يجأر الى الله بهذا القلب المنكسر واللب المنذعر واذا بصوت كالاول صعد اليه من غيابة سره تالياً عليه قوله عز وجل «الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس» فرمي بنفسه بين يدي اؤلئك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام رجاء ان يأخذوا بيده ليوقفوه من هذا الدوران

الهائل، وينقذوه من أسر هذه الحلقات الموبقة ، ولكن من الذي يقصدمنهم وهم كثيرون، ومن الذي يستمد من روحه وأكثر تعاليمهم قد حرفها المحرفون ، وبدلها المبدلون ، فانه ليموج في متاهة هذه الحيرة واذا بالهام يذكره بهذه الآيات . « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » « ان هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم » وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » فلم يسعه بعد ان ظهر له وجه الخلاص ، وتراءت له سفينة النجاة الا ان يعتصم بها من هول ذلك التيار الجارف ، ولكن هيهات كيف الوصول الى سلم السفينة وهو من موج احواله في هبوط وصعود ، ومن ثورتها في اضطراب يضيع الرشد والحيل ، ويغرى باليأس عن بلوغ الامل ، فبينما هو على مهواة القنوط واذا بذاكرته مرت به على هذه الآية « قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » فعلم انه لن يحرم من معونة مبدعه الذى خلقه ووعده بالهداية، وصوره على هذا الابداع وحاطه بحسن الرعاية ، فلم يزل يأخذ نفسه بادب القرآن ، ويستمد نور طه عليه الصلاة والسلام حتى هدأت تلك الزعازع ، وركدت هاتيك الزواجر ، وقد كان يظنها لا تهدأ . ثم منحه الله كرامة السكينة فى فؤاده بعد ذلك الجيشان الابليسى ، والسكينة مشرق النور الالهي ، ومهبط السر القدسي ، ومهب نسمات الطمأنينة والراحة « هو الذي أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » فازداد حبا فى التأدب بآداب النبي الاعظم وتشبثا بتعاليمه صلى الله عليه وسلم فنال على قدر ذلك قربا من الحق الاقدم، وتمتعا بشهود الجمال الاقدس، وبصرا بنور الخالق، وشعورا بلذة الرضا والاستسلام والتذاذا بذلة العبودية، وهياما بما يتطرف فى العوالم التي تلي هذا العالم « يهدى الله لنوره من يشاء » واكتسب ثباتا في قوله وفعله، ورزانة في فكره ونظره، وزايلته تلك الحمى الشيطانية التي كانت تدفعه وراء المطالب الكاذبة، وتستعبده للكمالات الوهمية الكاسدة، وارتفع عنه ذلك الطيش الحيواني ، والنزق الجنونى ، والخرق الشهوانى الذى كان يلعب به لعب الطفل بالكرة ، ويستطيره استطارة الريح للريشة ، فكان من الذين قال خالقهم فيهم « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . الآية » ثم كان من أثر تلك الحالة الكاملة عليه ان افتتح له من قبل عالم الجلال

والجمال نافذة علية يصل اليه منها نور يغمر فؤاده ، ويحميه من غاشيات الفتن المادية ، ومفسدات المطالب الجسدية ويحجب عنه أفاعيل الشياطين التي لا تفتأ تناصب الانسان العداوة والجفاء ، وتنصب له اشراك المكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم في حالة تغبطه عليها الاملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحانية العلوية والسفلية ، وتخضع له نواميس العوالم المعنوية والمادية مما لها نسبة بحالته البشرية

هذا هو الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني اعتقاداً ذاتياً ، ويعمل بمقتضياته عملاً حقيقياً ، ولم يكتف بالثرثرة به لفظياً ، فهو يعيش عيشة مباركة طيبة حاصلاً على سعادتيه ، وفرحاً بكمال حالتيه « ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون »

اثره في الوجود

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم ينتعش فؤادهم بسبحات نورها سواء كانوا من المنتسبين اليها او من اضدادها بانها تغض من طرف الانسان عن الاحتفال بالعالم الفاني وتثبط من حركته عن الرقي في مجال الكمال الصوري الجسداني وهو زعم لا أساس له من الواقع . وما يروى من ذلك عن بعض الانبياء فان صح كان ذلك خاصاً بزمانهم لحكمة يعلمها الله تعالى وهو امر لا يبنى عليه حكم فان تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام عامة وتاريخ امامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على ان اكبر الحوادث الاجتماعية التي بعثت الى الكمالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبواسطتهم . على اني لا اعني بالكمالات الصورية والترقيات المادية تلوين الاواني وتزويق الالبسة والتفنن في صنوف المآكل والمشارب واقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن في الزينة والخلاعة كل مذهب . كل هذه الافراطات يجدر ان تسمى نفثات شيطانية ونزعات حيوانية لا كمالات انسانية ، وانما أعني بالرقي المادي التمتع بالمزايا العظيمة التي خلقها الله لنا في الطبيعة وصرف القدر الواجب من قوانا في تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل ، ولا يعدو على الشرف والعرض ، ولا يصرف الانسان عن الجمال الباقي الى الوهم الفاني « قل من حرم

زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

اذا عجبت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد فى الدنيا مع هذا السعي فيها ، قلنا :

الرجل الذى يعتقد بالعالم الروحاني يعلم تبعاً لذلك انه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ، وخليفة الله عز وجل فى أرضه ، وانه قد منح من القوى المختلفة ذات القابليات العجيبة ، ما لا يحصره وصف الواصف ، أريد من هذا انه كلما ازداد تنوراً بعالم الروح ، واستشرافاً لانواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛ ويرى بالحس ان تلك القوى لم تخلق فيه عبثاً ، ولم توضع فى ثنيات فؤاده جزافاً ، بل خلقت لاغراض يجب ان تسعى اليها ، ومرام لا تنفك تتطلع لها ؛ فيكون الذى يعتقد بالعالم الروحانى والحالة هذه مجبراً على اعمالها فيما خلقت له ، مسوقاً الى توجيهها الى مراميها التي طبعت عليها ، عملا بشروط خلافة الله في ارضه ، وقياماً على صراط العدل الذي هو طريق حياته ونجاته وبناء على هذا فيكون دأبه على اعمال قواه واستخدام مواهبه على النحو الذى صوره عليه مبدعه بقدر شغفه بكمال ذاته ، وكلفه بالصعود بها الى العوالم التي يتوق اليها ، لانه يعلم انه لا كمال الا بأدائها ، ولا صعود الا بالنهوض باعبائها .

هذا سر تلك الهمم العلية ، والعزمات القوية ، التي تسوق أصحاب العقائد الحقة الى جلائل الاعمال في هذا العالم الارضي مع زهدهم وتفاهة الطينيات في نظرهم

الرجل من هؤلاء لا يستثمر الطبيعة لينال منها لذة ، او يصيب منها وطراً : فان ما يشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للدنيا وما فيها ، ولكنه يستثمر الطبيعة لكونه يعتقد انه آلة من آلات الحياة ، ينشرها حيث يصل اليه امكانه ؛ وانه شعاع من نور الكمال خلق ليكشف الغمم ويقشع الغياهب ، وانه عامل من عوامل الحق ارسل ليقارع الباطل حيث كان وأنى وجد .

أنا لا أدعي ان جميع افراد الامم ذوات العقائد الحقة هم على هذا النمط من الكمال وانما هذه الحال مخصوصة بافراد من تلك الامم يعدل الواحد منهم الالوف المؤلفة ممن ليسوا على شاكلته . فاذا كان منهم مائة فى أمة عظيمة فان اراداتهم القوية تستولي على مجموع ارادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم الى حيث يريدون ويصبغونهم بنفس

صبغتهم ولو تقليدياً وليس هذا بعجيب بل أثر من آثار قانون الموازنة ألا ترى ان من كان جسمه اقوى كان جذبه لمن هو دونه مناسباً لتلك القوة ? كذلك من كانت روحه اقوى جذب من هو اضعف منه لا محالة وحركه بحركته . ومن هنا ساغ لنا ان نقول ان روح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم اقوى الارواح التى ظهرت في العالم لتأثيرها في الارواح المحيطة بها تأثيراً لم يمهد له مثيل في تاريخ الانسان

حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني

حاله على الضد من سابقه بمعنى انه وقف من وجوده في الدائرة التي حددتها له حواسه وقصر الكون كله على ما تبصره عينه وتلمسه يده ويتأثر به ذوقه وسمعه وشمه.

بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحس بهما بواحدة من تلك الحواس فانكر وجودهما ، وأراد ان يعلل وجوده ووجود الكائنات على غير الطريقة الاعتقادية فاخترع اسماء انتزعها من حال الموجودات وعلائقها ببعضها وسماها نواميس طبيعية وزعم أنها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم انها هي التي ابتدعت كل هذا الابداع الباهر في ملايين لا تحصى من السنين ، وان ليس الكون وما فيه الا سلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدنياوات فتعمل فيها النواميس المتسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية . ثم تلبث ما قدر لها ان تلبث ثم تتلاشى وتتحطم بمصادمة كوكب آخر لها او بسبب آخر وهكذا الحال ابد الآبدين ودهر الداهرين . . . .

ولكن كيف العمل وهو من ادوار الحياة مسوقاً بنفس التيار الذي كان يسوق صاحبنا المعتقد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحال التي وصفناها هنالك ! ويزيد عليها امر افظع عليه من كل ما سبق وهو اليأس من الخلاص !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولو اعج الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهند المصقول ، ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أهله واخوانه وبنى نوعه . ثم لا يرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل ان له منه معزياً ، ولا يتوهم ان وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، ويلتذ بانتظاره وتمنيه !

ينظر الى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو الى مقذوفات البلايا تهوى بالارائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت الى ما بين يديه وخلفه فيرى صرعى هذا العالم الفاني يستثيرون الذعر من أعماق الصدور ويستجيشون الخوف من الفؤاد الصخر ؛ ثم يلتفت الى نفسه فيراها فضلا عمـا هي عليه من الحال المقيم المقعد ، هدفاً لقارعة تذهب بأنفاسه ، وتزجه الى شق من الارض لا يقيم بعده رأساً ، ولا يحير جواباً ، تتسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الامر محيصاً ولا مفراً ، ولا يتصور دونه منجاة ولا مستقراً ، فكيف تكون الظلمة التي تلم بفؤاده والألم الذي يحل بممناه ، والكمد الذي يستولى على لبه ، والنكد الذي يخيم على كيانه ؟

لاجرم ان كل هذه الأمور المزعجـة تدفعه رغم انفه لطلب المخلص في العالم المادي وتدفعه في ذلك السبيل دفعا قهريا فيتجه بمجموع قواه الى الماديات لتحسين حياته اتجاها جنونيا ، لا التفاتا كماليا ، فينال منها شأوا لا يستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ذلك لأن الله سبحانه خلق الانسان وقذف به الى الأرض وركب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما فوق ذلك من تسخير القوى الروحانيه ايضاً او بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو ان طلب الدين وحده ناله وان طلب الدين والدنيا معا حصلها ووجد من قواه ما يساعده على ذلك ، وان لم يرد الا الدنيا وحدها بلغ مناه منها فان منح الله معروضة لكل من طلب كما قال سبحانه : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . »

أثره في الحياة

تصنع ساعة من الساعات حال الذي يئس من وجود الآخرة ، وهب انك ممن لا يرى في الوجود الا ما يحسه بمشاعره القاصرة ، وادفع بنفسك في معمعان الحياة وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذي يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق وتخيل مضاضة تلك اللحظة التي تخمد فيها الحس والشعور ، ويدس فيها الانسان الى اعماق

القبور ، بعد سكنى القصور ، تاركا مالا جمعه بعد طول التعب ، وافلاذ كبد رباهم بالجهد والنصب ، واخوانا شاطرهم الحزن والطرب ، ومعاهد اوطار نال فيها الأرب . . . فانا تصنع ان تكون فى هذه الحالة الحرجة ساعة من الساعات ثم انظر ما يلم بفوآدك من الم ووجع ، وما يحيط بمعناك من ظلمة وكرب ، ولكن لا تعجل بالخلاص مما أوقعت نفسك فيه بل انتظر قليلا ، وتأمل فى ثورة عواطفك تأملا طويلا . تر أن اليأس الذي خيم بفوآدك استحال الى حمى تدفعك لتتلمس عن الآخرة عوضا . وتزعجك لترتاد عن الخلود بدلا . وتراك اندفعت اندفاعا قهريا لأن تحصل من لذائذ هذا العالم اقصى ما يصل اليه الأمكان وابعد ما يناله الجهد والعرفان . تراك تستسهل خوض الصعاب والعقاب . وتستهين اقتحام المخاوف والأخطار . جريا وراء المطالب الكبار . والرغائب الجسام . ولسان حالك يقول :

(واذا لم يكن من الموت بد ٭ فمن العجز ان تكون جبانا)

وترى ان هذا اليأس نفسه قد البسك نفس الصفات التي تكسبها العقيدة للمعتقد من حيث الجد لاستثمار الطبيعة ولكن مع هذا الفارق الجسيم : وهو ان صفات المعتقد يكون سائقها اداء واجبات خلافة الله ، وتتميم نظام الوجود في اكمل معناه ، وتجليته فى عالم الامكان باجمل مجلاه ، والجري وراء الكمال الروحي باستعمال سائر قواه فيما خلقت له ؛ فيكون بذلك ساكن الفوآد ، مطمئن الجاش ، هادىء الضمير ، غير مصاب بحمى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصاً من نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجيا من وخزات الشهوات وطعنات الاهواء ، واما غير المعتقد فيكون مسوقا الى العمل والاقدام باغراض سافلة ، ومحفوزا الى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر الا فى ايتاء جسده غاية لذاته ، واقصى امنياته ، فيلازمه الشره اينما سار ، وينغصه النهم حيثما دار ، يطلب فلا يهجع ، ويأخذ فلا يشبع ، له فى كل نظرة وخزة من شهوة ، وفى كل لمحة طعنة من رغبة ، يريد ان يحصل ما يؤمله ، فان ناله كان نيله سبباً لزيادة همه وتفاقم غمه

من هنا ترى انه ليس بعجيب ان ينال غير المعتقدين مدنية زاهرة ، وحضارة باهرة ولكن لا تنس ان بواعثها هو ما اصف لك ولذلك لا ترى فيها نصيبا للروح . ولا قسطا لكرائم العواطف . ترى ان الحق فيها مع القوة . والحكم للسيف والفتوة ؛ الضعفاء

فيها اسرى الاغنياء ، وعبيد الاقوياء ، يستغيثون فلا يغاثون ، ويجأرون فلا يجابون ، ويتعصبون فينهزمون ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلك الا العمل بمبادىء الفوضى : يترصدون لقتل الملوك ، ويعملون على ثل العروش ، وينابذون الأديان ، ويهزأون بالمعابد والكهان ، وينتظرون بالأمم الدوائر الجسام ، والخطوب العظام!

يشكو عقلاء هذه الامم من سوء الاحوال ، ومن ضياع العواطف الغوال ، ويذكرونهم بواجبات الكمال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يجيب ! القوم سكرى ، من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دن الشهوات والفتن ، فلا يفيقون حتى تنزل بهم القوارع تتلوها القوارع ، وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » والا فقد عرضوا أنفسهم لما حاق بالأولين من المكذبين : « فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم »

المعتقد بالوراثة

هو رجل وجد أبويه على ملة من المال فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ولم يعمل فيها فكراً بل قنع من الحياة ونعيم الوجود بما حصله له آباؤه من الرقي المادي فجعل هذا الميراث حظه من الدنيا ورام ان يبقى في يديه كما ورثه ثم ينتقل الى أولاده وأحفاده لا ينقص شيئاً فاشبه في ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجتزئ به غير طامع فى سواه ولم يدر ان حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه او انمائه حالة من الحالتين : اما عقيدة تعرفه انه هو وماله لله ، وان كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله . فيسعى له اقامة لامر الله . وردعاً عن مناهى الله . فيكون كالمسلمين الاولين حيث انصبت الى خزائنهم ماليات الامم بمحض قيامهم بخلافة الله . وأما ان يكون بلا عقيدة فيظن ان المال قوام الحياة ، وقيمة الانسان فى الوجود ، ودستور الامم والشعوب ، ومفتاح السعادة والنعيم ... فيسعى لطلبه بكل الوسائل والحيل كما هو حال اكثر أمم هذا العصر . هذان هما السبيلان لاستغلال المال واستبقائه . كما انهما السبيلان لايجاد كل مدنية واستمرارها . أما الذى هو لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فلا يصلح ان يكون مستقلا في نفسه لان الارض لاحد رجلين : اما رجل يعتقد

ان الارض لله فيأخذها صيانة لامانة الله وأداء لخلافتـه واما هي ارجل يعتقد انها جنته ومأواه . وليس له غيرها اله ، يتكالب عليها تكالب الضوارىَ على فرائسها . ويبذل في سبيلها كل ما يملك من حول ومن حيلة

أما صاحبنا الذي يعتقد بالوراثة فليس واحداً من هذين الرجلين : انه ليس بمعتقد لانه غير عامل بعقيدته ولا جاحد لانه مقر بقبح الجحود وبشاعته . فهو وسط بين الاثنين وليس له الا تحمل أحد النيرين : فأما ان يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيحيه بحياته . ويصرفه بحركته ؛ وأما ان يقع تحت ضرس غير المعتقد فيمزقه ثم يزدرده مع ما يزدرد .

ثم العقيدة بالوراثة ما لم يعززها الذوق الذاتي لاتفيد صاحبها في الدنيا شيئاً ولا أدري ماذا يكون نصيبه في الآخرة . لا تفيده في الدنيا لانه محروم من دافع العقيدة ودافع الجحود معاً . لان المعتقد له من شعوره بانه خليفة الله في الارض اكبر باعث على استغلال الطبيعة واحياء مواتها والذهاب في الابداع فيها كل مذهب . وتاريخ آبائنا الاولين اكبر شاهد ، وغير المعتقد له من يأسه من الآخرة اكبر سائق على التكالب على الدنيا والتمتع فيها بكل الوسائل الممكنة . أما الذي اكتفى من العقيدة بمحض تذكره ان أبويه كانا مؤمنين . فلا يحس بأثر دافع من ذينك الدافعين . فلا جرم لا يجد في نفسه لذة العقيدة ونورها الذي يضيء عليه مسالك الحياة . ولا حمى الجحود ويأسه الذي يسوقه لكل ما ينعمه في دنياه . وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة الا التمتع المؤقت بميراث آبائه فلا يلبث ان تغشاه غاشية من صولة الامم الطامحة فتجعله لقمة سائغة وتذهب به الى حيث ذهب الغافلون من كل الامم .

الفضائل والرذائل

قد أكثر الناس في هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين وجلوا بهما في كل مجال فنشأت بأزائها شبهة قوية في الدين يكثر ترددها على ألسنة المشككين . فيقولون مثلا : « انكم تدعون ان الفضائل قوام الامم وملاك الحياة . وان عدمها نذير التلاشي ومقدمة الدمار فما بالكم ترون الامم التي تزعمون انهم أحط منكم في الفضائل او انهم

مغمورون فى الرذائل قد سبقوكم الى باحات الرفعة والعظمة وأخضعوكم لنيرهم ؟ » ليس حل هذه الشبهة بالامر الهين الا اذا اسسناه على قاعدتها الطبيعية وذلك لا يتأتى الا بما قررناه آنفا من ان الناس ثلاثة أقسام قسم يعتقد بالعالم الروحانى ، وقسم لا يعتقد به ، وقسم يعتقده بالوراثة فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحليلات الفلسفية ان لكل من المعتقد وغير المعتقد دافعا يدفعه الى الرقى والتقدم ، وان رقى الاول يشمل الرقى الروحى والجسدى وأما الثانى فرقيه محدود فى عالم المادة فقط ، وقلنا ان المعتقد بالوراثة لا حظ له من أحد هذين الدافعين . وانه لا يليق الا أن يكون تبعا لاحد هذين الصنفين . والآن نقول ان ذلك الدافع القاهر الذى يدفع المعتقد للتقدم للامام هو (طلب الكمال) بمعناه الحقيقى . هذا الدافع هو مبدأه الذى يسير على مقتضاه ، ويجعله دستوره فى كل أمر من من أمور دنياه . وأما غير المعتقد الذى يرى نفسه مدفوعا لتكميل بدنه واشباع حواسه فمبدأه (تنازع الحياة) لانه لا يرى سعادته الا فى نيل أقصى مايستطيعه من المال والجاه فتراه ينازع الناس فيهما منازعة اليائس المستميت بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ودافع تنازع الحياة دافعان عظيمان للحياة ودستوران كبيران للبقاء فهما من هذه الجهة فضيلتان طبيعيتان ، ولكنهما لعالمين مختلفين . أما فضيلة طلب الكمال فهى فضيلة العالم الانسانى لانها تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره كما أريناك ذلك فى الفصول السابقة . وأما فضيلة تنازع الحياة فهى فضيلة العالم الحيوانى بأسره لانهم عائشون بهذا الدستور وهى بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ولا يصح أن نعبر عنها برذيلة الا باضافتها للنوع الانسانى لانها لاتليق به ولا تؤديه الى غايته التى خلق لاجلها . ومن هنا ترى ان للامم الخيار فى القيام على أحد هذين الدستورين لانها تحيا بكل منهما حياة طبيعية ولكن مع هذا الفارق الجسيم وهو ان الامة التى يكون مبدأها (طلب الكمال) تنال كمال الروح وكمال الجسد معا كما حصل لاتباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . وأما الامة التى يكون مبدأها تنازع الحياة فلا تنال الا كمال الجسد وحده كما قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون »

بيان طبيعة هذين المبدأين

مبدأ (طلب الكمال) الذى هو دستور المؤمن مرتكز مباشرة على الاعتقاد بأن الانسان جسد وروح . وان روحه هذه هبطت اليه من عالم التقديس والجمال لتبتلى فى الدنيا الى حين ، ولتتم بهذا التدلى ابداعا قدره الخالق لايعلم سره الا هو ، وانها بعد أداء وظيفتها فى العالم تعرج الى عالمها على جناح جهادها الحيوى الى حظائر النور الاقدس فى عالم فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هناك الى أرواح عالية سبقتها بالكمال والايمان فتبقى معها بقاء أبديا سرمديا فى نعيم مقيم ، وراحة لايشوبها ألم . ولا يخفى على الناظر ان هذا ارتقاء فى الشعور ارتفع به الانسان عن عالم الحيوان الذى لا حظ له من الوجود الا التكالب على أشباع كرشه وايفاء حاجة حواسه .

أما مبدأ الذى لايعتقد بعالم الروح فهو (تنازع الحياة) لا طلب الكمال . وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الانسان لم يخرج عن كونه أرقى الحيوانات ولا فرق بينه وبينها فى شىء على الاطلاق الا فى كونه أرقى منها عقلا وأوسع ادراكا وأقدر على استثمار الطبيعة بما وهب من الآلات الجسمانية : وانه ليس له من الحياة الا ماقدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة ، ثم اذا مات تحللت عناصره فى الارض وذهب كل عنصر الى مايشبهه من عناصرها ، وفنى عقله وادراكه وذهب الى هوة العدم كما تذهب الدجاجة والهرة سواء بسواء : وان الانسان لا مناص له من أن يكون مع معاشريه فى حرب مستمرة ينازعهم الحياة وينازعونه اياها والغلبة فى هذه الحرب تابعة للقوة العضلية والفكرية . فمن كان أقوى يداً وعقلا كان أحق بثمرة الحياة دون غيره أما الضعيف فى الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المعيشة الا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعد ذلك ان سئم الحياة وأرسل نفسه الى عالم العدم . أما الصفات المحمودة والخصال الشريفة فليست مطلوبة الا لما تجر اليه من المنافع المادية والادبية فى دائرة هذه الحياة وحدها .

أصحاب هذا المبدأ لايوجبون البشاشة مثلا لكونها خلة من خلال الكمال التى لايشاكل بها الانسان سكان عالم التقديس وتهيئه لجوارهم متى فارقت روحه الجسد ، ولكنهم يوجبونها

استجلابا لرضى المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدراراً للربح منهم ومزاحمة لمن يؤدى مثل وظائفهم .

وبناء على هذا فالفضائل والرذائل لدى أصحاب هذا المبدأ دائرة حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيوانى تقوم عليه طوائفه برمتها . ولها العذر فى ذلك فانها محدودة القوى والمواهب محصورة العقول والملكات ، لا تشعر بغير ما تحس به ولا تخيل مرمى وراء ما تنظره . أما الانسان الذى لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهى تصوره عند غاية . فأشد ما يظلم به نفسه أن يحشرها الى أدنى من عالمها . ويسلبها أشرف خصائصها .

هذا المبدأ الحيوانى أى مبدأ (تنازع البقاء) يصلح لاقامة أمر الطوائف الانسانية ، بل ويبعثها للرقى والفلاح فى السعادة الجسدية ، لانه لم يخرج عن كونه مبدأ طبيعيا تقوم به أشخاص لا يحصى لهم عدد من الكائنات الحيوانية ، ولكن فيه غبن فاحش على الانسان ، لانه بقيامه على هذا المبدأ لا يحصل الا الحياة الدنيا ثم لا يزايله الهم والكدر طرفة عين ، ولا يدعه الكمد والوحشة يطمئن الى شىء ، وكثرة المنتحرين فى الامم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس على ما نقول .

أما مبدأ (طلب الكمال) فهو المبدأ الكامل الذى يليق بالانسان ويجدر به لانه يكسبه الحياتين معا كسبا طبيعيا لان الكمال فى ذاته الغاية القصوى التى ينتهى اليها كل شىء ويخضع لها كل شىء . فما من شىء الا وله كمال خاص خلق مسوقا اليه فاما أن يحصله فيعيش على اكمل صفة من وجوده الخاص ، واما أن تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط فى كيانه حتى يلفظه الوجود الى تيهور العدم . ولما كان الانسان أكمل الكائنات وجب أن يكون كماله أكمل الكمالات ، فلا جرم انه متى تكمل امتلك سر نواميس الكائنات التى فى عالمه فتخضع له خضوعا اضطراريا ، فتأتيه الدنيا بحذافيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بين يديه ، ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نهض هو وأصحابه يؤدون واجب الطاعة لله فى طلب الكمال خضع لهم كل شىء وخافهم كل شىء ، وانحدرت اليهم سائر خيرات الارض انحداراً لم ير مثله فى تاريخ الفاتحين . فانظر كيف أنهم قاموا لمحض طلب الآخرة ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والاعجب من ذلك أنها هربت اليهم من أولئك الشعوب

الذين كانوا يعبدونها ويسجدون لها ، ولا يعرفون لهم كمالا سواها ، ورضيت أن تكون الخادمة الخاضعة لاولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ولا يحفلون بالنظر اليها في حسنها وبهائها .

أما تلك الامم التي تجعل مباديها في الحياة كمبادئ الحيوانات العجماء فلا يكون لها حظ الا في الحياة الدنيا ولا تكاد تنالها الا باتخاذها الهاً من دون الله ، وصنما لا ترى لها ملجأ سواه ، وناهيك بما في هذا من الاذلال لتلك الجبهة الانسانية الشماء التي لم تخلق الا لتحاذي السماء .

أما لو علم الناس أن مفتاح السعادة الحقة هو طلب الكمال وان سبيله سبيل الله لما أذلوا أنفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم أفئدتهم فنالوا سعادتي الحياتين معاً ، والى هذا السر العمراني الكبير يشير الله تعالى بقوله . « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . »

﴿ المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة ﴾

الاسلام دين الله وهو الحقيقة المطلقة التي استودعها من عهد نشأة الانسان قلوب سائر الانبياء والرسل الكرام « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الخ الآية » ولكن كانت أيدي تلك الامم الجائرة تمتد الى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء أن يطبقوها على ما يناسب مقتضيات النقص الذي هم فيه ، ودام هذا الحال آمادا حتى اقتضت الحكمة الالهية ايداع هذا السر الاقدس لخاتم أنبيائه ونخبة أصفيائه محمد صلى الله عليه وسلم في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد حماه الله من امتداد الايدي المحرفة اليه ، وصانه من عدوان العادين عليه ، وهو الى اليوم كما أنزل يقيم الحجة على الغالي والمقصر . ويبشر المعتدل وينذر المعذر ، ويشير الى الطريق الذي لا يضل سالكه ولا يخاف طارقه ، وهو طريق العدل المستقيم « وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

الغرض الاصلي من الاسلام تخليص الانسان من قذر التربية الفاسدة ، وأثر الوسط

الردىء ، ووضر الوراثات الساقطة التى تلم بمجموعها بفؤادالانسان فتحرمه من سبحات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذى دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذى يقول عنه عز وجل : « انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً . » هـذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال ، هو سبيل الرحمة ، هو سبيل الهدى ، وان شئت التعبير باللهجة الجديدة فقل هو سبيل التقدم ، هو سبيل التمدين ، وهو السبيل الذى ساره خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم بوحى من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وساره أصحابه من بعده فأصبحوا ملوك الارض وملوك السماء .

أنا لا أريد بالمدنية الاسلامية والمدنية الحديثة مبلغ الرقى الصناعى فى كليهما ، لا ولكنى أريد الروح التى ساقت اليهما وأقامتهما على قطبيهما . والسبب الذى يحملنى أفضل روح الاولى على روح الثانية ، هو لكون تلك مبـدأها طلب الكمال بأخص معانيه وهو المبدأ الجدير بالانسان ، المناسب لما وهب من المنح الجسام . لدفعه الانسان الى طريق الحق والعدل واكسابه حظ الحياتين معا ، أما هذه (أى المدنية الحديثة) فمبدأها تنازع الحياة وهو المبدأ الذى بسطنا أثره فى الفصول المتقدمة وقلنا انه لايناسب الكمال الفطرى للانسان ، وان فيه غبنا عليه لعـدم صلاحيته الا لنيل الحياة الفانية دون الباقيـة . على اننا لسنا أول الناعين على هذه المدنية نقص مبدئها فان عقلاءها أنفسهم يشاركوننا فى هذا النظر وقد نقلنا كثيراً من أقوالهم فى ذلك فى الصحف السابقة .

وربما يقول قائل : « ان كنت تنقم على من يدعون الى الاخذ بأسباب المدنية الجديدة والسير على قوانينها فهـل أنت ممن يسهل عليـه أن نبقى كما نحن تتناولنا الحوادث وتتقاذفنا المثلات ونحن بين ذلك فى حال لايرضى به من له مسكة من شعور ؟ ألا تخضع لقول القائل من اننا فى عصر لامناص لنا فيه من تقليد المتمدينين فى جميـع شؤونهم بدون شرط لنستطيع مجاراتهم فى الحيـاة وحفظ شخصيتنا بازائهم ؟ » نقول اننا ممن يرى ان دون التمسك بأصول المدنية الحديثة على علاتها وبمحض الدعوة الاجمالية اليهـا عقبات اجتماعية وحوائل أدبيـة ومادية شـديدة المراس . بحيث اننا لو أضعنا وقتنا فى محـاولتها ومعالجتها لذهب اتعابنا ادراج الرياح ولم نجن من وراء ذلك الا تجريىء أصحاب الاهواء الى الجرى

وراء شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديد وحجاب الاخذ بأسباب الحضارة . ألم تر انه من يوم ظهور الدعوة فينا الى لزوم التمسك بآداب المدنية الجديدة لم نحصل من ورائها غير الخسران والبوار ولم تفعل فينا الا تشجيع الشبان والكهول على الانطلاق فى ميدان الاباحة والحرية البهيمية . بحجة أنهم طليعة النشأة الشرقية .. والسابقون الغيورون فى طريق المدنية وماذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعتهم البقية الباقية .

اذا تقرر هذا فعندى أن تداعينا الى الرجوع الى مبادئنا الاصلية القويمة أضمن لحياتنا وأقرب لاصلاح أحوالنا من تلك الثرثرة باسم المدنية الحديثة التى رأيت من أثرها مارأيت .

فان قيل : هب انك غير واهم فى قضيتك من امكان الرجوع الى الفضائل الاسلامية الطاهرة وهب اننا أصبحنا كلنا فضلاء أتقياء . فماذا يفيدنا ذلك امام قوة هذه المدنية الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستعمار . »

نقول أما كوننا غير واهمين فى أن الدعوة الى الفضائل الاسلامية تفيد فائدة عظمى فى الرجوع اليها مهما قاومتها الاحوال السافلة التى وقعنا فيها ، فذلك أمر ليس بعجيب ولا هو بدع فى تاريخ الطوائف الانسانية . فاننا من المضانك الاجتماعية والارتباكات المادية والادبية فى الحال التى تصلح لتدفعنا رغما عنا الى طلب الخلاص وارتياد الملجأ بكل الوسائل ولو درس الناس سر التفاف الشعوب بحذافيرها حول المصلحين لرأوا ان من أكبر أسبابها ماهم فيه من الاخطار التى تهددهم بالزوال والتلاشى ، فان الطبيعة الانسانية مجبولة على عدم الاستسلام للفناء الا بعد نضوب مادة ما أودع فيها من المقاواة والمقاومة . ونحن بما نرانا فيه اليوم من الشعور بلزوم الخلاص ، لا نظن ان بيننا وبين الاخذ بالفضائل الحقة الا دعوة داع متعظ ، وارشاد هاد مهتد ، وليس ببعيد أن يتلافانا الله بنبوغ أرواح كبيرة تنشر الحياة حولها وتكشف عن الاعين والعقول تلك الغمم التى انسدلت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . أما الشك فى أثر الفضائل أمام قوة هذه المدنية فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لأثرها على نفوس الآخذين بها . أنا لا أعنى بالفضيلة تلك الظواهر التى تبدو على بعض ضعفاء النفوس كاللين والبشاشة والانعطاف والخ الخ من الاخلاق التى يظنها الناس فضائل ويقيسون الفضلاء على أصحابها فيشكون فى آثارهم فى بناء صروح مجد

الامة واعادة شرفها . وان لهم العذر فى هذا الشك ما داموا لا يميزون بين الضعف الذى يؤدى للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسماحة وبين الفضيلة التى لا حد لسلطانها على النفوس .

انا ان قلت فضيلة فانما أعنى بها تلك الروح السامية التى تهبط على النفوس فتزعج أصحابها عن الوقوف فى قذر النقص ، والخوض فى حمأة الدنايا وتهيب بهم الى مسابقة الامم فى مزايا الحياة ، ونعمة البقاء ، وليس بعظيم على أمة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى فى السنة الواحدة مالا يرقاه غيرها فى قرن من الزمان

ليس ما أقوله بالشعر ولا بالخيال فقد هبطت هذه الروح العالية على أصحاب المصلح الاعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الاعداء الالداء والصناديد الاقوياء والاضداد العتاة ما كان يكفى أن يزرع البأس فى قلوب أضعافهم ممن ليسوا على مناهجهم فلا يعودون يذكرون النهوض ولا تمنيا ، ولكن روح الفضيلة قوة الهية لا يعرفها الا الفضلاء ، فلم تزل تعمل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرزمة القليلة جذبت اليها العواطف والقلوب وانضمت الى أمثالها بسرعة مدهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الاقوى على اكثر المعمور .

ان تعجب من هذا فأعجب منه رجل يرى هذا الاثر المدهش وينكر معه أثر الفضيلة أو يشك فى أنها قوة لا تقف أمامها القوى ولا تمنع انتشارها الحوائل « أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم الغالبون »

﴿ رجوع للمقصد الاصلى ﴾

يقول قائل لقد طفت بنا من شعب المباحث فى مناح شتى ومطارح بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت فى دائرة محدودة يحيط بها البصر من أول نظرة ويستطيع قارئك أن يشطح معك الى حيث أردت ثم يعود الى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، الا أنك قسمت الناس الى ثلاثة رجال وقلت أن أحدهم رجل يعتقد بوجود العالم الروحانى وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثانى جاحد به ، والثالث يعتقده وراثة عن آبائه وقومه فهو لا الى هؤلاء

ولا الى هؤلاء ثم فصلت المبادى الحيوية التى تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة فقلت : ان مبدأ الاول (طلب الكمال) ومبدأ الثانى (تنازع البقاء) والثالث لا مبدأ له بالكلية ، ثم سرت فى تفصيل هذه التقسيمات ما شاء الله ان تسير ولكن بقى عليك أمر أعظم خطراً وأشد مراساً من كل ما سبق وهو اقامة الحجة البينة على وجود ذلك العالم الروحانى ونصب الدليل الواضح المحسوس على أن الذى يعتقد به ليس يضرب فى بيداء الخيال ولا يسبح فى آل الوهم خلافا لما يزعم أعداء العقائد ، وسماسرة الالحاد ،

نقول نعم بقى علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد لمغالق كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكنا ذلك السبيل يستدعى توجيه نظر قارئنا الى حقيقة رئيسية وهى أن نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم ، أو زبدة فلسفة من الفلسفات نشأت فى قرن من القرون ووقفت حيث هى بحيث أن من [illegible] ذلك العلم أو شارف تلك الفلسفة انكر الروح والخلود . كلا وانما ذلك الانكار حال يعترى النفوس المستعدة له فيسلب عنها أجمل صفاتها وهى الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحا لشياطين الشكوك والريب حتى أن الواحد من المصابين بهذا المرض ليشك فى وجود ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان وقد حكى الله لنا الوصف المميز لهذا المرض فقال تعالى « ولو أنا فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

ذلك الحال الذى يحل بالنفوس وينشب فيها ، فيلفتها عن ذاتها ، ويطوح بها فى متاهات الشك ، ومحارات الشبه ، ويحول بينها وبين انوار الحق الواضحة ، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا وانما يحصل كما تحصل كل حال من الاحوال الانسانيه بواسطة اسباب كثيرة منشأها التربية والمعاشرون وروح المدنية التى فيها الامة ، ومقام دينها السابق من الضغط على العقول والافكار . او من الحرية والاطلاق الخ الخ من الأسباب التى تشكل الطباع والاميال ، وتصب الرجال فى قوالب لا يقدر على بعضها أى علم من العلوم

ومن ينتقد حال الأوربيين فى القرن الماضى والقرن الحالى كان ولم يزل يرى ان الالحاد فى بعض طبقات العامة اكثر منه لدى العلماء انفسهم مما يدل تمام الدلالة على ان الانكار لا يأتى من صفة العلوم وحدها بل من الأسباب الاجتماعية والأدية التى تعيش

الامة فى وسطها أيضاً .

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل ان تلك الاسباب الاجتماعية والادبية أشد فعلا فى احداث تلك الحال الالحادية من العلوم التى يقصد بها بث الالحاد والجحود

كيف كان العالم

(قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم)

نحن لانستطيع أن نخلى مقدمة هذا التفسير من الالمام بطرف من ذلك الحادث الوجودى الجلل وهو بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم الى الامم كافة : انسها وجنها . أبيضها وأسودها . ونقدم لذلك هذه المقدمة عن لسان أجنبي عنا

كتب المسيو (جول لابوم) فى مقدمة فهرسته الذى جمع فيه الآيات القرآنية الشريفة المتماثلة تحت عنوان محمد مايأتى :

« لاجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات الدينية يلزمه أولا الالمام بحال الداعى فى ذاته . ولاجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصناها للمشرع العربي مؤسس مايمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

« حوالى ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الويزيغو) الآريين فى اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة أمبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستنيان) ثم جبروا الى الدخول معه فى حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاؤهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون ان لهم حق الفاتحين لامجرد ولاء المساعدين الحامين

« أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متنادرين متسافكين وكانت الحروب التى شبت نيرانها بين المملكة الوزيرغوتية (برونهو) والملكة الفرنكية (فيريديجوند) تهيء للتاريخ أشد الصحائف اثارة للاسى والكمد .

« أما فى انجلترة فكان (الانجلو) ينازعون (السكسونيين) الارض التى احتلوها

واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الامم علما وصناعة وقوة، وهى التى كانت فى ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة فى تلك الغياهب الحالكة.

«أما فى ايطاليا فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد أهميته القديمة وكانت رومة وهى الشظية الاخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعنى مملكة الرومان) فى حالة تململها من استحالة أمرها الى مركز دينى بسيط، ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام كانت مركزا دينيا أصليا، فكانت تهيىء نفسها لان تكون مركز البابوية وهى تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شارلمانى) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان؛ ولكنها مع ذلك لم يسعها حمل نير (الهيروليين) و (الاستروغوتين) وأمبراطورة المملكة ارومانية (واللومبارديين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولا.

«أما مملكة اليونان التى كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء. وكان شرق أوروبا مقلقا جنوبها من أول مصاب نهر (الران) من جهة الغرب لغاية مصاب نهر (الدانوب) من جهة الشرق. فكان (الاسكنديناقيون) و (النورفيجيون) و (الدانيماركيون) يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه (الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا (فارس) و (مقدونيا) و (لومبارديا) و (ايطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة.

«فى ذلك الوقت بدأ ظهور الاتراك من اعماق آسيا الصغرى وهى تلك الامة التى قضت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية.

«التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الاول من التاريخ المسيحى لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا فى القرن السادس: تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالارواح وتتمرغ فى الاوحال (١)

«أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوروبا فى شىء: فمملكة (تيبت) و (الهند) التى

(١) كتاب الانبيا، الفصل السابع عشر

اقتبست منها الامم السائدة فى أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها ، والصين التى تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

« أما السفح الشمالى من الهضبة الاسيوية العالية التى هى فى حوزة الروسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الاطلاق . أما مملكة الفرس التى كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب خصوصا من لدن تجريدة الاسكندر المقدونى فكانت مشتبكة فى حرب مع اليونان الرومانيين فى القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما فى أفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم اخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دائبين على امتصاص دم القطر المصرى وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً فى الاقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالية من أفريقيا التى انتزعوها من أيدى (الفنداليين)

« والخلاصة كان جو العالم الارضى متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر اكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى اصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وان كان وقتيا الا شيء واحد وهو الغنيمة وسلب الامم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين .ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة وبعض الجرائم الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح الى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرق فى المستقبل لكانت البربرية أسرعت فى خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت الى وحشية محضة .

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الارض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن

مضطرب الامم التى كان يقال أنها متمدينة. ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوربا الا عن بعد وما كان يصلها ذلك اللغط الا فى غاية الضعف والضؤولة . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع اسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس الا بواسطة أخبار الانتصارات او الهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سورية الى تبعية أمبراطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها ، على أن ذلك الوادى الاخير كان يهم بلاد العرب جدا لان أبناءها كانوا يذهبون اليه للتجارة وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربى من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً الى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصرى الذى أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماما الا بعد أن انجلى عنه بعض اخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم

« أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهى بلاد الحبشة . أما الجهة الشمالية من أفريقيا التى أغاروا عليها مرتين والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يعلمون بوجودها

ثم قال : قال المسيو (كوسان دوبر سوفال) فى كتابه تاريخ العرب : «ان المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسين أما المتبدون منهم فكانوا فى الحقيقة أحرارا لا سلطة عليهم . وكان عرب سورية دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين سادعليهم التبابعة وهم ملوك بنى حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها فى الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذى لا غبار عليه »

ثم قال (جول لابوم) : « ولم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الاديان قال المسيو « دوزى » فى كتابه « تاريخ عرب اسبانيا » : كان يوجد على عهد محمد « صلى الله عليه وسلم » فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الاديان أشد الناس تمسكا بدينهم واكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم . ثم يندر أن تصادف اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الاقدمين ولكن ما وجد

فمنسوب الى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية ... وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الاعظم من الامة الذين كان لكل قبيلة أو أسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام . ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يحقق أخبارهم بالمغيبات أولو عولوا على فضحهم عند الاصنام ان قربوا لها ظبية بعد ان نذروا لها نعجة . وكانوا يسبون أصنامهم اذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم آمالهم . قال المسيو (كوسان دو برسوفال): « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصا الشمس ، فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وكان الاطفال من بنى عقد يدينون لعطارد ، وكان بنو طى يدعون سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية » . وكان علمهم بما وراء الطبيعية على نسبة أفكارهم الدينية : قال (كوسان دو برسوفال) فى كتابه تاريخ العرب : « كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان اذا خلعته المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الاخيرون اذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين ان الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى وهى نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تأتيه بأخبار أولاده فاذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة « اسقونى ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لابوم بعد ايراده هاتين الجملتين عن الاستاذين السابقين : وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر اليها الا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الاولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الاسرة عندهم بل القبيلة أيضاً - وهى نقطة تستلفت النظر - تهتم اهتماما عظيما بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن — وهو أمر أغرب من سابقه — ادراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيا الى الالتفات بنوع أخص » : ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب

مغرمين بشرب الراح

ويوجد من الشعر مايدل على أنهم كانوا يفرحون ويعجبون بلعب الميسر . وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ماتسمح له به وسائله المعيشية، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه ، وكانت الارملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الاب وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجا ممقوتا . . . . وكان هنالك عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهى وأد الاهل لبناتهم . (أى دفنهن أحياء)

« هذا كله لا يشير الى أن العرب لم تكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حبا جما ويمارسون فضائل الكرم وبذل القرى .

« الافراد الذين كانوا تابعين لامم أرقى من الامة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلى العدد جدا ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة الى مللهم. فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم الا بالخضوع لقوانين الامة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالامور المالية . ولئن شوهد أنهم أدخلوا الى ملتهم بعض العرب ،فلم يكن ذلك الا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الاساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين ، تلك القرابة يستدل عليها أيضا بتساويهم فى حب الكسب ، وتآزيهم فى الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام .ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى . أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً الى بلاد العرب هربا من الاضطهادات الدينية التى كانت فى مملكة الرومانيين ولكن لم يكن فى حالهم نور يستلفت نور البصر تألقه ، وفى حالة مسيحيي الحبشة اليوم نموذج لذلك ؛ فانه لا يمكن أن يحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دون بمجرد التسليم ببعض تلك العقائد

« فى عهد هذه الاحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد ابن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) فى ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » انتهى

هذه هى الروح العمومية التى أرسل المصلح الاعظم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لملاشاتها وتخليص العالم من غوائلها ، وقد رأيت بلسان الاجنبي عن الاسلام انها كانت محاطة بالامم الداخلة فى نطاق المواصلات العامة احاطة السوار بالمعصم ، وفاعلة فيهم الافاعيل المحزنة بحيث تدل الرائى لاول وهلة أن بقاء الانسانية على تلك الحالة يؤدى بها الى التلاشى العاجل ، ويريه بطريقة جلية انه كان لا بد من صاخة كبرى تنزل على تلك الادمغة الجامدة ، والقلوب الصلدة فتردها عن غيها ، وتكبحها عن جماحها ، وهذا ما حصل على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وامام المصلحين

فى أبان استحكام هذه المضائك والتئام حلقات هذه النوازل أشرقت سماء الرحمات الالهية بسبحات الديانة الاسلامية وعهد الله الى الامة العربية فى قلة عددها تأديب الطاغين وارجاع الامن والطمأنينة الى العالمين وحفظ ما كاد يتلاشى من نتائج المعقولات السامية والمعارف العالية فقامت بمهمة قد استمدتها من روح الرحمة العليا وأدت ما رسم اليها فقشعت تلك الظلمات البهيمية وأرجعت لهذا النوع بهجة الحياة المدنية التى ذهبت بها مزعجات الفتن ومرهقات النوازل والمحن . فهى اذاً مخلصة العالم من أنياب تلك الداهية الدهماء . والطامة الصماء وهذا أمر لا ينكره علينا من عنده مسكة من المعرفة بالاحوال الاجتماعية وان كان لا بد من الاستشهاد بأقوال فلاسفة التاريخ ممن لا يتهمون بالمحاباة للاسلام فاليكم :

قال العلامة (دروى) أحد وزراء معارف فرنسا السابقين فى كلامه عن الامة العربية : « وبعد ظهور (النبى صلى الله عليه وسلم) الذى جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصدا واحدا ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر تاج فى اسبانيا الى نهر الجانج فى الهند ورفعت على منار الاشادة اعلام التمدن فى أقطار الارض أيام كانت أوروبا مظلمة بجهالات أهلها فى القرون المتوسطة » ثم قال « انهم كانوا فى القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الامم وانقشعت بسببهم (تأمل) سحائب البربرية التى امتدت على أوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التى عثروا عليها بل اجتهدوا فى توسيع دوائرها وفتحوا طرقا جديدة لتأمل العقول فى عجائبها »

هذه هي الوظيفة التي أداها رسول الله صلى الله عليه وسلم للعالم بشهادة الناس أجمع فقل لي بأبيك بماذا تصف تلك الروح الطاهرة وبأي نعت تعرف ذلك الفؤاد المعظم؟ اذا كانت الآثار تدل دائما وبغاية الامانة على مكانة المؤثر ومركزه في الوجود وكانت النتائج تشير بالضبط الى قيمة المقدمات ففي أي زمرة نحشر تلك الروح المحمدية الطاهرة التي منها انبعث ذلك النور الاعظم وبها وحدها حدث ذلك الحادث الجلل؟ هل هي روح خطيب مصقع ...؟ كم ظهر في الوجود من بليغ اذا قال خلب الالباب واذا خطب أسر الاسماع مثل «سيسرون» في الرومان و «ديموستين» في اليونان وسحبان وائل وقس بن ساعدة في العرب وغيرهم وغيرهم . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح شاعر ...؟ كم اعتلا هامة هذا الكوكب من شاعر مطبوع اذا شعر جسم الخيال وجسد خطرات الوجدان ونال سرائر النفوس مثل «هومير» في اليونان «وفيرجيل» في الرومان وامرئ القيس وزهير في العرب وكلهم كان له شعر أعذب من السلسبيل وافعل في العقول من الرحيق . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح فيلسوف ...؟ كم نشأ في العالم من فيلسوف فتق بفكره غلف المساتير وسبر بعقله أغوار القلوب مثل سقراط وأبيقور وزينون وغيرهم وغيرهم فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح شجاع ...؟ كم عاش في الارض من اقيال اذا اعتلوا صهوات الجياد الصافنات ارعدوا فرائص الكتائب وأوقعوا الرعب في سكان المدائن . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح قائد محنك ...! كم نبغ في الامم من قواد وكم أنجبت الشعوب من أمجاد قادوا الرعال والمقانب وقطعوا الصحارى والسباسب وأتوا من الحيل الحربية بما تعجز عنه المدارك العبقرية . فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

هل هي روح عابد ناسك ... ! كم نجم في الامم من زهاد وكزوا عروش الملك بأرجلهم وقنعوا من العيش بكلأ الارض وقطرات السحائب وكم ظهر فيها من عباد نصبوا أنفسهم ليلا ونهاراً لترتيل الدعوات واستنزال العبرات فما هي آثارهم وما هي نتائج أعمالهم؟

تنحصر اعمال النبي صلى الله عليه وسلم في اربع حوادث مهمة لم تتم فى الامم كل واحدة منها الا ف قرون وهى (١) ابداله الوثنية بالتوحيد فى امة العرب باسرها (٢) وتهذيبه لاخلاقهم (٣) وربط قبائلهم برباط الاخاء وجعلهم امة وثيقة العرى (٤) وتكوينه لقانون كامل ادام للمدنية الفاضلة

هذه حوادث اجتماعية تحتاج الى تعليل مقبول تطمئن اليه النفس وليس امامنا الا احد فرضين وهما اما التسليم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله حقيقة أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقد أنجز وعده ونصر عبده وأعز جنده . واما فرض انه ليس برسول وانه وصل الى ما وصل اليه بالتدبير وحسن السياسة .

ان مال مائل الى الفرض الثانى ناقشناه المسألة وقلنا : ينبنى على انه ليس برسول جملة أمور (أولا) انه مدعي النبوة كذبا (ثانيا) انه تظاهر بما كان متصفا به من الاخلاق والعبادة رياء وانه استطاع ان يثبت على هذا الرياء طول حياته (ثالثا) انه استطاع ان يخفى حاله ذلك على كل احد حتى أخص أصحابه وأخص نسائه (رابعا) ان الله أيده ونصره وجعل كلمته العليا مع اتصافه بهذا الحال (خامسا) انه مع اتصافه بهذا الحال أتي بعمل فاق به كل المرسلين فانه ليس فى تاريخ الانبياء انقلاب نشأ من بعثة رسول كالانقلاب الذى احدثته البعثة المحمدية (سادسا) ان الامة العربية من الغباوة بالمكان الاسفل (سابعا) انه مدع ولكنه أتى بما أتى به المرسلون من الكمالات .

لنفحص هذه الوجوه السبعة وجها وجها فنقول :

امافرض ادعائه النبوة كذبا فلا يثبت امام النقد . لان النبوة امر خطير وشأن جلل لا يقدم على ادعائه زورا وبهتانا الارجل مطبوع القلب فاسد الفطرة سيء النية جرىء على الله . ومن كان كذلك كانت حياته كلها سلسلة جرائم وشبكة مآثم ، بعيدة عن الخير فى كافة وجوهها مصروفة عن الفضيلة بسائر ضروبها فهل كان محمد صلى الله عليه وسلم فى باكورة حياته من هذا الصنف من الناس ؟ اما شهد تاريخه بانه كان من مكارم الاخلاق وطهارة الخلال قبل النبوة بحيث سماه معاصروه بالأمين لم تحفظ عليه جريمة ولم تعرف عنه خصلة ذميمة ؟ ومن كانت حياته الاولى كلها طهرا وصفاته غرا فكيف ينقلب بعد الاربعين الى

ضدها او ترتكس طبيعته الى نقيضها ؟ هل تبدلت سنة الخليقة؟هل تحولت نواميس الطبيعة ؟

اما فرض انه كان متظاهرا بتلك الخلال الكريمة والصفات القويمة رياء فاوهى امام الامتحان من الفرض الاول . لان الرياء صفة النفوس المنحطة وديدن اصحاب القلوب الخوارة وهي خصلة عارية وصبغة ظاهرية ان استترت حينا تكشفت بعده لا محالة بطبيعتها لان الرياء لما كان حبالة لصيد او وسيلة لكيد فهو ثوب مستعار تنفعل له النفس انفعالا مادام فيها امل للوصول اليه ويكون شأنه كشان سائر الصفات العارية من التلاشي امام العوارض الفجائية والزوال امام المخاوف الطارئة . فصاحب هذا الحال يكون دائما مضطربا مذبذبا يكاد يظن ان نفسه تنم عليه . ثم ان حوادث الحياة وطوارق الحدثان وما جريات الاحوال كاشفات للغش فاضحات للتدليس فلا تجد مرائيا بالزهد اوبالشجاعة اوبالكرم الا وقد فضح اشنع فضيحة امام الناس لاسيما ان كان متعرضا للحوادث يعالجها أو متصديا للخلائق يكافحها . ومن ابعد الفروض عن العقل ان يدعي مدع امكان الثبات على مثل هذا الرياء حياة بأكملها لان المراءاة لا تكون الا لنيل غرض فان حصل ذلك الغرض عاجلا أو آجلا ضعفت المراءاة وشفت عما وراءها من التمويه لان نفس المرائى لا تكون عادة الا نفسا منحطة سافلة يستطيرها بارق الأمل ويزدهيها ظاهر النجاح فتفتضح سنة الله فى خلقه ليتميز الحق من الباطل

اما الفرض الثالث وهو انه استطاع ان يكتم رياءه على أخص أصحابه ونسائه فهذا الفرض اضعف امام التمحيص من سابقيه لأن التاريخ دلنا أن كل صاحب مبدإ له أصحاب مثله فمن كانوا من اصحاب التدليس يكون لهم اخصاء على شاكلتهم يعاونونهم على نيل بغيتهم ويشاطرونهم المغنم من فضلاتهم . وقد دل تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان أخص أصحابه أبا بكر وعمر وعثمان وعليا كانوا على شاكلته من الزهد فى الدنيا والبعد عن زخارفها وقد تولوا الخلافة بعده بانتخاب الامة لهم فلم تفتنهم السلطة ولم تستخفهم ابهة الملك وما كانوا الا خدما لمن تولوا شأنهم يلبسون أقل مما يلبسون ويأكلون أدنى مما يأكلون ، يبيتون ركعا سجدا يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا . وهاهن ازواجه صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين كن امثلة كمال وفضيلة وعلى غاية من الزهد والصلاح حتى لحقن به طاهرات تقيات

فما هذا الرياء الذي يبلغ هذا المبلغ وما هي اذن الفضيلة بعد ذلك ؟

اما فرض ان الله ايده ونصره مع اتصافه بهذه الصفات فهو اوهن من كل الوجوه التي مرت . ومتى عهد ان الله يؤيد المرائين المفترين و يمكنهم من التسلط على قلوب العالم عامتهم وخاصتهم لاسيما وهم منتحلون لقب النبوة وواسمون انفسهم بسما الرسالة وهي أكبر حوادث الوجود الانساني خطارة . اذا ساغ لانسان ان يفرض هذا الفرض فقد اتهم عدالة الله تهمة يستوجب عليها التعذير الكبير واساء النظر في النواميس الاجتماعية كل الاساءة ودل على مقدار غفلته عن نظام الكون ونظام الهيئات الاجتماعية . واذا ساغ لاحد ان يفرض هذا الفرض فقد شك في سائر الديانات لان الخالق ان ايد الباطل لهذه الدرجة فلا يبعد ان تكون سائر الديانات السابقة باطلة ولكن المعروف من رحمة الله ومن أحوال الكون بما لا شبهة معه ان الله عدو المبطلين المفترين وان ملائكته والوجود وما فيه اعداء ألداء لهم بل ان نظام الكون وما أودع الخالق فيه من علائق مرتبة بين العلل والمعلولات وبين الاسباب والمسببات يأبى ان ينجح المبطلون او يفوز المفترون المدلسون . ذلك لان التدليس والافتراء وما شاكلهما صفات منحطة لا تناسب الا النفوس الساقطة ولا يمكن ان تكون النفوس الساقطة طليعة للانقلابات المرقية بوجه من الوجوه . وقد نقل المسيحيون فيما نقلوه من اقوال عيسى عليه السلام في الانجيل انه لما قال لهم سيظهر بعدي انبياء كذبة فاحذروهم ان بعضهم سأله بأي علامة نميزهم فقال علامتهم ان الله لا يؤيدهم فاولئك فيمن ايده الله ونصره واعلى كلمته وأظهر دينه على الدين كله

اما فرض انه مع اتصافه بذلك يأتي باعمال تفوق ما عمله المرسلون فعجيب جدا . لانه لو تجاسر انسان وفرض ان الله ربما ساعد المفترين المدلسين فهل يعقل ان يساعدهم حتى يأتوا بما يفوقون به سائر الانبياء والمرسلين ؟ هذا هو التاريخ اما منا ناطق بأن ما تاه محمد صلى الله عليه وسلم في مدي ثلاث وعشرين سنة من اول رسالته الى يوم وفاته من هدم الوثنية من جزيرة العرب بأسرها وتأسيس امة حية ركينة الرابطة قامت باجل عمل في العالم مما لم يتسن مثله لاي رسول سابق فهل يتصور ان الله يأخذ بيد المفترين حتى يعلو بهم على الانبياء والمرسلين ؟ متى عهدنا ان الله يعلي شأن الرذيلة ويحط بقدر الفضيلة ؟ بل متى عهدنا ان الله يرفع

التدليس على النبوة ؟

اما فرض ان الامة كانت من النباوة بالمكان الاسفل حتى راج فيها كل هذا التدليس فمن الفروض الساذجة فان التاريخ دلنا على ان رسول الله لبث بين ظهرانى اهل مكة نحواً من ثلاث عشرة سنة وهو يدعوهم الى الله فلم يقبل الدعوة منهم الا نفر قليلون وكان الباقون من تسلط الشك عليهم بحيث يقولون كما حكى الله عنهم (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا. او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه ... الآية) . وقد كانوا من شدة الشكيمة والبعد عن العقيدة وتمكن الشك من قلوبهم بحيث قال الله عنهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون)

اما الفرض السادس وهو انه مدع وجاء بما جاء به النبيون من الكمالات والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة العبادات فمن الفروض التى لا تثبت امام النقد فانه قلب لسنة الكون . اذ كيف يفرض انه مفتر ثم ينتظر منه الاتيان بشريعة تعد أعدل شريعة ظهرت فى الوجود لاشتمالها على اصول العدالة واحتوائها على روح القسط . متى عهدنا القلوب السافلة والنفوس المنحطة مصدراً لامثال الشرائع الكاملة والقوانين الفاضلة التى ترقى الامم وتحفظ كيانها؟

هذه فروض يقتضيها زعم من يتجاسر فيزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس برسول وقد أريناك مكانها من العلم فلم يبق أمامنا الا الفرض الاول وهو أنه رسول رب العالمين ، وامام الانبياء والصالحين ، وخاتم رسل الله المخلصين ، وأنه أرسل رحمة للعالمين ، بكتاب من عند الله مبين ، سيكون كتاب الناس اجمعين ، ولتعلمن نبأه بعد حين

مقاصد القرآن

القرآن وحى الهي نزل به الروح الامين على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيرا وبشيرا ، وعقيدتنا معشر المسلمين انه الكتاب الجامع لاشتات الحكم

ومتفرقات الاصول ، وان فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدمة وانه جاء بالناموس الاعظم لكمال الحياتين الدنيوية والاخروية ، وانه آخى بين طبيعتي الانسان الجسدية والروحية ، وانه نزل للعالمين اجمعين ، وروعيت فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم . وقد ربيت على اسلوب هذا الكتاب امة قبل بضعة عشر قرنا فنالت به في مدى سنين قليلة مالم يصل اليه غيرها في القرون العديدة وبلغت من بسطتي العلم والملك مالم يتهيأ لغيرها في مثل ذلك الزمن القصير الامد .

لا جرم ان كتابا هذا شأنه لابد من ان يكون راميا الى مقاصد ، ومتوخيا في تعاليمه دستورا ، ولابد من ان يكون قد وعد واوعد وبشر وانذر ، ورغب ونفر ، وبنى وهدم ، وقوى ووهن ، ووصل وقطع ، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة ادته الى المكانة التي بلغتها من نفوس الآخذين به قديما وحديثا . فما هو المقصد الاول الذي رمى اليه القرآن ثم ماهي تلك الاصول التي هدمها او بناها والامور التي وهنها او قواها ، وما هو ذلك الدستور الذي توخاه للوصول الى ذلك ؟

القرآن كتاب لا كالكتب ، وكذلك قد احدث من التأثير مالم يحدثه كتاب . فان نظرت الى نظمه واسلوبه وديباجته فهو نسيج وحده . ليس بالشعر المقفى ، ولا بالنثر المرسل ، ولا بالسجع المبتذل ، فهو نوع من الكلام لاضريب له حتى ان القارئ ليرى الآية القصيرة في الصحيفة الكبيرة فيميزها عن سائر الكلام بديباجتها الخاصة .

وان شارفته من جهة ترتيبه وجدته مخالفا للكتب ايضا . فالمصطلح عليه في امر الكتب ان يكون للكتاب مقدمة ومباحث متسلسلة ذات مقاصد محدودة في فصول معدودة والقرآن الكريم ليس كذلك . فهو آيات مجتمعة ذات مرام متنوعة ومقاصد شتى ، فبينما تتلو آية وعظ اذا انت بآية جهاد تليها آية فقه تتبعها قصة رسول . وهكذا حتى عد هذا بعض مؤلفي الفرنج مثل (دوزى) الهولاندى و (كارليل) الانجليزى وغيرهما عيبا وغاب عنهم ان القرآن ليس بكتاب منشيء او بحث فيلسوف ، فيحسب عليه تعديه لقانون الكتابة البشرية ، وانما هو وحي الهي نزل بحسب الحوادث على صدر رسول لا اثر له في تأليفه ولا دخل لقوته في وضعه . ولو كان هذا الكتاب على مثال الكتب الوضعية في الترتيب والتبويب

لكان كتابا وضعيا وهو ليس كذلك . ولكان حظه مثل حظ كل كتاب فيطالع مرة او مرتين ثم يسأم بخلاف القرآن فانه قد يطالع مئات من المرار ولا يزال يحلو مع تكراره حتى لا يكاد يسلوه تاليه طرفة عين . ولو تأمل دوزى وكارليل ومن نحا نحوهما من مؤلفي الفرنج من قرات اللغة العربية لعرفوا ان القرآن الكريم كتاب لا كالكتب فيه كلام لا كالكلام ، لا يستطيع تاليه ان يزعم ان لا ترتيب فيه بل يرى ان الترتيب مهما كان سلطانه قاصرا على الكلام البشرى ، يجل عنه هذا الكلام الالهي كما يجل البحر عن ان يحد بما تحد به الجداول ، وكما ان كمال البحر فى ان يكون رهوا متلاطم الامواج متقابل التيارات فكذلك هذا الكلام العالى كماله وجماله ان يتنزه عن قبول القيود وان يكون هو محيط معان عالية تعب عبابها وتتراوح اواذيها لا تنتهى الى غاية ، ولا تقف عند نهاية ، ان واجهته واجهت اوقيانوسا معنويا ، لا يشبه كلاما انسانيا ، ولا يشاكل كتابا وضعيا ، يفرق بين المرء واهوائه ، ويجمع بين القلب وشغافه ، ويسرى بين اطواء الفؤاد ، واحناء السرائر كما تسرى الكهرباء بين ذرات المعادن فيفعل بالنفس فعلا لا يغنى وصفى له عن ان تراه فى نفسك .

هذا الكتاب الكريم نهج فى تربية الانسان مناهج يجب تمييزها جملة ثم مشارفتها تفصيلا : فقد خاطب العقل ، وناجى العواطف ، وحاسب السرائر ، وآخذ الضمائر ، وادب الحواس ، وهذب الملكات ، وعدل القوى ، وقرر العقائد ، ودعمها بما يناسب كلا منها من براهين ، وحكى حال العالمين من حيث الدين وارى مواقع البطلان من معتقدات سائرها ، وقاد الكتائب ودوخ الممالك ، ومصر الامصار وشيد المدنية الفاضلة وسن الشرائع الكاملة ، ووضع دستور الحكومة ، وصب الامة على قالبه المحكم ، ووضع للمعاملات ناموسها ، وشرع للبصيرة شرعتها ، وركب للافئدة علاجها ، وخاطب كل نفس على قدر وسعها ، واتى بذلك كله منثورا فى السور على النحو الذى اراده عز وجل بحيث ان بعضه يكمل بعضه الآخر ويوضحه او يرى وجها آخر منه . وقد عولنا فى هذه الصحائف الموجزة على ان نأتي على مقاصد القرآن واحد بعد الآخر ناهجين نفس الاسلوب الذى نهجه وامرنا بانتهاجه ليتجلى للقارىء كنه المقصد السامي الذى انزل القرآن من اجله فاصابه ، وهو تربية الانسان تربية صحيحة وابرازه امام الوجود بشرا سويا ، حاصلا على كمال طبيعته الجسدية

والروحية، متمتعا بجمال حالتيه الصورية والمعنوية . وهو لاجل ابلاغ الانسان هذه المكانة العليا عمليا فعليا لم يتوجه اليها من قبيل النصائح المجردة ، والمواعظ العارية بل حاولها من كل مظانها العملية بادخال الانسان في مقتضياتها ولوازمها وتوريطه في متعلقاتها واسبابها لينزفع الانسان اليها اندفاعا طبيعيا قسريا ليكون في كماله الديني سائرا على منهاج كماله الجسمي اي سوقا بنواميس طبيعية لايستطيع ان يتخلص من سلطانها .

معنى هذا الكلام ان القرآن فى امره لنا بان تدين بالدين الحق لم يتركنا عند هذا الامر نؤوله كما نشاء، بل علمنا كيف نبحث عنه وهدانا للاعلام التى نستدل بها عليه، وعين لنا القسط الذى نستطيعه من ادراكه ، ونصب لنا ميزانا نزن بها محصول الفكر والنظر في جميع ماذكر . فكشف لنا من اسرار اللاهوت بقدر ماتحتمله فطرتنا ، وبين لنا من وظائف الرسل واحوالهم ماهدانا الي حقيقة الدين فى ذاته والاسلام بمعناه الخاص . وسرد امام اعيننا ما اخترعه الناس وسموه دينا ، ونقد لنا تلك الكتب الموجودة التي يدعي اصحابها انها غير محرفة ووقفنا على ما ادخل اليها مما ليس منها . كلمنا على العالم فى جملته وما هو منقاد اليه من النواميس الاجتماعية وقسمه لنا على حسب وجهاته الى مسلم وغير مسلم واعطانا على كل قسم القسط اللازم الالمام به من العلم من جهته . ووضح لنا خلقة الانسان فى ذاته وما اودع فيه من قوى متعارضة ، وما ركب فى طبيعته من عوامل متباينة لترقيه او تدليه ، وكشف لنا وجه التوفيق بينها وقيام الانسان منها على حال الاعتدال ، وما يناله بذلك من كمال دونه كل كمال . وبين لنا الوجود فى ذاته وما ينبغي ان نعرفه من الجهة التى تربطنا به ، وذكر لنا الطبيعة ونواميسها ودلنا على مايجب ان نعلمه عنها من الوجهة التي تمسنا منها تأثيرا فيها وتأثرا منها وصور لنا حال الدنيا تصويراً لا يمكن لمن أراد ان يعيش فيها ان ينفك عنه . ورسم لنا الحياة بصورتها الصحيحة ودلنا على كنه الروح التي يجب ان نتوجه بها اليها . وخاطبنا على المدنية وبين لنا أصولها الثابتة وعرفنا بحقيقتها، وما يجب ان يكون حظ الانسان منها ، وكلمنا على اللذات البدنية وما ينبغى ان يكتفي الانسان به منها وعين القدر الذى يحسن الوقوف عنده فيها ، ودلنا على ناموس الارتقاء الذى يبعث العالم الى الامام فى المدركات والمكتشفات وأرانا ما يجب ان نكون عليه بين يدى ذلك الناموس من استسلام او مقاومة ، وسرد لنا

أصول العادات وبين لنا الحسن والقبيح منها ، ثم نهج لنا أصول الشريعة ودعمها على قواعد الطبيعة بحيث تدور عليها الادوار وهى كما هي لا يختل لها نظام ولا يعتريها انفصام ، وقرر لناشكل الحكومة التى يجب ان يرضخ لها المسلمون لاقامة معالم العدل وتشييد دعائم الامن ، ثم بين لنا ما يجب لدوام نظام الاجتماع من جهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله واستماتة في تحقيق مراضيه وذكر لنا العبادات ومايجب ان نأخذ منها هداية لانفسنا وعلاجا لقلوبنا حتي نستقيم على جادة الرحمن ونكون من حزبه قولا وعملا ، وشفع ذلك ببيان مانحن مرتبطون به من العالم الذى وراء هذا العالم ودلنا على ما لانواع العبادات من العمل لتلك الدار وبين وجه علاقتها بها ، وما ينبنى على أعمالنا فى هذه الدار من الجزاء العادل في تلك المستقبلة . كشف لنا سبحانه وتعالى كل ذلك فى آيات متعددة اوردها على صور شتى وفى قوالب مختلفة مودعاً كل صورة وجهاً من وجوه الحقيقة وجاعلا فى كل قالب رسما من رسومها . كل ذلك فى مناسبات تقتضيها ومقتضيات تستدعيها ، ضبطا لقوى الانسان ، وحياطة لمواهبه ، وابقاء عليه من ان تتشذر مواهبه فى اعقاب المطالب وتتوزع ملكاته فى أذيال الحوائج فيعيش الانسان عمراً مديداً ، لم يعشه رشيداً . ثم ينجلى عن هذه الحياة وقد حمل قذر الاوزار الى عالم القرار .

سنعقد لكل شعبة من شعب هذا الادب الالهي فصلا نودعه زبدة ما يرمي اليه العلم العصرى نتبعه بما قرره فيه الكلام الالهى مع الدلالة على أسرار تلك الاصول ولباب تلك المفاهيم لتتجلى للقاريء ماهية وظيفة هذا القرآن والغرض الذى أنزله الله من أجله ، وما ينبنى على العمل بما فيه من كمال للانسان وحياة له ليكون هذا العمل بمثابة دليل يستدل به على اغراض القرآن الاولية ومراميه الرئيسية

كيف نبحث عن الحقائق
على الاسلوب القرآنى

الانسان من هذا العالم المدهش فى بحر من مجاهيل لا ساحل له . وقد دفع اليه ضعيفا قاصراً وحكم عليه بان يعيش فيه بل بان يستخدمه فاحتاج للعلم بما يتعلق بمهمته ، والعلم لا يسمى علماً الا اذا كان حقا ، فاضطر الانسان بحكم فطرته أن يبحث عن الحقائق التي تمس حياته

الجسدية اولا ليتمكن من حفظ شخصه . فلما أمن علي جثمانه وتيقظت فيه قواه الروحية رأى ان محض الطمأنينة على جثمانه من عوادي الجوع والجو ليس بشيء امام ما يتهدده من عوادي الهرم والشيوخة والموت فاخذ يبحث عما عسى ان يكون له بعد الموت من حياة او عدم فأداه ذلك الى البحث عن خالقه وصانعه وأوصله ذلك الى كل ما يسمى عند أهل الملل دينا من البحث عن صفات الخالق والرسل والوحي والفضائل والرياضات النفسية الخ وهو يرى نفسه في حاجة كبيرة الى ادراك وجه الحقيقة من كل ذلك. فوالى البحث واعمل الفكر فاختلفت الاحزاب وتفرقت الملل لان لكل أمة مرامي ترمي اليها لا تتفق مع ما ترمي اليه جاراتها ولكل طائفة من طوائف الامة مصالح توحي اليها مقوماتها، فقويت طوائف الرؤساء الدينيين ووسموا انفسهم بحفظة الحقائق وورثة المعارف وقام الانسان على هديهم عمراً مديداً من حياته الاجتماعية الطويلة، ولم يزل كذلك حتى جاء دور الفلسفة اليونانية وسادت مذاهب قادتها واحد بعد واحد من سقراط فأفلاطون فأرسطو فأبيقور فذينون ولكل منهم مقالات واسفار اودعوها مباحثهم لاستجلاء الحقائق ودام الحال كذلك حتى جاء بيرون رئيس الشاكين ومؤسس دولة اللاادريين فقرر بطلان كل تلك الاصول التي دعم عليها أولئك الفلاسفة مذاهبهم واقام الشك قاعدة لمذهبه . وزعم انه لا يمكن الوصول الى الحقيقة بهذا العقل القاصر ، وان الانسان في حكمه على الاشياء انما يحكم باهوائه ، ولولا ذلك لاتحد الناس كلهم على حقائق اولية ثابتة . فكان ان سئل عن شيء قرر ما يعلمه عنه مبتدئا تقريره بقوله يظهر لي غير جازم بصحة شيء أو بطلانه . ولكن هذه الحركة الفلسفية الكبرى ركدت ريحها حين سقطت دولة الشعب اليوناني وعادت الظلمة الاولى للمعقول . وزاد تلك الظلمة اغراق الرومانيين في البذخ والترف عقب فتوحاتهم الواسعة فارسل الله تعالى عيسى بالزهد في الدنيا والهرب من علائقها ليحدث رد فعل اجتماعي في مصلحة الجمعية البشرية التي تجذبها الامة الرومانية الى طرف اللذات البدنية والعلائق الدنيوية غير حاسبة لما يستتبع ذلك التطرف من هلاك الطبقة المحرومة من المال. فاتبع عيسى عليه الصلاة والسلام نفر معدودون ثم اجتهد خلفاؤه من بعده في نشره رغما عن الاضطهادات التي قامت في سبيلهم حتى ساعدهم الجد بان تولى مملكة الرومان الملك كونستنتان الذي تولى بعد عيسى بثلاثة قرون وكان مسيحيا فامر بهدم الهياكل الوثنية واجبار الناس بالسيف

على التنصر فدخل الناس فى النصرانية افواجا حاملين معهم عقائدهم الوثنية التي جمدوا عليها وكانت ممتزجة بمهجهم فدخل فى النصرانيـة ما ليس منها فانعكست الامور الى اضدادها وحل البذخ محل التقشف والعظمة مكان الاستكانة حتى صار رئيس الكنيسـة الذى كان يجب ان يكون كعيسى شظفا وزهدا لا يفترق عن الملوك المترفـين فى المأكل والملبس والمسكن فتشعبت الاحزاب وتوالى المتكلمون فى الدين ممن عدوا مبتدعين وابعدوا وقتلوا كالمجرمين وما كان اكثرهم الا من المصلحين المريدين تطهير الدين . فساد الحال ظلاما حالكا لا ترى فيه للحقيقة وجها حتى ارسل خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،ناهجا للناس فى وسط هذا الخلط المرتبك والضلال المشتبك شرعة للبحث عن الحقيقة لا يضل سالكها ولا يهتدى تاركها وجعل لها قسطاسا حكيما لا يختل توازنه ما دامت الحقائق موجودة

فطر الانسان على ان يبحث على أمرين : أمر دينه وأمر دنياه . فهو يبحثه فى أمر دينه يريد ان تهتدى نفسه لحقيقة روحانية تطمئن اليها . ويبحثه فى أمر دنياه يودان يعيش على اكمل وجوه المعيشة بالاستفادة من خيرات الوجود وقواه . وقد سمى الاورو بيون اليوم الامر الاول بالفلسفة والامر الثاني بالعلم الطبيعي . وقد سموا الاول فلسفة ولم يسموه بالدين لانهم حكموا علي الاديان بانها لا توصل الى حقيقة وانها ليست الا حشوا من افكار المتقدمين قدست تقديسا وهميا لا تفيد اليوم فى قيادة النفس العصرية اقل فائدة .

ثم قالوا ان الفلسفة يجب ان تكون حسية عملية بمعنى ان كل معقول لا يؤيده الحس يجب ان لا يعد حقيقة بل يلفظ الى عالم الظنون . وقالوا في العلم الطبيعى ان كل نظرية لا تعد من العلم الا اذا اسعفتها التجربة وقواها الاختبار وكان لها اثر فى مصلحة الانسان

على هذين الاصلين قام الفكر العصرى فسقطت امامه كل مدركات الاديان المحرفة فان منهاج تلك الاديان في تقرير الحقائق الاولية الاعتماد على قول الرؤساء الدينيين واعتبار آرائهم مقررات لا يجوز التردد في حقيقتها، ومثل هذه الاصول يستحيل حياتها في هذا العصر . فتوهمت الفلسفة العصرية بالنظر لهذه الاصول انها اول من خلص العالم من اصر التقاليد والظنون ، ولم تدر ان هذا القرآن قد سبقها بثلاثة عشر قرنا فى تقرير تلك المبادي، واليك التفصيل :

تقول الفلسفة المصرية : الحق لا يتعدد ولا يتعلق بزمان دون زمان وقال الله تعالى (وماذا بعد الحق الا الضلال)

تقول الفلسفة المصرية : الحقائق بحر لا ساحل له والانسان لم ينل منه الا نزرا يسيرا وقال الله تعالى (وما اوتيتم من العلم الا قليلا)

تقول الفلسفة المصرية : العلم رأس مال الحياة البشرية فيجب على الانسان ان لا يقصر فى طلب العلم وقال الله تعالى (وقل رب زدني علما)

تقول الفلسفة المصرية : ان الانسان خلق قادرا على استخدام الطبيعة فى مصلحته فيجب عليه ان لا يني فى ذلك لان به ترتبط رفاهيته وراحته وقال الله تعالى (سخر لكم ما في السموات وما فى الارض جميعا منه)

تقول الفلسفة المصرية : العلم قوة لاتعادلها قوة اخرى وسلاح دونه كل سلاح فمن علم وعمل فاز على من لم يعمل سواء علم او لم يعلم وقال الله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

تقول الفلسفة المصرية : الكتاب العملي الذي يجب ان يستقي منه الانسان سائر معلوماته هو كتاب الطبيعة ففيه من آثار العلم الالهي ما يصلح لان يهدينا الى الحقائق بالحس والمشاهدة على ان الطبيعة مصدر حياة الانسان ومستودع مرافقه العيشية وقال الله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والارض) و (قل سيروا فى الارض فانظروا)

تقول الفلسفة المصرية : ماضلل الانسان عن الحقائق وهي قوام حياته وسبب سعادته الا الاستراحة للخيالات واعطاء الظنون حق الحكم على الاشياء . وقال تعالى (وان تطع اكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون)

تقول الفلسفة المصرية : ان محصول الفكر والنظر يجب ان يعرض على النقد الدقيق فما وافق منه الواقع فهو من الحقائق وما جافاها لفظ الى عالم الظنون والاوهام . وقال تعالى (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وقال (ولا تقف ماليس لك به علم)

هذه خطة الفلسفة المصرية فى البحث عن الحقيقة وفى الاعلام التى يجب على الانسان أن يهتدى اليها بها ، وفى ميزان الحكم على محصولات الفكر والنظر ، وقد رأيت ان كل

ذلك قد سبقها القرآن اليه بالنص لا بالتأويل ، فلننظر الآن فى محصول الفلسفة المصرية الذى تأدت هى اليه بالجري على اسلوبها هذا فى كل بحث من الابحاث التي تعنى الانسان فى معاشه ومعاده ثم لنقارنه بما كشفه القرآن لذويه قبل نحو اربعة عشر قرنا فنقول :

﴿ مسألة اللاهوت فى نظر القرآن ﴾

مسألة اللاهوت اول اغراض الانسان الروحية كما انها اول مرامي الفلسفة العقلية . وقد وقفت الفلسفة المصرية بأزائها موقف التحفظ خشية من الارتطام فى مثل ما ارتطمت فيه الفلسفات السابقة من ايراد المقالات الطنانة التي مصدرها الخيال المحض حتي عاش الانسان معها عمرا مديدا وهو يعبد الها خياليا قدره بفكره القاصر وحكم عليه بعقله الناقص

تقول الفلسفة المصرية : ان مسألة وجود الخالق هى من المسائل التي لا تحتمل كثرة الاخذ والرد ولايتسع فيها المجال للتعمق والثرثرة على النحو الذى عليه اصحاب الملل ، لانه ليس فى المسألة الا امر واحد وهوان مجرد التأمل فى الكون يضطر الانسان للاعتقادبان نواميس الخليقة عملت ما عملته مقودة بعقل وحكمة ولا يستطيع العقل مهما جمحت به الكبرياء ان يدعي ان هذا الكون تنوعت ممالكه وتشكلت عوالمه اتفاقا ومصادفة . هذا كل ما تسمح بها لفلسفة المصرية من العقيدة بالخالق وهو ما يمكن اخذ اجماع الامم عليه كافة . وماعدا هذا فهو لدى الفلسفة المصرية من الكلام فيما ليس من وظيفة العقل ولا من اختصاص النظر ، وهو مدعاة لاحداث التفريق بين الامم لان لكل أمة عقلا يخصها ، فمتى أطلق للعقل حرية البحث فى هذه المسألة الكبيرة وهي ليست من اختصاصه الا فى الحد الذى ذكرناه أدى ذلك لان يكون لكل أمة عقيدة خاصة فى حق الخالق ويتبع ذلك ان تظهر الامم بازاء بعضها العداء بسبب العقائد فتدعى كل منها ان الحق فى جانبها دون سواها وليس الحق الا لمن وقف بتلك العقيدة عند حدها الطبيعي الذى ذكرناه آنفا ، وهو الحد الذى يمكن أخذ اجماع الامم عليه .

هذا ما تقوله الفلسفة المصرية المعتدلة وقال تعالى (افى الله شك فاطر السموات والارض) و(ليس كمثله شيء) و(يعلم مابين ايديهم وماخلفهم ولا يحيطون به علما)

قرر الله تعالي اولا ان ليس فى وجوده تعالى شك بمجرد النظر الى السموات والارض والى مافيهما

من الاعلام. ثم سد على العقول طريق الخوض فيما لا يعنيهم من التطفل على علم ما حجب عنهم فقال (ليس كمثله شيء) ثم قرر بالنص انه محيط بهم علما وهم لا يحيطون به علما. اراد بذلك ان يقف الانسان عند حده قانعا بما تهديه اليه البديهة من وجود المبدع الحكيم حيا قادرا عليما مختارا كما تدل على ذلك مخلوقاته جملة وتفصيلا. اما ماعدا ذلك من المقالات المستفيضة فليس من اختصاص العقل ولا من شغل المؤمنين. وكفى بالمؤمنين شغلا ان يتدبروا في صنائعه ومبدعاته ليستدلوا بها على لانهائية حكمته وقدرته. الى هنا لا تصادف اثرا من دواعى الفرقة بين الامم متمدنها ومتوحشها، اما الخلاف فيأتي بعد ذلك اي بعد تخويل الخيال لنفسه حق بناء العقائد فيجوس خلال المعقولات ويجول في احناء الممكنات ويركب مما يؤثر على اهوائه شكلا خاصا من الدين يطبعه بطابع امته ويؤرجه بعبقة عشيرته. فتصبح الامم وقد تخالفت وافترقت. هل تخالفت على الفطرة والحقيقة؟ لا ولكن على محصول عقولها وخيالها. فلا تزال الامم منشقة مفترقة مادامت راضخة لمحصولات خيالها، ولو رجعت للفطرة الاولى لاتحدت وتآخت. وسيكون ذلك الاتحاد والتآخي يوما من الايام على يد دين الفطرة وهو الاسلام كما ستراه (ولتعلمن نبأه بعد حين)

الرسل فى نظر القرآن

(بحث تمهيدي فى علم ما وراء المادة)

« ان جمعيات المباحث النفسية فى لوندرة ونيويورك والمانيا وايطاليا وروسيا مؤلفة من طبيعيين وأطباء وكيماويين وعمرانيين وفلاسفة والكل مهتمون غاية الاهتمام بهذه المسائل الجذابة التي طالما هزأ بها الهازئون . وقد تأسست في باريز نوادمخصصة للمباحث النفسية حصلت من علماء النفس الرسميين على مساعدين مثل دارسونقال وبوشار وميزيير وبوبسون ومتسكينوف وبيريه وجبار وسللي برودوم الخ وبذلك فقدأصبح مستقبل هذه المباحث بملاحظة هذه العقول الكبيرة سائرآ على دستور علمي ومأمونا عليه من الخطأ »

جريدة الطان ٢١ يونيه سنة ١٩٠٥

قررنا فى بعض كتاباتنا ان العقيدة بالرسل تستلزم حل مسألة ماوراء المادة وقلنا ان مجموع

ماظهر من الابحاث فى جميع فروع ذلك العلم فى أوربا يكفى للدلالة على وجود الروح وخلودها والملائكة وعالمهم والوحي والنبوة ونحن اليوم متكلمون على موجز تاريخ تلك الفروع العلمية الهامة معزوة لقادتها ليحصل لمطالعنا فكرة عامة على هذه المباحث الهادمة للالحاد. ومما يبعثنا لزيادة العناية بهذا الباب ان بعض المجلات المصرية كانت كلماشئات عنه حقرت من قدره وادعت ان الباحثين فيه جماعة من مختلى الشعور والمدارك . وهذه جرأة ينقبض لها صدر العلم وما حدا بامثال تلك المجلة الى اصدار أمثال هذه الاحكام القاسية بلا محاكمة ولا بحث الا عدم شعورها بالمسؤلية امام العالم القارىء المصرى فان المصريين لم يصلوا بعد الى تعقب الكاتبين ومطالبتهم بنصب الادلة على مايكتبون

نحن هنا سنلم بتاريخ سائر فروع علم ما وراء المادة التجريبي فى جملته ثم ندع لقارئنا الحكم على مقدار تأثيرها على تقوية الاعتقاد بالروح والخلود والوحي والرسل الخ فنقول .

كل العلوم التى سنذكرها كانت معروفة عند كهنة جميع الامم القديمة وكانوا يمارسونها في معابدهم تحت صبغة تناسب مداركهم الدينية . وهى للآن موجودة فى الهند وفى أكثر بلاد الشرق الاقصى وانما جهلتها اوربا وحقرت من شأنها فى القرن الماضي لانها كانت خارجة من حرب دينية هائلة وحاملة على الاديان والروحانيات فى صدرها غمراً لا تطفأ ناره فلما هدأت تلك الزعازع وشعرت الافئدة بنقص مطلوبها من الروحانيات جاشت لطلابها فنشأت تلك العلوم فى اوربا ولكن على شكل راق مؤسس على الاسلوب العلمي الدقيق . وقد كتب الاستاذ كرومويل فارلى رئيس مهندسي شركات التلغرافات الانجليزية الى العلامة الانجليزى الطبيعي «تندل» يقول له : «انا ندرس الآن ماكان قبل الفى عام الشغل الشاغل للفلاسفة . ولو ترجم رجل من العارفين باللسانين اليونانى واللاتينى والواقفين على حقيقة المشاهدات الروحية ماكتبه رجال الماضي لرأينا ان الذى يحصل الآن ليس هو الا طرفاً قديماً من التاريخ يدرسه رجال جريئون لدرجة تعلى مقام أولئك العقلاء الاقدمين لكونهم استطاعوا ان يرتفعوا عن الاوهام الضيقة التى كانت سائدة فى زمانهم ويظهر لنا انهم درسوا هذه المسئلة بتوسع يفوق في اشكاله الكثيرة معلوماتنا الحالية فيها »

هذا الالتفات من قادة العلوم الاوروبية للمباحث الروحانية يمده الاخلاقيون تلافيا لما كان يتهدد الجمعيات المتمدنة من الانحلال تحت تأثير العلوم المادية . كتب الفيلسوف الفرنسي شارل فوفتى فى كتابه « الوحى الجديد - الحياة » يقول « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الروح صارت منابع الاخلاق مهددة بالنضوب وأحست الجمعية الانسانية من نفسها بأنها قد دخلت فى دور الفتن والانحلال الذى يعقبه عادة التلاشي والفناء . ولكن لما أشرقت فى الاذهان هذه الفكرة الجديدة (فكرة المباحث الروحية) وان لم تكن بينة الحدود للآن أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد فى الافكار »

هذه المباحث لا يعتبرها قادة العلوم في اوروبا مثبتة للروح والخلود فقط بل مرقية للعلوم الطبيعية جملة وتفصيلا وفاتحة للمدارك بابا جديداً لزيادة العلم بالوجود . فقد قام العلامة «لودج» الرياضى الانجليزى الشهير فى مؤتمر تقدم العلوم الذى انعقد فى سنة «١٨٩١» وتلا مقالة كان لها دوى كبير جاء منها مشيراً للمباحث الروحية : «ان الحد الفاصل بين العالمين المادى والروحانى قد قرب ان ينهار كما انهارت فواصل كثيرة غيره . وبهذا فسنصل الى ادراك سام على وحدة الطبيعة . وان الاشياء الممكنة لا حد لها كما ان الوجود نفسه لا غاية له ولا نهاية . وان الذى نعلمه الآن منه لا يساوي شيئاً بالنسبة لما غاب عنا علمه . ولو اكتفينا بما اكتشفناه للآن واقتنعنا به نكون قد خنا أقدس الواجبات العلمية »

من هنا يتضح للقراء مقام هذه المباحث فى نظر العلماء أتينا بها «ولدينا منها مئات» لندفع عن علوم ماوراء المادة تلك السمعة السيئة التي ألصقها بها فى هذه البلاد بعض كتاب المجلات تسرعا منهم في الحكم ودفاعا عن المذاهب المادية التي يشخصونها في هذه الامة . وليعلم قراؤنا أنا انما ننقل اليهم علما كما هو نافع لتأييد الدين نافع ايضا لا يقافهم على حركة العلوم الاوروبية فليس من العقل أن نكون مقلدين اوربا في مادياتها دون سواها . فمن أقبح مانراه ان ينادى فحول العلوم فى اوربا بان المذاهب المادية قد لاقت حتفها على يد المذاهب الروحية التجريبية ثم لا نزال نسمع فى بلادنا من يعظم من شأن الماديين ومذاهبهم لحد يصورونهم فيه ملوك الافكار وقادة مرامي الافئدة

لنبدأ بسرد تاريخ هذه العلوم الروحية مبتدئين بها في ابسط أشكالها ثم مرتقين بها

رويدا رويدا الي أرقى مظاهرها معتمدين في كل ذلك على شهادات اكبر علماء القارة المتمدنة ممن لايختلف فى فضلهم اثنان فنقول :

اول ما ظهر من هذه العلوم في اوروبا مسئلة السيال المغناطيسي الحيوانى الذى اكتشفه « مسمر » الالمانى فانه قرر سنة ١٧٧٥ ان فى الانسان سيالا مغناطيسيا لايعرف كنهه ينبعث منه بالارادة ويؤثر على الاشياء والاشخاص تأثيرا خاصا وأخبر انه عالج به الامراض العصبية فنجح . فلم يلتفت اليه أحد من كبار العلماء بل اكتفوا بتكذيبه رسميا فثبت هو وتلاميذه حتى ظهر الطيب الانجليزى «جمس بريد» سنة «١٨٤٠» فبرهن على امكان معالجة كثير من الامراض بالتنويم المغناطيسى ثم لما والى المشتغلون به البحث فيه ظهر لهم ان له فوق خصائصه الطبية خصائص روحانية تعد خارقة للمادة لمضادتها للقوانين الفزيولوجية قال (ج . د ولان) فى كتابه (المذهب الروحى امام العلم) :«ان النوشادر المركز اذا أشممته للمنوم لايحدث لديه اقل تأثير مع ان هذا المحلول اذا شمه الانسان في الحالة الاعتيادية سبب له الموت حالا » وروي هذا المؤلف ان الطبيبين الشهيرين « مارج » و«اسكيرول »من مستشفى سلبتريير في فرنسا أتيا باربع أوقيات من محلول النوشادر المركز واشماه للمنوم بضعة دقائق متوالية وجربا ذلك جملة مرار فلم يشاهدا أدنى أثر من ألم أوضجر عنده فشك أحد الاطباء الموجودين في وجود محلول النوشادر المركز فشمه هو نفسه فمات لوقته

هذه المشاهدات ليست مقتصرة على عدم الحس بل على امور أخرى هامة كالاخبار بالمغيبات ورؤية الاشياء البعيدة والنفوذ الى ضمائر الحاضرين والبعيدين مما لايكاد يعقل لولا انه من المشاهدات المحسوسة الثابتة بالتواتر العلمى

روى الاستاذ «اكزاكوف» مستشار قيصر الروسيا ان امرأة العلامة الانجليزى «دومرجان» اعتادت على تنويم امرأة وارسال روحها الى المحل الذى تعينه لها فقالت لها يوما وهى نائمة « اذهبي الى منزلي الذى كنت اسكنه قديما . فقالت النائمة – قد فعلت وطرقت الباب بشدة » فقالت امرأة الاستاذ فذهبت بنفسى فى اليوم التالى لاتأكد من صدقها فى تلك المسئلة وسألت عما حصل فى تلك اللحظة فاجابنى السكان بانهم سمعوا طرقا

شديدا على الباب فذهبوا اليه فلم يجدوا احدا

يقول الاستاذ « أكزاكوف » عن هذه الحادثة وامثالها انها تثبت بطريقة لاتقبل الشك بان للروح وجودا متميزا عن المادة .

العقيدة بالرسل

اتضح لقارئنا مما استعرضناه أمامه من تاريخ علوم ماوراء المادة ومجموع ماحصله العالم من تلك المشاهدات الروحانية الخارقة للمادة أمر لايستهان به يوجب على أعصى الناس على العقائد ان يعترف بوجود العالم الروحاني وشؤنه وكيف لايعترف بهذه العقيدة وقد اعترف بها أئمة الشكوك في اوروبا واميركا

مجرد هذا الاعتراف بالعالم الروحاني بصرف النظر عن أن تلك المدهشات الروحية منسوبة لارواح الموتى اوغيرهم يكفي لاعداد الفؤاد لقبول العقيدة بالرسل . فان الرسول رجل بينه وبين ذلك العالم اتصال على نحو ارق مما يجربه المجربون فى اوروبا بمالا يقدر . ووجه الفرق ظاهر فان الاوروبيين انما يباشرون هذه التجارب باحثين مجربين تقودهم الشهوة العقلية . فلم يصفوا نفسا ولم يروضوا قلبا ولم يجيعوا لهم كبدا مما عليه الانبياء من السمو الخلقي والرياضات التعبدية فلم يصلوا من الاشراف على العالم الروحاني الا الى مايناسب درجتهم الدانية بخلاف المرسلين فانهم قد انكشف لهم هذا العالم باستعداد فطرتهم وبتخصيص الله تعالى اياهم للرسالة وكانوا مع ذلك على رياضة دائمة وطهارة ملازمة وتوجه بالقلب لاينقطع الى من بيده الامر كله . فلا جرم كانوا يشرفون من عالم التقديس على مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وكانوا يتصلون من عمار ذلك العالم على الارواح العالية والنفوس الزاكية بقدر درجاتهم من الصفاء النبوى

هذه العلوم الروحانية كانت نتيجتها فى اوروبا ارجاع العقيدة بالرسل بعد ان زالت من اوروبا بتأثير التعاليم الاوروبية . وهذا فيكتور هوجو شاعر الفلاسفة العصريين الذى كان يعتقد بمذهب استحضار الارواح قال فى بعض كتبه كما نقلته عنه المجلة الروحية الفرنسية في مجلد سنة (١٩٠٣) م « ان الفطرة المودعة فى صميم الانسان بوجود الله تعالى أتت اليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله جل جلاله) أما الديانة اليهودية

والصابئية والبوذية والمعددة والمانوية والمحمدية والمسيحية فهي من نور القمر لان موسى وبوذا وزردشت واروفيه وكونفوشيوش وماني ومحمد وعيسى هم انواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين فالديانات التي هي اقمار الشمس الالهية وظيفتها افاضة النور على الانسان في غياهب حياته وظلمات بقائه » انتهى

ليست هذه العقيدة برسالة الرسل خاصة بأفراد معدودين فان عموم الروحيين اصبحوا يعترفون بها ويعترفون ضمنا برسالة خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم . من ذلك ماقلته المجلة الروحية في مجلد سنة ١٩٠٣ من ملخص خطبة خطبها فيلسوف الاسبرتزم المنوه (ليون دونيس) في غرفة الزراعة بباريس تكلم الخطيب في اثناء الخطبة على وظيفة رجال القرائح الكبرى في العالم الانساني وعلى مكانتهم في هداية الخلق ثم قالت المجلة : « المسيو ليون دونيس استعرض امام سامعيه كبار الوسطاء بين الملأ الاعلى والعالم الادنى وهم من خلد لنا التاريخ اسماءهم وسرد من اولئك الرجال المسيح ومحمدا الخ »

ونقلت المجلة الروحية ذاتها مقالة للمسيو (سنكس) تحت عنوان (محمد) نقتطف منها مايأتي :

« ان الديانة الاسلامية احدثت رقيا كبيرا جدا في العاطفة الدينية في العالم وخلصت العقل الانساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان ذوي الصبغ الدينية المختلفة » الى ان قال : « أما الاسلام في ذاته فهو في نظرنا (على شرط تخليصه من كل التعاليم التي ألصقتها به الشعوب الطفلة ومن كل الشروح الباطلة التي شرحت بها أقوال النبي محمد) أكبر وأعظم مايدركه الانسان من معنى الدين . وتعاليمه في العلاقات التي يجب أن تكون بين الانسان وخالقه هي اكثر التعاليم انطباقا على نواميس الطبيعة وقوانين العقل الانساني » الخ

هذه النتائج في اوروبا مما لايستهان به فان اوروبا هذه كانت قبل قرن من الزمان من اشد اضداد الرسل وأشياعهم . وقد توالت في القرن الماضي والذي قبله كتابات جارحة ضد هذه العقيدة وكثير منها خارج عن حدود الادب فرجوع هذه العقيدة ثانية عجيب جدا وأعجب منه السبب الذي أرجعها وهو علم ماوراء المادة العلمي الذي ذكرنا لك طرفا

لامنه هنا وأعجب من كل ما مر أن تكون نتيجة ذلك العلم هداية تلك العقول السامية الى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم

أما كيفية أوبتهم الى هذه العقائد فهي انهم لما رأوا من مجموع التجارب الروحية أن وراء هذه المادة المحسوسة عالما عجيب الشأن بينه وبين الانسان علاقة ما وأن فيه عوالم مدركة عاقلة مجردة عن المادة الكثيفة لكن هي أرواح الموتى او الجن اوعالما آخر - لكن كيف كانت فان النتيجة واحدة وهي وجود عالم روحاني فيه ذوات روحانية مجردة عن المادة . لما رأوا ذلك راجعوا تاريخ العالم الانساني فوجدوا حوادثه الكبرى مختلطة بحوادث ماوراء المادة فما من امة الا ولها أساطير وعقائد تقاسمت شؤنها الحيوية ورأوا الكتب السماوية كافة جاعلة تلك العقائد التي من هذا القبيل معتمدها فى الدين فتحققوا من هذه النظرات انهم كانوا ضالين فى دحض الوحى والنبوات والمعجزات . قالوا : اذا كان أحد الناس من ذوى الامزجة الحساسة اذا وقع فى خدر على حالة خاصة اطلع من العالم الروحاني على المدهشات فكيف ينكر على المرسلين وهم اولئك الافراد الطاهرون المكملون الذين اعدهم الله بطبيعتهم للرسالة ان يطلعوا على ذلك العالم بشكل أرقى بما لا يقدر فيأتوا من العلم بما يعز على العالمين

هذه النظرية التي جمعوا فيها بين الواقع المتيقن والتاريخ الماضي دفعتهم دفعا قويا الى الاعتراف بنبوات سائر الانبياء ومن ضمنهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وهي نتيجة كانت غير منتظرة وستحدث من النتائج مالا يخطر الآن تخيلا ولله في خلقه شؤون

من هنا يرى قارئنا اننا في قولنا ان مجموع هذه الحوادث تؤدى بالانسان الى العقيدة بالرسل لم نكل لهم القول جزافا وانما أتيناهم به من طريق القياس وهو قياس طبيعي بعيد عن كل ظنة فانه لا يقال ان الاوروبيين كانوا ميالين للعقيدة بالرسل فقادتهم هذه الحوادث الى تلك العقيدة من قريب . بل الذى عرف عن قادتهم فى القرون الاخيرة أنهم كانوا اشد الناس اباء عن قبولها وأبعدهم عن الاعتراف بالوحى والعالم الروحاني

اذا تقرر ذلك فقد اصبح الاعتقاد بالرسل والكتب والملائكة والروح والخلود والثواب والعقاب الاخرويين مما يمكن الاستدلال عليه فى هذا العصر بالحس الذى هو اسلوب

المصريين وبناء عليه فقد قامت من الله الحجة على الناس وتحقق وعده تعالى في قوله « كتب الله لأغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز »

هنا يمكن ان يسأل سائل فيقول كيف كان ينكشف للمرسلين ذلك العالم وكيف كان ينزل الوحي عليهم وما هي الروح وكيف يكون الخلود والثواب والحساب الخ مما يدخل في هذا الباب . فنقول كل ذلك لاندريه ولايدريه سوانا الا من طريق الكشف ومن ذاقه بالكشف فلا يستطيع أن يعبر عنه بأوضح مما عبر به الله عنه في كتابه فالمذهب الحق هو الاكتفاء بما ورد في القرآن من تلك الشؤون أما السعي في فهمها بهذا العقل الدنيوي الناقص فهو خروج عن دائرة العلم الانساني وضرب في متاهات الظنون والاوهام

الاسلام

ماهو الدين الذي اتحد جميع الرسل على نشره وتخليصه من شوائب ماوضعه الواضعون فيه ، وما شرحه الشارحون له ، عند كل الامم وفي جميع الاجيال؟ هو الاسلام؟

هنا يجمل بنا ان نأتي على نص ما كتبناه باللغة الفرنسية لمؤتمر الاديان الذي قيل انه انعقد فيها سنة (١٩٠٦) في موضوع الاسلام فانه أبين لما نقصده من الكلام على الاسلام من كل ما كتبناه عنه واليك تلك المقالة :

لم اجعل غرضي من مقالي هذا الا امرا واحدا اذا فهم حق الفهم كان أشد في جذب الناس الى هذا الدين من كل البراهين المفحمة والحجج الملزمة ، ذلك الامر هو ان الاسلام ليس بدين جديد جاء لأمة معينة وانما هو الدين الذي اوحاه الله الى جميع رسله فحرفه اتباعهم ثم انزل الى محمد صلى الله عليه وسلم اخيرا لاحداث اصلاح ديني عام لسائر الملل شرقيها وغربيها بعث الله به رسوله حين تعارف الامم واتصالها ليكون دينها العام الذي عليه يتم اتحادها ويصفو لديه تعارفها . ولذلك جعل قاعدته الايمان بسائر رسل الله من نعرف اسماءهم ومن لانعرف اسماءهم وبجميع كتب الله بأي لغة كانت كما سيمر بك تفصيلا . فهم هذا الامر الخطير يفيد المسلم وغير المسلم . فيفيد المسلم لانه يريه انه تابع لا لدين من ضمن الاديان المنزلة المتعادية ، ولكن للدين الاصلي الجامع لسائر الاديان . فهو بهذا الاعتبار يجد

في نفسه قيمة لم يحس بها من قبل لانه يرى نفسه رجلا عاما لا خاصا متبعا دينا هو في نفسه دين الكل وجامع ارواح الكل في أكمل شكل واجمل حال . فمن كان كذلك فلا يتحامل على الاديان لانه أمر بان يؤمن بها كلها وان يكون منها بالمركز الاوسط مكتفيا بما في كتابه من خلاصاتها ومن أدرك من الناس مقامه في هذا المركز الاوسط العام وشعر انه في مجتمع أميال الامم وفي نقطة تلاقي مراميها واتحاد أفئدتها في يوم من الايام فلا يهون على نفسه ان يميل عنه الى نقطة متطرفة ولو سيق اليها بقوة قاهرة

اما فائدة غير المسلم من فهم هذا الامر الجلل فهو لانه يسهل عليه المخرج من ورطته والخلاص من شكوكه وشبهه فانه ما من عاقل من عقلاء الملل الاخرى الا وشعر بان أيدي الخرافات قد امتدت الى أصول عقائده فيجد نفسه مضطراً للتأفف منها راجياً اصلاحها على اي حال كان فلو علم ان الاسلام انما جاء بالاصلاح العام لسائر الاديان البشرية لا انه دين منعزل مثل سائرها لكان التفاته اليه يشبه الامر الاضطراري . لانه كلما آلمه أمر مما يكرهه في دينه وظنه محرفا عن أصله نزع الى ذلك الدين الاصلاحي مضطراً لا مختارا ولا يزال يدفع ويندفع حتى يقع في دائرته

لهذا جعلنا غرضنا من هذه الرسالة هذا الامر الخطير في أظهر أشكاله تاركين الدلالة على فضائل الاسلام لغيرنا ممن في المؤتمر خوفا من ان لا يلتفت لهذه النقطة أحد منهم

هذه النقطة التي حاولت تجليتها في هذه الرسالة هي اظهر ما في القرآن من خصائص الاسلام وهي السبب الاكبر في تهالك الامم على هذا الدين في كل جيل . لان الامم وان لم تدرك هذا السر علميا الا انها تحس به وتلمسه في الاسلام فترى فيه صورة عقائدها الصحيحة منقحة خالصة مما يثير الشكوك والشبه فتميل اليها بارواحها وتنقلب أشد تعصبا لها من أهلها . ولا توجد هذه الخصيصة في اى دين من الاديان لان هذا المركز الوسط ليس لواحد منها ولم يشرع واحد منها لان يكون دينا عاما اصلا فتراها كلها بما طرأ عليها من التحريف على اطراف متناقضة لا محل للتوفيق بينها بوجه من الوجوه مثال ذلك : البوذى لا يهون عليه ان يكون نصرانيا (ولا حكم للنادر) لانه لا محل للصلح بين البوذية والنصرانية

وجه ١٠ فالنصراني يقول ان عيسى كلمة الله وهو الاقنوم الثاني بعد الآب تجسد وعاش بين الناس وصلب ليفتدي العالم كله من خطيئة ارتكبها آدم في اول الخليقة ، ويعتقد البوذي ان الاله فيشنو وهو احد اركان التثليث الهندي قد تجسد مراراً لتخليص العالم من الشرور وقد تجسد اخيراً في بوذا للمرة التاسعة . فكيف يمكن التوفيق بين صاحبي هاتين العقيدتين وبأي مرجح يقبل احدهما عقيدة الآخر ويترك عقيدته التي جمد عليها طول عمره .

ثم لا يمكن ان يكون البوذي يهوديا لان التوراة موجهة الخطاب الى بني اسرائيل ورافعة اياهم على سائر الامم وليس في نصوصها ما يسمح بوضع بوذا الذي يجله مئات الملايين من الاسيويين منذ اكثر من الفي سنة في موضع اجلال واحترام فيعز على البوذي ان يركب في تسفيه رأي اسلافه كلهم هذا المركب . ثم لا يستطيع النصراني ان يكون بوذيا ولا يهوديا لعدم وجود محل للصلح في واحد من هذين الدينين بالنسبة له ولكن جميعهم يستطيعون ان يسلموا بلا حرج لان قاعدة دين الاسلام هي الايمان بسائر الانبياء ومؤسسي الاديان ممن نعلمهم ومن لا نعلمهم قال تعالى عن الانبياء (وان من امة الا خلا فيها نذير) وقال تعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) فيرى البوذي ان الاسلام لا ينكر عليه فضل بوذا بصفته مؤسس ديانة كبيرة وفي نصوصه ما يسمح بحسبانه من الرسل العظام ، ويري النصراني ان الاسلام يذكر عيسى بالتبجيل والاحترام ويضعه في مصاف الرسل الكرام وكذلك يرى اليهودي فيما يختص بموسى عليه السلام . فيسهل على الجميع الاجتماع حول هذا الدين بلا كبير حرج لا سيما ان ادركوا انه جمع العقائد كلها بعد تنقيحها . وجعلها كلها دينا واحدا لانها كانت كذلك في مبدئها (وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم)

لهذا السبب تهالكت الامم على الاسلام لرؤيتها فيه صورة عقائدها منقحة مصححة من هنا رأينا ان تجليتنا هذه النقطة الخطيرة عاميا نظريا يفيد المسلمين والباحثين في الاسلام أكثر مما لو كتبنا في فضائله سفراً كبيراً

قال في تلك المقالة ما ترجمته بتصرف قليل :

لتعذر شخوصي الى بلاد اليابان للتشرف بالانضمام الى اعضاء هذا المؤتمر المبجل ولحبى الشديد فى معاضدة حضرات اعضائه فيما هم بصدده رأيت ان أبعث بمقالى هذا الى حضرة رئيس المؤتمر ليتفضل على بترجمته الى اللغة اليابانية ، وبقراءته على حضرات الاعضاء وجعله موضوعا من المواضيع التي يتناقش فيها المؤتمر فاقول :

ان هناك امراً خطيراً يضع الدين الاسلامي في مستوى يعلو به عن سائر الاديان ، ويستلفت اليه النظار التفاتا خاصا، ويجعله دينا عاما تميل اليه النفوس لا بقوة البرهان ومضاء الحجة وسلامة أصوله من الخلل فقط ، ولكن بقوة النواميس الاجتماعية القائدة للانسانية الى كمالها وبتأثير الحركة الفكرية العامة التى تسوقها الى باحات النور والمدنية

هذا الامر الخطير الذى يستلفت الانظار وينبه الغافلين الى هذا الدين هو ان الاسلام كما نص عليه القرآن ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الاولي الذى اوحاه الله الى المرسلين الاولين رحمة للعالمين . قال تعالى : «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسي وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضي بينهم ، وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لاعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير »

نص الله كما ترى بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرسل ليؤسس دينا جديداً في أمة معينة ولكن ليصلح سائر الاديان مما طرأ عليها بهداية الامم للدين الاصلى الذي أرسل الله به سائر المرسلين «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

بناء على ما تقدم فقاعدة الديانة الاسلامية هي قوله تعالى : « وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا . قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل

الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون (١) من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا . وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون »

هذه هي القاعدة التي بني عليها دين الاسلام وهي ان الاسلام ليس بدين جديد ولكنه الدين الذي ارسل الله به كل رسول ثم حرفه المحرفون من بعدهم ، وان الديانة الحقة هي ان يؤمن الانسان بجميع رسل الله من اولهم الى آخرهم لا فرق بين من ارسل لامته ومن ارسل لغيرها ، وان يؤمن بسائر كتب الله اجمالا مما اوحاه الله الى رسله بأي لغة كانت وفي اي زمان اوحيت

هذه الديانة العامة فضلا عن انها لا تثير في أية أمة من الامم حب الذات ولا الحقد ستكون في يوم من الايام الديانة العامة اضطرارا لا اختيارا . لانه لماذا يكون الانسان يهوديا ولا يكون بوذيا ؟ أو لماذا يكون مسيحيا ولا يكون برهميا ؟ وبأي مرجح يعتقد الانسان ان موسى كان رسولا من الله الى بني اسرائيل وقد جاء بكتاب مبين ونور عميم الى أمته ولا يعتقد مثل هذه العقيدة في بوذا وزرادشت وبراهما ومحمد وكل المرسلين الذين تقدموا هؤلاء وجاؤا الى اممهم بكتب هادية الى الخيرات ونهجوا لهم سبلا موصلة الى الكمالات ؟ هل يعقل ان الله يرسل موسي إماما ورحمة الي بضعة آلاف نفس من بني اسرائيل ويترك مئات الملايين من الصينيين واليابانيين وسائر الاسيويين والافريقيين والاستراليين وغيرهم بلا علم ولا هدي ولا كتاب منير ، يهيمون في الظلمات ويعمهون في الضلالات بلا مرشد ولا رسول كريم ؟ هل يتصور ان الله وهو الخالق العادل المنزه عن المحاباة والمصانعة يوحي حقائق الدين الى بضعة آلاف من الناس ويترك ربوات الملايين في الظلام البهيم والفساد العميم ؟

(١) اى من نعلمهم ومن لا نعلمهم لان لكل امة بعث الله رسولا كما قال تعالى « وان من امة الا خلا فيها نذير »

كلا ! بل قال تعالى «وان من امة الا خلا فيها نذير» وقال تعالى «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك» . من هنا يتضح ان الله أرسل لكل أمة رسولا وكتاباً وجمعهم على دينه قروناً وأحقاباً . وها نحن في زمان أخذت فيه الامم تتعارف لتبادل الافكار والعلوم والمرافق الحيوية ، وأخذت نواميس الحياة تسوقها سوقاً الى وحدة العقائد كما وحدتها فى المدركات العلمية والعملية . من هنا حدث شعور عام بضرورة وجود دين عام . وكيف يمكن ان يكون للانسانية دين عام وجميع الاديان التى امامنا تكلف تلك الامم بالانخلاع من شخصيتها التى اكتسبتها فى عشرات من القرون والتقمص بشخصية جديدة تعادى معها دينها السابق وتكفر بسائر أنبيائها وتعدهم كذابين مزورين ، وتحتقر جميع مقدسيها وأقدميها . لاجرم ان أمثال هذه الاديان المحرفة لا يستطيع احدها ان يكون ديناً عاماً مطلقاً ما دام لم ينظر لمجموع الانسانية كلها بنظر الملم بأحوالها المراعي الحكمة فى تكليفها . على ان في محاولة هذه الاديان خلع من يتمسك بها من كل ما كان يعتقده قبلا ودفعه للكفر بجميع ما كان فيه يعد جوراً وميلا عن الحق الظاهر . لانه ما الذى يرجح للانسان ان يعتقد بعيسى ويكفر ببوذا مع العلم بأن الاثنين اسسا ديناً وجاءا باصلاح كبير واتبعهما خلق كثير وكانا سواء فى الصلاح والتقوى وحب الانسانية ؟ وما الذي يرجح له ان يحترم الأناجيل والقديسين النصارى ويحتقر كل ماله علاقة بديانة بوذا مثلا ؟

لا شك انه لا مرجح يحمل الانسان لأن يعتقد برسول دون رسول وبكتاب سماوى دون كتاب آخر كوّن أمة وأحياها الا الجور في الحكم والميل مع الوراثة والتقليد . فالعدل كل العدل ان يعتقد الانسان بكل رسول أرسله الله للامم مستدلا على رسالته بآثاره وأعماله وتاريخ حياته ، فيؤمن بجميع رسل الله اجمالا وبجميع كتبه جملة تاركاً التعصب الذميم والانتصار لاحد المرسلين دون الآخرين ، جاعلاً دينه قوله تعالي «آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسي وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون»

هذا هو الدين الحق العادل العام الصالح لان يجمع كافة الشعوب والامم ويؤاخي بينهم ويرضيهم جميعاً وينزع من قلوبهم العداوة والبغضاء والسخائم القديمة الموروثة بسبب

كفر بعضهم بانبياء بعض واحتقار بعضهم لكتب بعض

هنا تنجم مشكلة تعوز حلا مقبولا وهي ان جميع الكتب الدينية التي بايدي الامم محرفة مبدلة وقد تولاها رجال بالشروح والتأويلات حتي خرجت بها الاديان عن أصولها وصارت كلها متناقضة تسمح للملحد أن يقول : اذا كانت الاديان كما تزعمون وحيا من الله فلماذا تجدها متناقضة متعاكسة ، فاما انكم حرفتموها عن أصولها واما انكم كذبتم على الله بنسبتها اليه لانه لا يقال ان الله ينزل على قوم دينا يعلمهم فيه انه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله منزه عن الجسم والجسمانيات لا تحيط به الافكار ولا الظنون ، ثم يوحي الى آخرين دينا يقرر لهم فيه ان له ثلاثة اقانيم وانه ارسل ولده ليفتدى العالمين ، ثم يوحي الي امة اخرى بانه تجسد في جسد فلان وحل في جسم فلان الخ مما لا يمكن التوفيق بينه بأى وجه من الوجوه

هذه معضلة لا يحلها الا أحد أمرين : اما الاعتقاد بأن هذه الاديان محرفة أو بانها ليست وحياً من الله ولكنها من افكار من وضعها من الاقدمين . أما القول بانها من موضوعات الاقدمين فلا ينهض به دليل لان أولئك الرجال الفضلاء الكاملين الذين دلت حياتهم على فضل وتقوى وزهد وعبادة ، الذين قالوا نحن رسل الله جئنا بدين الله يبعد ان يكونوا من الكاذبين المزورين ، لان التزوير لا يولد فضيلة ولا ينتج كمالا ولا تقوى . (انظر ما قلناه عن محمد صلى الله عليه وسلم) اذن لم يبق امامنا الا الفرض الثاني وهو ان هذه الاديان حرفت عن أصولها وان أصلها كلها واحد

ان وصلنا الى هذا الحد قلنا : ها هو رسول كريم أرسله الله رحمة للعالمين دلنا بتاريخ حياته من أولها الى آخرها في زهده وعبادته وتواضعه وبعده عن زخارف الدنيا على انه واحد من أولئك المرسلين جاءنا يقول عن الله تعالي «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما»

جاء هذا الرسول يقول عن ربه : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين

وما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم وان الذين أوتوا الكتاب لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم . الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير »

هذا الرسول الكريم امرنا بالايمان بجميع الانبياء والمرسلين وبكتب الله اجمعين ، وجعل ذلك قاعدة ديننا وعمدة ايماننا ، ثم امرنا بالخير كله ونهانا عن الشر كله وعرفنا سبل الكمال وأمات فينا نزعة الحقد والتعصب الممقوت وشرع لنا نا. وس الاخلاق ونهج لنا طريق الكمالات . فاي ديانة غير هذه الديانة يمكن اتباعها والعمل بها فى هذا العصر الذى كثرت فيه الشكوك على الاديان واصبح فيه علم اللاهوت عدواً لتلك المقالات التي يوردها اصحاب الملل فى الله جهلا وتقليداً لافكار السابقين ؟

* *

بعد ما أشرنا الى هذا كله فى مقالتنا الى مؤتمر الاديان فى اليابان اشرنا الى نقط أخرى اشارات موجزة وكلها نقط تستلفت الى الاسلام نظراً خاصاً وتوجه اليه الافئدة توجهاً اضطراريا وذلك انا قلنا :

(اولا) الاسلام آخر الاديان الموحاة وهو بهذا الاعتبار اصبح له امتياز على سائر الديانات لان للاخير من كل شي مزية ليست للمتقدمه

(ثانيا) صرح الكتاب بان محمدا رسول الاسلام آخر المرسلين وانه أرسل للناس اجمعين قال تعالى « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وقال تعالى «وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » وهذا مالم يصرح به كتاب منزل حتى الموجودة بين أيدينا للآن . فقد يؤخذ من كتاب بوذا انه ارسل لاصلاح ديانة البراهمة . وصرح كتاب موسي انه ارسل لبنى اسرائيل . وكذلك كتاب عيسى صرح بأنه أرسل الى بنى اسرائيل ايضاً . وهذا ايضاً مما يجب ان يستلفت النظر لدين الاسلام ونبي الاسلام ويجعل له مزية على غيره من الاديان

(ثالثاً) لما كان الاسلام ديناً عاماً شرعه الخالق لربط الشعوب أبيضها واصفرها واحمرها وأسودها محا الله امتيازات الاجناس والعناصر وقضى على العصبيات ، وقرر مبدأ المساواة العام وصرح بأن الانسانية كلها عائلة واحدة ابوها آدم وأمها حواء وأنها ما صارت شعوبا وقبائل للتنازع والتقاتل ولكن للتعارف وتبادل المنافع . قال تعالى مخاطبا النوع الانسانى كله « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم »

(رابعا) كتاب الاسلام لا يقصد بالنصح والارشاد أمة خاصة ولا شعبا معينا وانما يخاطب النوع الانسانى باسره لانه دين عام كقوله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبيناً » وقوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم »

(خامسا) القرآن الكريم فيما يختص بالتشريع والاخلاق وهيئة الاجتماع لا يحتوى الا على أصول اولية وقوانين كلية تاركا الجزئيات لاجتهاد اهله يستنبطونها على حسب الزمان والمكان من كتاب الله وسنة رسوله . مثال ذلك قد آتانا الله فيما يختص بالشريعة مبدأي العدل المطلق والمساواة فقال تعالى : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » وقال تعالى عن مبدأ المساواة « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » ثم على المسلمين ان يكونوا لانفسهم شريعة عادلة مستمدة من هذين الاصلين وما ماثلهما من أصول الاخلاق من الكتاب والسنة مراعين فى تكوين شريعتهم احوال الزمان والمكان والاحتياجات . وقد قام المسلمون الاولون بذلك فى القرن الثاني والثالث من الاسلام وما وقفت حركة الاجتهاد الا للضعف الذى طرأ على الامة . على ان باب الاجتهاد مفتوح الى يوم القيامة لمن تتوفر فيهم شروطه من العلماء العاملين والائمة المطلعين

(سادسا) التسامح الدينى من اصول هذا الدين الحنيف وقد شيده الله على قواعد علمية عالية لا تدع للحقد الدينى محلا فى نفس المؤمن . تلك القواعد العلمية هي تعليمه لنا بأن الحكمة الالهية قضت بأن النوع الانسانى يكون مختلفا فى عقائده على حسب عقله ونظره .

قال تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » وان الانسان لا يستطيع ان يهدى الى مذهبه احدا الا باذن الله حتى ان الله قال لنبيه : انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدى من يشاء » وقال تعالي « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على قلوب الذين لا يعقلون » وان لا احد له السيطرة على غيره فى عقيدته قال تعالى « لست عليهم بمسيطر » « لست عليهم بجبار » « لست عليهم بوكيل » فمتي علم المسلم ان اختلاف الامم فى الاديان شيء يريده الله لحكمة عالية وانه تابع لدرجة العقول والمدارك وان الانسان لا يستطيع ان يهدى احدا الا باذن الله وان لا احد بمسيطر على غيره وليس له ان يكره احدا على الايمان انمحى اثر الحقد الدينى من صدره وحلت محله رحمة عالية مستمدة من الرحمة الالهية فينساق الي معاملة اهل الاديان الاخري الذين لم يقاتلوه ليخرجوه من دينه او دياره واهله بالعدل والقسط كما قال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم (اى تكونوا بارين بهم) وتقسطوا اليهم (اي تعدلوا معهم) ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا علي اخراجكم ان تولوهم (اي ان تتخذوهم اولياء او احبابا) ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون . » هذه الآية تمنع المسلمين من ان يتخذوا الذين يقاتلونهم ليخرجوهم من دينهم أحبابا ولكن لا تأمرهم بان يظلموهم او يسيئوا اليهم ضد العدل بوجه من الوجوه قال تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى » اي ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على ظلمهم بل اعدلوا معهم هو اقرب للتقوى . ووصى الله المسلم بالعدل حتي في مواطن القتال فقال تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

نقول هذا عدل الهى ونور رباني وحكمة عالية افاضها الله على هذه الامة لم تسبق بها امة من أمم الارض غابرها وحاضرها ومن كابر فليثبت .

(سابعا) قرر الاسلام حرية الاعتقاد وهو اصل مدنى لم يظهر فى أوروبا الا فى القرن الماضي بواسطة الثورة الفرنسية قال تعالى « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن

ومن شاء فليكفر » فكل انسان حر في ان يتخذ لنفسه الدين الذى يختاره بعقله وارادته

(ثامنا) ليس في الاسلام هيئة رئاسة دينية بيدها الحل والعقد في أصول الدين وفروعه وحمل الناس على اتباع ما تقرره على نحو ما عليه الحال في الاديان الاخرى

(تاسعا) الاسلام هو ان تبرأ الى الله من علمك وحولك وموروثاتك وما علمت وما تخيلت وما املت ، مسلما وجهك اليه ، مجردا روحك له . تاركا العلم وأصوله والفلسفة ومشاكلها والعادات ومآخذها والاديان وتخالفها والامم وتنابذها وأهواءك ومواطنها والوجود وما فيه ثم تتوجه بقلب خاشع وضمير صاف ونفس نقية الى قيوم السموات والارض ، فارا اليه من الاغيار ملتجئا الى جنابه من دعوى الانانية والاستقلال . معتصما بحضرته من التلونات البشرية والاحوال ، راغبا اليه ان يوفقك ويهديك لمراشده ومراضيه في دنياك وأخراك . هذا هو معنى الاسلام الذى قال الله عنه « ومن أحسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن » وهو دين سائر الانبياء والمرسلين

هذا هو الدين الذي أرسل الله به سائر الانبياء والمرسلين وقد رأيت انه تطهير للنفس من سائر تقاليدها واوهامها وموروثاتها والفرار الى الله نقيا خالصا من التقليدات والجمود . وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام (كل مولود يولد على الفطرة وانما ابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه) اى ان كل مولود يولد خالي الذهن من كل عقيدة وراثية ومن التقليد لمذهب من المذاهب ليس فيه أثر للتعصب لشىء دون شىء وهذه الحالة هي التي يريدها الله لاهل دينه ليتأهلوا بها لقبول النور ولكيلا يكون بينهم و بين الله حجاب من التقاليد والموروثات الباطلة ومن هنا سمي الاسلام بدين الفطرة وقد امر الله الانسان به فقال (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله الذى فطر الناس عليها) اي ان هذه الحالة النقية الخالصة من كل الخرافات والتعصبات هى مبدأ الدين الفطرى الذي فطر الله الناس عليه . ومعنى بقية الحديث المتقدم ان الآباء هم الذين يتولون الطفل الصغير فيجعلونه يهوديا ان كانوا يهودا ونصرانيا ان كانوا نصارى ومجوسيا ان كانوا مجوسا وليس المطلوب ان يكون الانسان يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا ولا مقيدا نفسه بقيد لان الترقي يكسر كل قيد يفك الانسان من كل تقليد بل المراد ان ينقي الانسان نفسه من شوائب التقاليد كلها

على طريقة الاسلام التي مرت بك هنا ، ثم يجعل دينه دينا عاما شاملا لدين الانسانية كلها من غير تعصب ولا جمود ولا انتصار لرسول دون رسول ولا لكتاب دون كتاب قال تعالى : « وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » اي ان ديننا هو ما قاله ابراهيم « إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين » ثم ارانا الله كيف تدين بدين الانسانية العام الذى ينمحي فيه كل تعصب ويلين معه كل جمود ويتآخى الناس عليه إخاء ليس بعده عداء وهو « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون »

هذا هو الاسلام الذى جعله الله دين رسله وأصفيائه ومقدمة لافاضة انوار علمه عليهم . وهذا هو الاصل الذى نرجو ان يرجع اليه العالم كله لان الفطرة السليمة تتأدى اليه من تلقاء نفسها ويرضاه العقل بمجرد تصوره بلا تردد فالاسلام بهذا المعنى غير قابل للخلاف ولا للتأويل ولا للتحريف فلا يمكن ان تتفرق عليه امة الا اذا خرجت منه الى غيره وزعمت أن ماهي فيه هو الاسلام ظلما وزورا

(عاشرا) الاسلام عدو التقليد والجمود والتعصب للوراثة قال تعالى « وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون . قال او لو جئتكم بأهدي مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا انا بما ارسلتم به كافرون »

قضي الاسلام على التقليد والمقلدين وسلبهم العقل والروية ، وحكم عليهم بما هم اهله من الاحكام المزرية ونصحهم بالنظر في الكون وتعرف اسرار الخليقة والطبيعة ليخرجوا من الجمود الذى هم فيه ويفكوا انفسهم من الأسر لرجال مثلهم او لكتب ألفها جهال الاقدمين قال تعالى « قل سيروا فى الارض فانظروا » وقال تعالى « افلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التى في الصدور »

(حادى عشر) جاء الاسلام والناس فى اهواء متفرقة وملل متشاكسة وعصبية قوية

فتبع الرسول افراد يعدون على الاصابع كانوا يخافون ان يتخطفهم الناس حتى قال قائلهم : اترى يجيء علينا حين نعبد الله فيه لا نخشي غيره فانزل الله على رسوله قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضي لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدرننى لايشركون بي شيأ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون

وقد تحقق هذا الوعد الالهى وانتشر ملك الاسلام الى اقصى الارض ثم وعدهم بعد ذلك بان هذا الدين سيظهر في يوم من الايام على سائر الاديان وسيكون له شأن بين بنى الانسان قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتي يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شهيد »

هانحن فى انتظار ذلك الوعد وقد بدت بوادره وظهرت اشراطه وجاء العلم فاستل من الصدور السخائم القديمة واغرى الانسان بتلمس الحقيقة ولو من فم اعدى اعدائه. وهذا دين ان لم يدع اليه الداعي تحمسا له دعا اليه حبا فى الانسانية ورحمة بعباد الله لان به وحده تزول احقادهم وتتآخى آحادهم وتزول من بينهم تلك التعصبات المذهبية الباطلة وينكسر ذلك الحائل الشيطانى الذى فصل اصحاب الملل وجعلهم اعداء متنابذين . هذا هو الحق المبين « ولتعلمن نبأه بعد حين »

﴿ الاديان في نظر القرآن ﴾

الاديان كما هى عليه اليوم بكتبها واساطيرها هي مجموع أقوال رؤساء المعابد علقوها شرحا على الوحي الالهى اوكتبوها بايديهم وزعموا انها وحى من عند الله .. ولو كانت وحيا كما يقولون لاتحدت جميع الاديان في اصولها وفروعها لأن إله الكل واحد . ولا يعقل انه يوحى الى أمة خلاف ما يوحيه الى الاخرى . ومما يدل ان تلك الاديان المتنابذة قد دخلها من التحريف ما افسدها انك تجد كل أمة اتبعت عوائدها وموروثاتها وطبعت دينها بطابعها وزعمت ان اولياء الله واهل كراماته ممن تدعي انهم حفظة الوجود وحملة الاثقال ومصرفة الامور هم من أهل ملتها دون غيرهم كأن كل العالم لا يعد بجانبها شيئاً يذكر . وكأن

الفضيلة والدين خلقا وقفا لها . هذا كله من اقطع الادلة على ان كل أمة لاتدين بالاسلام وهو الدين العام الذي رأيته في الفصل المتقدم تصوغ دينها على قالب أهوائها وتفسر كتبه على ماتقتضيه أوهامها. وقد علمت الفلسفة العصرية ذلك كله فقامت تدحضها كلها وتثبت بالادلة تحريف كتبها وتنعي على اهلها سوء حالتها وجمود قادتها وتتلتل بهم الى الخلاص من آصارها واطراح اوزارها والهرب بالنفس والعقل الى عالم الحرية لتنشق النفس نسيم الحياة بمعانيها المختلفة لتستقيم على الجادة المثلى وقد سبق القرآن الحكيم العلم الى نشر هذه الحقائق فقرر ان ايدى الرؤساء قد عبثت باصول الاديان فحرفتها وان اقلام المؤولين قد عدت على قواعدها فبدلتها فقال تعالى عنهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله »

فان قال قائل : قد صرح الله عز وجل في القرآن بان القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب ووصفها بانها انزلت هدى ورحمة ونورا في غير آية. بل دعا الله اهل الكتابين ليقيموا التوراة والانجيل ويسيروا على ماجاء فيهما . فكيف يتفق ان يكونا محرفين مع الامر باقامتهما ووصفهما بان فيهما هدى ونورا ورحمة ؟

نقول ان الله امر اهل هذين الكتابين باقامتهما ويريد بالكتابين الوحي الذى انزله على رسوليه موسى وعيسى .اما الكتاب الذى يقول عنه اليهود انه التوراة فليس هو محض الوحي الذى انزل الى موسى لانه اشتمل على ذكر وفاته وذلك يدل على انه كتب بعده وقد اشتمل فيما اشتمل عليه على تاريخ المصريين والبابليين والاشوريين والفنيقيين والكلدانيين فهو ليس بالتوراة التي يعنيها الله تعالى وان كان لا يخلو من آيات منها منثورة في اطواء تلك الاقاصيص المختلفة .

وكذلك الكتاب الذى يسميه الله بالانجيل ليس هو الاناجيل الاربعة الموجودة بين ايدى النصارى اليوم لان الذى يريده الله تعالى هو الوحي الذى القاه الى عيسى لاترجمة حياته مكتوبة بايدى بعض تلامذته وان كانت تلك الكتب لاتخلو من آيات مما جاء به عيسى من عند الله

فاذا رأيت القرآن يقول انها انزلت رحمة ونورا فقد كانت كذلك ولكنه رجع فحكم

تحريفها في كثير من الآيات وهل تريد دليلا على انها محرفة من ان توراة اليهود تخالف توراة النصارى وانجيل يوحنا يخالف انجيل متى وكلاهما يخالفان الآخرين في أكثر من موضع ؟ وهذا لا ينافي ما جاء من الامر باقامتهما فان ماجاء في اثناء عبارات ذينك الكتابين من بقايا الوحي يكفي لو اقيم في هداية الآخذين بهما الى الاسلام والتصديق بالنبي عليه الصلاة والسلام

اما كون القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب فهو مجرد اثباته ان الانجيل والتوراة وسائر ما نزل قبلهما كتب إلهيــة اوحيت الى رسله الكرام وان كانوا حرفوا وخرجوا عن اصولهم

ولكن هل امرنا الله بازاء هذا العلم ان نحقر لهم أديانهم او نسب كهانهم اونحكم عليهم بالعذاب في الآخرة ؟ كلا بل أمرنا الله ان نحسن اليهم وان نعدل معهم وان نجادلهم (اذا جادلناهم) بالتي هي أحسن قال تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على اخراجكم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين»

الناس في نظر القرآن

الناس في نظر القرآن ثلاثة اقسام: (١) مسلمون وهم المؤمنون بجميع رسل الله وكتبه وقائمون من الدين على طريق الفطرة والاعتدال (انظر فصل الاسلام) (٢) وأهل الكتاب كاليهود والنصارى وهم الذين لهم كتاب سماوي (٣) والمشركون وهم الوثنيون والملحدة من سائر الامم . وقد جاء القرآن بأحكام عامة تشمل كل هذه الاقسام، واحكام خاصة تخص كلا منها على حدته

اما تلك الاحكام العامة فهي انه تعالى رب العالمين كلهم اي مربيهم ومتوليهم بالتهذيب والتكميل فهو ان ارسل رسولا لامة فانما يرسله لافرادها كافة لا لأسرة دون اسرة . ولا لبطن دون بطن . وقد خاطب الله الناس كافة طائعهم وعاصيهم فقال: «يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبينا» وقال تعالى: «قل يا أيها الناس انما بغيكم

على انفسكم » وقال تعالى : « يا أيها الناس ان زلزلة الساعة شيء عظيم » الخ الخ فمن أجاب داعي الله خصه بالكرامة ومهد له أسباب السلامة كائنا من كان ، عبدا او حرا فقيرا او غنيا شريفا او وضيعا . ومن عاصاه وشاقه ابلغ له في الملامة وانذره بالندامة يوم القيامة كائنا من كان كذلك . ومما يدلك على شدة عناية المولى بجميع عباده على السواء ان اكثر الكلام الالهى موجه الى الكافرين والعصاة ترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيدا الى غير ذلك من اساليب الاستمالة والتقريب

فالمسلم المطلوب منه التخلق باخلاق الله يجب عليه ان ينهج هذا المنهاج فى معاملته للخلق فلا يألوهم نصيحة ولا يدخر عنهم موعظة ولا يقصر لهم فى التربية والتكميل بالوسائل الممكنة على حسب الاحوال المناسبة قال تعالى « وادع الي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين »

ومن تلك الاحكام العامة (العدل) فان الله شامل جميع عباده فى ظلال عدله فلا يظلم احدا لا فرق فى ذلك بين مسلم وكافر . فمن عمل صالحة للدنيا وجدها فيها ومن عمل صالحة للاخرى وكان مصيبا فى الوجهة انتهى اليها وتمتع بثوابها : « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لذلك نرى من الناس من يكفر بالله وهو متمتع بخير الدنيا مغمور فى نعيمها ومنهم من هو مؤمن به ولا يكاد يجد قوت يومه ، كل ذلك أثر من آثار العدل الالهى . فان الاول وان كفر فى عقيدته فقد أحسن فى ادارة أعماله واتقان أسلوبها فاثابه الله على قدر اجتهاده . واما الثانى فانه وان آمن بالله حتى وصل الى مرتبة الصديقين الا انه أهمل اتقان عمله فلا يجنى من وراء ذلك الا العدم والفاقة قال تعالي « وكلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا »

هذا العدل الالهى سار بين الامم فى مجموعها كما هو سار بين الاشخاص على انفرادها . فان الامة الكافرة ان جدت واجتهدت ونهجت نهج النظام والاعتدال في امورها وصلت من الرفعة والسؤدد الي أعلى مقام ولا يمنعها الله بسبب كفرها ان تسود على امة مؤمنة اذا كانت لا تساويها فى النظام لان الله منزه عن المحاباة قال تعالي للمؤمنين « ليس بامانيكم ولا امانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به »

المسلمون في نظر القرآن

المسلمون هم افراد الجامعة الاسلامية اوجب الله عليهم ان يكونوا اخوانا متراحمين متساعدين متحدين ، يألم كل منهم لألم أخيه وان كان في اقصى مكان من الارض ويفرح لفرحه وان لم تكن بينهما علاقة ، يدا واحدة على الاعداء لا يهدأ لشعب من شعوبهم بال ولا يطيب لهم عيش حتى يأخذوا بيد اخوانهم ان اصابهم حيف او نزلت بهم نازلة ، معتبرين انفسهم ابناء اسرة واحدة وان كانوا متباينين في البلدان واللغات ليس لهم عزوة غير الدين فهو اصلهم الذي اليه يمتزون ، وعزهم الذي به يعتزون ، لا يظلمون ولا يظلمون ، ولا يفسدون في الارض ولا يعبثون .

الخلاصة ان القرآن يحتم على المسلمين ان يكونوا اخواناً تجمعهم وحدة الدين التي رباطها تقوى الله وتجنب محارمه بدليل قوله تعالى «الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين» لانه لا خير في اتحاد على باطل او في مناصرة على هوى . امرهم بالتواصي بالحق وبالصبر في مواطن الشدة فوصفهم بانهم «الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»

كتب عليهم ان يكونوا يداً واحدة على من عاداهم وان يتعاونوا على كبت من ناواهم ولكن اذا كان مرماهم غرضاً شريفاً او غاية حسنة . قال تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» وامرهم الله بعدم العدوان حتى في مواطن الحرب امام اعدى اعدائهم فقال تعالى «ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين» «فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين» «ولا يجرمنكم شنآن قوم (١) على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى»

فيجب ان يكون قوام وحدة المسلمين الكمال المطلق والفضيلة الصحيحة حتى مع اعدى اعدائهم الذين لا يراعون معهم عهداً ولا ذمة. فعليهم ان يهتدوا وعلى الله ان يكملهم. قال تعالى : «لا يضركم من ضل اذا اهتديتم»

---

(١) لا يحملكم عداوتكم لقوم على ان لا تعدلوا معهم ، اعدلوا هو اقرب للتقوى

وعدهم الله على هذه الخلائق العليا خلافته على الارض والتمكين لهم في الامم واعزاز الكلمة وحفظ الحوزة فقال تعالى : «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»

كمل الله هذه الأمة بهذه الخلال الكريمة وهيأ لها السير على منهاج رسوله صلى الله عليه وسلم فاستحقت منه هذه الشهادة العليا وهي «كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» وجدير بمن استحق هذه الكرامة ان يكون علما يهتدى به غيره وشهيدا على انحراف سواه وقد أيد الله هذه الكرامة لهم بقوله «وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس»

ثم خولهم بعد ذلك حق تأديب العالم وارجاعه عن غيه وكبت الجبارين الذين ادعوا ان لهم مقاما فوق مقام العامة وتخليص الامم من آصار التقليد والجمود والعبودية ومحاربة الظلم انما كان حتى لايكون هناك دين اعلى كلمة من دين الله قال تعالى : «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»

هذا هو المطلوب من كل مسلم وقد توعد الله صدر هذه الامة بانهم ان لم يضطلعوا بهذه الوظيفة السامية ويحسنوا القيام بها استبدلهم بغيرهم ممن يقوون على تحمل هذه الاعباء الجليلة فقال تعالى «فان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم»

هكذا فهم المسلمون الاولون دينهم فنهضوا نهضة رجل واحد يحققون امر الله حتى كنت تسمع كلمة الاخلاص يقولها الرجل في اقصى بلاد المغرب فيرددها اخوه باقصى بلاد المشرق، وعد العالم ظهور الاسلام حادثا من الحوادث الالهية الكبرى بل عد كل مسلم نفسه حادثا جللا وعاملا قويا من عوامل القدرة الالهية وردت الى هذا العالم لتؤدي عملا كبيرا ثم ترحل الى جانب التقديس في الرفيق الاعلى

الكافرون في نظر القرآن

الكافرون هم الذين لم يقبلوا هدى الله المنزل على خاتم انبيائه محمد صلى الله عليه وسلم.

وهم بازائنا اصناف (١) داخلون فى ذمتنا ومحكومون بحكومتنا وهؤلاء لهم علينا الحماية فى العرض والنفس والمال والعدل امام القضاء قال تعالى: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يظاهروا على اخراجكم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين» (٢) وخارجون عن ذمتنا ولكن بيننا وبينهم عهد فنحن امامهم على الوفاء ما داموا مراعين شروط العهد قال تعالى: «يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود» «واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا» (٣) ومحاربون لنا وهؤلاء نعطيهم السيف مراعين في التنكيل بهم الرحمة وتقوى الله قال تعالى: «ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب»

وان وقع فى ايدينا اسرى منهم فيوجب علينا القرآن معاملتهم بالحسنى والرفق

ومن كان ممن لا يدين بالاسلام من الناس عائشاً معنا فى بلد واحد وهم لا تحت ذمتنا ولا معاهدين لنا ولا محاربين فنحن معهم على ما يقتضيه السلم من البر اليهم والعدل فيهم

ورد فى القرآن ما يدل ظاهره على ان الله تعالي يكيد للكافرين ليوقعهم فى الضلال، ويستدرجهم بالخيرات والبركات، ويفتنهم بالاموال والبنين ليلقيهم فى العذاب المهين، وانه يمدهم في الغي، ويبارك لهم فى البغي، ليأخذهم اخذاً وبيلا، وينكل بهم تنكيلا، ويذيقهم عذابا ثقيلا كقوله تعالى «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، واملي لهم ان كيدي متين»

كل هذه الآيات يدل ظاهرها على ان الله يريد ان يوقع الكفرة فى المعاصي لينتقم منهم والله منزه عن ذلك وعن كل ما يوهم الجور والمكر، والتحقيق فى هذا الموضوع انه ليس المراد بامثال هذه الآيات ما يدل عليه ظاهرها والا لما بالغ لهم فى النصيحة ولما كشف للكافرين من عباده ما اعده لاعدائه من بلائه، ومن كان الايقاع بعدوه من مراده، لما فاتحه بما اعده له من عتاده، والمشاهد ان الله لم يدع في كتابه اسلوبا من اساليب التذكير والموعظة الا اتى به فى ابلغ عبارة واشدها تأثيراً على النفس. وبناء على هذا فيكون المراد من هذه الآيات تلوين الزواجر بألوان مؤثرة على النفوس وتنويع المواعظ فى اساليب تأخذ باكظام الاهواء، وتدفع الافئدة الى طريق النجاء، وقد نجح القرآن فيما تصدى اليه ابلغ نجاح فهو اكبر الكتب تأثيرا على النفوس

واشدها اثارة لعوامل الخير في الافئدة وسيكون ذلك صفته المميزة حتى تقوم الساعة

الانسان في نظر القرآن

الانسان اكرم الكائنات على الله، خلقه في احسن تقويم، وتولاه بالالهام والتعليم وحلاه بالعقل الكريم، والقلب السليم فقال تعالى «انا خلقنا الانسان في احسن تقويم» واعده لشرف خلافته في الارض فقال تعالى (اذقال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) وهو وان كان مخلوقا من الطين الا انه منح من شرف الروح ماتقصر دونه الخواطر، وتعيا عن ادراكه المدارك، وناهيك بروح نسبها الله الى نفسه، واسجد لحاملها ملائكته، فقال تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)

بهذه الروح امتاز الانسان عن سائر عوالم الطبيعة وصار عالما وحده، حاصلا على القدرة في استخدام الوجود وتسخيره، وقد امده الله بما يناسب مطامحه من حول وقوة، ووطأ له اكناف الكائنات وذللها له. قال تعالى: «سخر لكم ما في الارض جميعا منه» ولكنه مع هذه المنح كلها ضعيف الجسد تؤلمه النسمات، واهن الجلد تستفزه الخطرات، شديد الهلع تستطيره الهواجس. قال تعالى: «وخلق الانسان ضعيفا» ثم هو بين احد امرين: اما ان يجنح الى مادته، ويقف مواهبه على عبادة شهوته، فيكله الله الى نفسه، ويأسره لبشريته، فتنقلب مزاياه شرا، وتنعكس خصائصه وبالا، فيصبح نهما بالمطالب، شرها بالرغائب، حشواهابه مطامع، وملء جوانحه حوائج، يبيت اسير آماله، ويمسي عابد احلامه، فينسى ربه ويجهله ويتبع ذلك جهله لروحه وحبسه لها في دائرة جسمانه، فينقلب حيوانا وليس بحيوان، ويكون امره على اقصى ما يبلغه العجب من التناقض والذبذبة فيتقمص صفات متضاربة تجعله في دائرة بعضها وبال على جوهره فما بالك بمجموعها؟ فهو بين يأس لاحد له، يشوبه امل يقيمه ويقعده، وشح يضرب به المثل، يجانبه اسراف يعرض ماله للخطر، وحب للحياة يستعبده للجبن، بازائه اقدام يهجم به على التهلكة، وهو فوق ذلك بطر كفور كنود ساه لاه احمق نزق عنيد الخ من الصفات السافلة واجدر بمثل هذا الانسان ان يصم نفسه بانه في احط منازل الخليقة، وادنى مراتب الكائنات قال

تعالي : « ان الانسان كفور » « انه كان ظلوما جهولا » « قتل الانسان ما اكفره »

اما ان مال لجانب روحه ، والتفت الي سر ذاته ، ونقب عن قرارة انواره وعرف جهات قوته وضعفه ، ضمه الحق الي حزبه ، ونصره على الشيطان وجنده ، وامده من قوته وحوله ، بما يجعله مظهرا من مظاهر سلطانه ، وعاملا من عوامل تصريفه . قال تعالى: « والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » « فان حزب الله هم الغالبون » « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون »

الوجود في نظر القرآن

من الاسباب التي ضللت الانسان فى مدركاته ، واقتضت ان يصدر علي الكون والكائنات احكاما طائشة خفيفة ، جهله بعظمة الوجود وفخامته

هذا الجهل كما كان سببا فى ضلاله فى اموره الدنيوية والعلوم الطبيعية ، كان كذلك مدعاة لتضليله فى احكامه الدينية

ثم ان من زعم بان هذه الكرة الارضية هي العالم اوله وآخره ، وان تلك النجوم الزهر ، والكواكب المتلألئة فى السماء ما هي الا نقط لماعة اقتضاها نظام الليل واستلزمها جمال المنظر وان الارض هي كل شيء فى هذا الوجود ، كانت احكامه على دنياه ودينه مناسبة لهذه الدرجة من العلم فيضل عن وجوه النفع المادى والادبى على قدرها .

فى هذه الدركة النازلة وقف كل اصحاب الاديان الناكبين عن روح القرآن . وهى دركة كان فيها العالم كله قبل قرون عديدة ، فجاءت عقائدهم بالخالق والرسل والدين والنفس والاخلاق والشريعة مناسبة لها فلما بدا العلم الاوروبى قبل ثلاثة قرون انكر من الناس هذا الامر فوقع بين انصار القديم واعضاد الجديد نزاع . فتمسك الدينيون بنصوص كتبهم واقوال شراحه ، وقابلهم العلميون بأسلحة العلم وآلاته فانضمت الحكومة الى الاولين لانها كانت بيد المستبدين ، فاوقعوا باهل العلم قتلا وتمثيلا ، وما زالو يصاولون العلم والعلماء حتى جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

تأيد العلم وعزت انصاره وتقوضت دعائم الجهل وانهدت اركانه ، واصبح الانسان

اخوف ما يكون اذا استشرف الوجود بعينه ، اومر على عوالمه بخياله . هنالك يجول به الفكر فى مجالات ان لم يتدارك نفسه بالرجعى المسرعة منها فجأه من رهبة الكون مافجأه فغشى عليه او تدله . « انما يخشى الله من عباده العلماء »

الى هذا القدر كبر الوجود فى عين اهل العلم وتأدبت امامه نفوسهم فكم يكون مقدار الادب الذى اكتسبوه من وراء ذلك ولاحت آثاره فى احكامهم على الخليقة والطبيعة والشريعة والخالق ؟

القرآن من اوله الي اخره يطامن من كبرياء الانسان ويقدع من انف الجبرية فيه ليريه نفسه كما هى ويهديه الى حقيقة ذاته ليتسنى له ان يدفعه الى ما اعد له من مقامات الكمال والرفعة

يعرف قراء القرآن انه مامن موضع ذكر فيه العلم الا وشفع بمايرى الانسان انه منه فى دور الطفولية وان امامه باحات لا تحد بالفكر ولا تدرك بالتخيل قال تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علما » « فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » « وكأين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون » « ومايعلم جنود ربك الا هو »

مجموع هذه الآيات تكسب الانسان فكرة صحيحة على عظمة الوجود وعلى ان قد خبيء عنا اشياء لو كشفت الينا لما احتملتها طبيعتنا ولو تأملت قوله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لرأيت ان هذا الحديث من العوامل التى كان لها اكبر تأثير على توسيع نطاق عقول المسلمين . لان الانسان متى اعتقد ان هنالك اشياء لم ترها العين ولم تسمعها الاذن ولا خطرت على قلب بشر فذلك الانسان يلقى فى روعه حكم على الوجود يناسب عظمته فيردعه عن ان يحكم على عوالمه الخفية بعقله الناقص فيتأدب فى اصدار الاحكام عليه وعلى ظواهره ويقف عند كل مجهول وقوف المعتقد بأن فيه مجاهيل لم تخطر على باله

هذا الادب المكتسب من مطالعة القرآن هو الذى سعى العلم الاوروبي قرونا فى اشرابه في نفوس الناس لانه أصل كبير من أصول الادب النفسى وباعث قوى يسوق

لانسان للتكمل فى العلم وعدم الوقوف منه عند حد . وقد أيد هذا القول حال المسلمين من تهافتهم على طلب المجهولات وتهالكهم على اكتناه الاسرار . ولو كانوا على قدم اصحاب الاديان المحرفة الذين يزعمون ان الحقائق محدودة لتركوا كل اهتمام بالمجهولات وقنعوا بما عندهم وصرفوا كل همهم فى فهم كلام متقدميهم كما هو اليوم شأن الذين انحرفوا عن القرآن وهم يزعمون انهم من أهله

(الدنيا فى نظر القرآن)

ما من فيلسوف او شاعر او متأمل في الوجود الا وحقر الدنيا واشتكى منها لتوالي آفاتها وتتابع حسراتها فلا لذة فيها الا وهى مشوبة بالم ، ولا راحة الا وهى مصحوبة بتعب فلم تصف لملك ولا عالم ولا جاهل . ولكن الناس مالكهم ومملوكهم وعالمهم وجاهلهم ومؤمنهم وكافرهم وان اتحدوا فى هذا الذم الا ان طرائقهم فيها على غاية التناقض ، اتحدوا كلهم في المقدمة واختلفوا فى النتيجة . فمنهم المتكالبون عليها المتفانون في جمع حطامها . فكان ذلك التكالب مؤديا الى التقاطع والتنابذ وتعمد الشرور التى تزيد دنياهم نقصا وحياتهم تنغيصا . وهو حال شديد التناقض الواقعون فيه أشد الناس قدحا لانفسهم وعجبا من حالهم . ومن الناس من عرف للدنيا هذا الحال فانقطع عنها ونبذها ولم يعبأ منها الا بما يسد الخلة ويقيم الاود . ولكن اذا كان القسم الاول شديد التناقض فالثاني مفرط لا يلبث ان يقع تحت سيطرة القسم الأول لان الدنيا لمن غلب ولاغلب الا بمادة

جاء الاسلام والناس على هذين المبدأين فاتى للاولين من انواع العبر بما يقتلع حب الدنيا من انفس المنهورين في حبها ويريهم حقارتها ونقصها بمثل قوله تعالى « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو » « حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انا قادرون عليها اتاها امرنا فاذاهم مبلسون » « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح»

اتى سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات ولكنه شفعها بما يجب على الحي ان يعمله في دنياه من سعى وراء الحصول على المادة حتي لا يقع اهل هذا الدين تحت اسر الامم المادية

فقال تعالى « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وسمى المال خيرا ما دام المقصود منه طلب الحق فقال تعالى « فان ترك خيرا الوصية » وسماه فضلا فقال تعالى « فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله » والمال لم يكن خيرا وفضلا من الله الا لانه مكتسب من حل لا مأخوذ بقطع رحم ولا بمنافسة تجر الى خراب .

بهذه الحكمة العالية اشرب القرآن نفوس اهله خصلتين ساميتين اولاهما ترك الدنيا لمشاقها وثانيتهما اخذ ما يقيمون به اود حياتهم منها ويحميهم من الوقوع فى اسر عبادها . ولا ترى دينا من الاديان حل هذه المسئلة على هذا النحو وقد ابد المسلمون هذا الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم واسسوا على قاعدته مدنية فاضلة قامت على اعدل صرط الفضيلة حتى قال الله فيهم « كنتم خير امة اخرجت للناس »

لم يحرم القرآن اللذات البدنية المعتدلة المقيسة على قابلية الطبيعة والجسم ، ولم يحجر عليه تناول الطيبات من الرزق قال تعالى « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

بل حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقول الباطل واعتقاده فى ذات الله وجميع ما يؤدى الى النقص وفساد المروءة قال تعالى « قل حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن »

من هنا ترى ان القرآن لم يحجر الانسان عن نيل مدنية ارضية مادية ولكنه ارادها له مدنية كاملة فاضلة مراعى فيها شأن الروح والجسم معا وقد حصل آباؤنا مدنية لا استطيع ان اقول انها مدنية كاملة كما خطها القرآن ولكنها افضل من مدنية اهل اوروبا بما لا يقدر . وانى لا اريد بالمدنية الرقي الصناعي بل اريد بها الروح العامة التي تسوق الأمة للحركة فى مجالات الحياة وتضطرها بعواملها الحيوية لسلوك هذه الجادة او تلك من جواد الوجود الانساني وتقيمها من الاخلاق والنزعات على حال من الاحوال

المدنية التى نالها المسلمون الاولون بهذا المعنى كانت افضل بما لا يقدر من مدنية اوروبا المادية التى قادتهم الى اهمال حق الروح وصبغت اهلها بصبغة لا تتفق مع مرامي الحياة العالية وقد شهد بهذا فلاسفتهم مما تقدم فى بعض هذه الفصول

﴿ ناموس الارتقاء فى نظر القرآن ﴾

اجمعت الاديان المحرفة على ان الانسان كان افضل مما هو عليه الآن ثم تدلي عن أوجه وسفل شيأ فشيأ ، وغالي أتباعها فى ذلك حتى عدوا اهل القرون الماضية ارقي منا علما وصنائع ايضا . وزادوا على ذلك بان العالم فى حالة تدل وهبوط لا ترق وصعود وقد فاجأهم العلم فى الثلاثة القرون الاخيرة بصد هذه المزاعم المسقطة بنفس صدمتها الى الحضيض الاسفل . فثبت العلم للناس ان النوع البشرى آخذ فى التقدم والارتقاء ومتدرج فى التكمل والعلاء وان ذلك التقدم منه اثر ضرورى لقانون طبيعي عام اسمه (ناموس الترقي) فاحتدمت الحرب بين الطرفين حينا ثم انتهت بشيوع هذه الحقيقة الجلية وصار لاوزن لما يقابلها من النظريات

جاء الاسلام قبل العلم باكثر من الف عام فاثبت للناس ناموس الترقى بقوله تعالى « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدنى علما » دل بذلك اهله على ان العلم الذى لدى الانسان الآن قليل بجانب ماخبىء له في المستقبل مما يثيره له الطلب ودوام التحصيل

وقد دل حال المسلمين الاولين بانهم كانوا يفهمون ذلك لما رؤي من تهافتهم على العلوم والصنائع وسعيهم فى ترقيتها والزيادة عليها وتفانيهم فى اكتشاف علوم وصنائع بل واقطار جديدة لم تكن موجودة لزمانهم . ولو كانوا يعتقدون ان الانسان آخذ فى الهبوط لكان حالهم كحال المتمسكين بالاديان الاخري المحرفة . ويصعب على امة كالامة العربية ان تتقدم هذا التقدم الباهر فى سنين معدودة الا اذا كانت مؤمنة بناموس الترقي .

﴿ الشريعة فى نظر القرآن ﴾

اليونانيون والرومانيون والاعجام جاؤا بشرائع قامت عليها اممهم قرونا عديدة وجاء الاسلام بشريعة هي بين دفتي المصحف روحها القسط باخص معانيه « اعدلوا هو اقرب للتقوى » « اعدلوا ولو على انفسكم »

قرر القرآن الاصول الشرعية الكبري وهى المساواة والعدل والحرية

فأما فى العدل فلا فرق فيه بين مسلم وكافر ولا بين عربى وعجمى ولا بين ابيض واسود

«اعدلوا ولو على انفسكم»

واما المساواة فقد قرر القرآن من وجه عام ان كل الناس سواء «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم» اما ما يتمايز فيه الناس عادة من الاخلاق والعقائد والعلوم والاصول والثروة فهي امتيازات ذاتية لا سلطان لها امام العدل الالهي

شرائع الرومان واليونان والعجم قررت عدلا وحقوقا ولكن هو عدل نسبي وحقوق وضعية قابلة للطعن . فقد كانت تميز الاغنياء عن الفقراء والاقوياء عن الضعفاء والعلماء عن الجهلاء في العقوبات المتشابهة .

كان قانون الصحابة هذا القرآن وما صح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تدون الشريعة المستنبطة الا في القرن الثاني من طريق الاجتهاد وهي المعروفة بالفقه . وكان أولئك المجتهدون في الصدر الاول كثيرين وانما لم يبق منهم الا هؤلاء الاربعة ابو حنيفة ومالك والشافعي واحمد الا لكثرة اتباعهم ووفرة من نقل عنهم على ان واحدا منهم لم يلزم احدا باعتبار رأيه مقدسا بل امره بطلب الدليل ما امكنه لان الدين قد نص على ان كل انسان مسؤول عن نفسه

فقال ابو حنيفة «حرام على من لم يعرف دليلي ان يفتي بكلامي» وكان اذا افتى يقول «هذا رأي ابي حنيفة وهو احسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو اولى بالصواب»

وكان مالك اذا استنبط حكما قال لاصحابه «انظروا فيه فانه دين وما من احد الا ومأخوذ من كلامه ومردود عليه الا صاحب هذه الروضة» يعني النبي صلى الله عليه وسلم

وقال الشافعي للربيع «يا أبا اسحق لا تقلدني في كل ما أقول وانظر في ذلك لنفسك فانه دين»

وقال احمد بن حنبل «انظروا في امر دينكم فان التقليد لغير المعصوم مذموم وفيه عمى للبصيرة»

يتضح للقارىء مما مر كله ان باب الاجتهاد ليس بمقفل وانا لنرجو الله ان ينشأ فينا من العلماء المطلعين من يعيدون لنا ايام هؤلاء الائمة والله ولي المؤمنين

(الحكومة فى نظر القرآن)

شأن القرآن بازاء الحكومة كشأنه بازاء كل الاحوال الانسانيـة لم يأت عليها الا بقوانين عامة صالحة لان تقوم عليها حكومة عادلة وترك للامة الخيار في الشكل الذى تختاره، وقد انتقل رسول الله الى جوار ربه ولم يشر بكلمة عن الشكل الذى يجب ان تكون عليـه الحكومة بعده وذلك لحكمة عالية فان لكل زمان وحال عوامل تضطر الامة للخضوع لاشكال من الحكومة تناسبها . وهؤلاء فلاسفة اليونان جعلوا الحكومة جمهورية وبذلوا وسعهم فى تأييدها ولكنهم لم يستطيعوا ان يمنعوا انقلابها الى ملوكية بعد زمان قليل . وكذلك كان حال الرومانيين وغيرهم

فكان من الحكمة ان يكتفي القرآن بالتنويه بالقانون العام الذي يجب ان يكون قاعدة للحكومة العادلة وان يدع لذويه حرية انتخاب الشكل الذي يرونه صالحاً لزمانهم . ذلك القانون العام هو الشورى فقال تعالى « وامرهم شورى بينهم » فكل حكومة لا تقوم على هذا المبدأ الاقدس فهي حكومة مخالفة لسنة القرآن

(الجهاد فى نظر القرآن)

التنازع سنة الكائنات الارضية ولولاه لما كمل نظام الوجود وقد تكفل علم العمران ببيان ذلك بالادلة الحاسمة وقال تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسـدت الارض » وانت ترى بعينيك ان ارقي الامم هى أكثرها حروبا مما يدلك على ان الحياة الراقية لا تتم الا بالتنازع والغلب وما تسمعه من مؤتمرات السلام في مدينة (لاهي) فهو خيال ويقصد به ابطال الحرب بين الاوروبيين دون غيرهم من العالمين لاعتبار بعضهم بعضاً اخوة . فمدنية اوروبا ان كانت تحرم الحرب فهي انما تحرمها بين ابنائها لا بينهم وبين الشرقيين لانها ترى ان اغتيال الاوربيين لبلاد المسلمين من الحقوق الطبيعية الذي يجب ان تقدس وتحترم ويعمل عليها العاملون بالحيلة ودعوي الاصلاح أولا فان لم تنجح الحيلة عمدوا الى الحرب

من هنا ترى ان الحرب ضرورية للنوع البشرى وان الامة لا تكون امة بل لا تستطيع

ان تعيش الا اذا هاجمت او دافعت لذلك جاء ذكر الحرب فى القرآن كثيراً . والمقصود من الحرب عند المسلمين غرض أرقى من الاستعمار وهو تمكين الحق فى الارض واعزازه بين الامم

اباحها الاسلام بل اوجبها فى بعض الاحوال ولكنه حاطها من القوانين بما لا يوجد مثله فى العالم الوضعى . فقرر (اولا) ان تكون لغرض شريف كالدفاع عن الحوزة اوعن الدين لاهوى لملك ولا متابعة لاطماع رئيس (ثانيا) ان يكون العدل مع الاعداء حتى فى مواطن الطعن من شعار المؤمن فلا يقتل طفلا ولا شيخا ولا مستسلما (ثالثا) عدم الاسراف فى استثمار الانتصار فلا يجرد المغلوبون من حقوقهم ولا تؤخذ اموالهم غصبا ولا تصادر دياناتهم وعوائدهم ولا يطلب منهم الا الجزية وهى قيمة كما قال العلامة دوزي الهولاندي في كتابه تاريخ الفرق الاسلامية تقل بكثير عما كانت تأخذه حكومات الامم التي غنمها الاسلام

فان قال قائل ان ناموس الارتقاء لابد من ان يؤدى الانسان فى يوم من الايام بما يكشفه له من اسرار العلم الى حالة من المدنية تزول معها اسباب الحرب فلا توجد الحرب اصلا فهل يبطل اذ ذاك حكم الحرب من القرآن ؟

نقول ان القرآن لم يتكلم عن الحرب الا لاعطائها النظامات العادلة وحياطتها بالقوانين الملائمة للكرامة الانسانية شأنه فى ذلك كشأنه فى سائر المحاولات البشرية التى تساق اليها الامم بحكم نواميس الاجتماع ، فاذا حدث كما يقول ما يستدعى ان تبطل الامم الحروب مضطرة بدواعى الحياة الراقية مددنا ايدينا الى ايدى مسالمينا تالين عليهم قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، وان ارادوا ان يخدعوك فان حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »

(العبادات في نظر القرآن)

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

يتخذ الذين لا حظ لهم من الاسلام الا التعبد بظاهر الالفاظ آية « وماخلقت الانس والجن الا ليعبدون » دليلا على صحة طريقتهم فى الخمول والكسل والابتعاد عن الجد والعمل .

ونحن هنا لا نحتاج في الدلالة على بطلان مزاعمهم الى صرف الآية عن ظاهرها ولكننا فقط نطرح عليهم سؤالا واحداً ونتخذ جوابه حجة عليهم فنقول: أليست العبادة هي طاعة الله فيما امر والانتهاء عما نهى عنه وزجر؟ ان قالوا نعم. قلنا وما معنى قوله تعالى: «ولا تنس نصيبك من الدنيا»؟ يقولون ليس في هذه الآية ما يدل على لزوم الخروج عن حد الحاجة الضرورية من مأكل ومشرب ومسكن وملبس. نقول نعم ونحن لا ننصح بالافراط فى شيء من ذلك ولكن هل الضروريات الانسانية تقتصر فقط على حفظ الجثمان من العطب؟ أليس من ضروريات الحياة الانسانية نشر العلوم والفضائل؟ الامر الذى هو اول فرض من فروض الاسلام. أليس منها تسهيل المواصلات بين البلاد الاسلاميه لتوثيق عرى التواصل والتحاب اللذين هما أس من اسس الايمان؟ هل من علو الهمة واباء النفس ان يقتصر الانسان على حفظ شخصه بالمأكل والملبس تاركا أمته فى أخريات الامم علما وصناعة وعمرانا مع ان الله تعالى يقول «وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين»

ان الذين يزعمون ان تلك الآية تدل على محض العبادة الجسمية لضالون مضلون اقعدهم شيطان الكسل عن العمل فظنوا انهم ينجون بعبادتهم من عقوبة تفريطهم فى جنب خصائصهم الفطرية وملكاتهم العلوية التي وأدوها فى تراب الخمالة.

كتاب الله بجملته وتفصيله يشهد بان الاسلام انزل لسعادة الحياتين والاعتدال فى مطالب الطبيعتين الانسانيتين فوفق وآخى بين حاجات الجثمان والنفس وفى مثل قوله تعالى «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» أكبر حجة على صدق هذه الدعوى البسيطة. وعلى هذا فيكون كل مغلب مطالب أحد جوهريه على مطالب الآخر غير متبع الاشقا واحدا من شقى الاسلام ويكون محشورا فى زمرة الذين يبكتهم الله في هذه الآية الكريمة «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض»؟

لم يبح لنا الاسلام فقط السعى في اصلاح دنيانا بل صرح لنا كتابنا الكريم بان الله سخر لنا كل هذه الطبيعة لنستغل خيراتها ونستخدم قواها ونأخذ منها كل طيباتها على شرط الاعتدال والتوسط (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا. الآية»

هل يليق بانسان بعد هذا التصريح البين أن يغمط حق الاسلام فى السوق الى السعادة المادية في هذه الحياة الدنيا ؟ ثم هل يليق بامة يخولها كتابها هذه السلطة الواسعة ان تكون أقل أمم الارض استفادة من خيرات الطبيعة ؟

رحم الله تلك الارواح الطاهرة التي تلقت روح هذا الدين من سماء الحكمة الالهية فتشربتها بلا تأويل فنالت من المعالي الحقيقية ما لو وصفها امهر الشعراء تخيلا لرأى عباراته دون الحقيقة بمراحل . لم يمض على تلك النفوس العزيزة بعض قرن بعد انتعاشها بهذه الروح السماوية حتى رأيناها مدت نفوذها العادل المحبوب على امم كانت ابعد من عقاب الجو منالا وأوسع فى ميدان الثراء منها مجالا وبلغت من سعة السلطان مالم تبلغه امة فى هذا المعمور ولا تسل عما استلزمه ذلك الامتداد الهائل من علوم صناعية واكتشافات علمية ورحل جغرافية وغير ذلك مما جعل عواصم الدول الاسلامية منبعث أشعة النور العلمى والصناعي في آن واحد . الى هذا يشير العلامة (سديو) المؤرخ بقوله : « ان العرب هم اساتيذنا ومعلمونا »

كل هذا الجد وراء الرفعة الدنيوية كان يعده آباؤنا الاول عبادة لله تعالى لانه امر بها وحث عليها فكان العامل منهم لاقامة الجسور لا يفترق فى نظرهم عن المنهمك فى تشييد المساجد « ان المؤمن ليؤجر في كل شيء (الحديث) . » فهل من يبلغ عنى انصار الديانة الطبيعية من فلاسفة العالم المتمدن ان الاسلام قد سبقهم بثلاثة عشر قرنا الي تقرير حقيقة العبادة وأرانا انها ليست الا السعي في تحسين حال الانسان من حيث جثمانه ومعناه « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين »

﴿ المعجزات فى نظر القرآن ﴾

وردفى الكتاب الكريم والسنة ذكر معجزات وكرامات كثيرة حصلت على يد أنبيائه ورسله وصالحي الامم مثل عدم احراق النار لابراهيم ومثل انقلاب العصا ثعبانا لموسي ومثل احياء عيسى للموتى ومثل نبوع الماء من بين اصابع نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام ومثل اتيان وزير سليمان بعرش بلقيس فى مثل لمح البصر ومثل ما ورد عن الخضر فى سورة الكهف ومثل اهل الكهف انفسهم الى غير ذلك مما ورد ذكره فى القرآن فى مواضع متعددة

القول الفصل فى هذا كله ان الانسان كما يتسلط بارتقاء قوته العقلية على قوى الكون المادية فيحدث من الاختراعات ، الا يخطر بالبال فكذلك اذا ارتمت نفسه عن السفاسف وصفا قلبه عن غير الله وكان فى درجة النبوة او الولاية حصلت على يديه مدهشات خارقة للمادة يكاد لا يصدقها رائيها فضلا عن سامعها ولكن أهل البصيرة الذين لم يستعبدهم الحس فى دوائره الضيقة يعلمون ان تلك الخوارق صورة من ذلك السلطان الذى وهبه الله للانسان على الكون والكائنات وانه متى سلك الانسان لنيل ذلك السلطان طريقته المثلى تأدي اليه الا درجة النبوة فانها ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم . اذا انتهى الانسان من الكمال الروحانى الى حد اهل القرب والمعرفة وخلصت قواه الروحية من علائق هذا الجسد الكثيف انكشف له الكون بقواه وعوالمه ورأى ان روحه فى التأثير على مادته اقوي من يده عليها ورأى ان حواسه الخمس وحوله الذى كان يفتخر به قبل بلوغ هذه الدرجة لا يساوى شيأ بجانب ماله من السلطان بعد خلوص روحه من أسر المادة

هذه امور لايجافيها العلم ولا ينكرها العقل بل يرجحها النظر فى احوال الوجود فلو أضفت اليها ما كتبناه فى الفصل التمهيدى للعقيدة بالرسل ورأيت ان اهل اوروبا اليوم وقفوا على حصة صالحة من اسرار الروح وتوصلوا الى استحضار قوة عاقلة مدركة من عالم ما وراء الطبيعة سموها الروح حصل لك من مجموع ذلك برهان حسي على وجود العالم الروحاني وعلى انه بحر العجائب ومستقر الغرائب وان ما يروى عن الانبياء من المعجزات وعن الاولياء من الكرامات بالتواتر العلمي والنقل الصحيح امور حقة لا شية فيها

﴿ الناسخ والمنسوخ من القرآن ﴾

النسخ لغة معناه الازالة ونسخ الله آية بآية اى ابطل حكم الاولى بالثانية كما قال تعالى « ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها » . وقد اتخذ اعداء القرآن هذا النسخ من المطاعن عليه واستدلوا به على انه كلام محمد لا كلام الله . قالوا لو كان هذا القرآن كلام الله لكان ثابتا لا تتغير احكامه بتغير الاحوال ونحن لرد هذه الشبهة نقول :

انزل الله الدين على الامة العربية لتأخذ بآدابه نفوسها وتروض بتعاليمه افئدتها فتتقمص

روحه وتستثمرها فهو دين عملي حيوي . وليس في العالم فلسفة ولا مذهب يلين للانسان في جميع ادواره ويتنزل معه الي سائر اطواره الا هذا الدين .

وهذه امامك الاديان القديمة المحرفة في جميع قارات العالم قد هجرها الناس ووجدوا لانفسهم عذرا مقبولا في هجرها وهذه المذاهب الاصلاحية في اوروبا كالاشتراك والفوضي وغيرهما كلها متطرفة لا يمكن العمل بها الا الاسلام فلا يستطيع احد ان يعتذر بعدم امكان العمل به بحجة مناقضة اصوله لمبدأ الحياة او لاحوال الزمان

هذا الدين الاسلامي يراعي الانسان في حالة ضعفه وقوته وجهله وعلمه وحربه وسلمه وغناه وفقره وكماله ونقصه الى آخر ما يتتابه من الاحوال البشرية المتناقضة التي تتغير بتغير الازمنة والامكنة والامزجة فهو الدين الطبيعي الذي تقتضيه الطبيعة البشرية او هو بلسان الشرع الدين الفطري الذي ينطبق على مطلوب الفطرة . ولما كان كل شيء يتغير في الانسان وتنتابه الزيادة والنقصان جعل الله دينه الاخير صالحا لان يتتبع الانسان في جميع ادواره لا أهوائه . ولو كان هو دينا من ضمن الاديان المعروفة وكان في علم الخالق ان نبيا يظهر بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاءت أصول القرآن مقيدة محدودة ولزالت دولته بزوال رسوله واستعد الناس لاستقبال وحي جديد . ولكن شرع الله هذا الدين ليكون دين الانسانية كلها في سائر ادوارها وصرح بان رسول آخر المرسلين فكيف يقرر الله فيه اصولا مقيدة محدودة وقد عرفت ان الانسان لا يتقيد بقيد ولا يدخل ضمن حد وهو من تغير الحال وتلون المزاج على ما لا يجهله ابسط الناس علما ؟

مراعاة لهذه الحالة الطبيعية اقتضت حكمة الخالق جل وعز ان يراعي في تربية الامة العربية حالها من جميع الوجوه فقرر لها أولا احكاما على قدر حاجتها ثم نسخها باحكام اخرى اليق بحالها الذي تحولت اليه وهو خالق تلك الاحوال ومسلطها على الانسان ؟

على ان النسخ سنة من سنن العالم الطبيعي ظاهرة في الجمادات والنباتات والحيوانات والانسان نفسه . فترى النواميس الطبيعية تقتضي ان يكون الهواء مثلا ساكنا في هذه الساعة ثم يحدث ما يغيرها فتنسخ هذه الحالة برياح تحدثها وامطار ترسلها وصواعق تسقطها الخ . وهذه الحوادث من النسخ في العوالم الحية اظهر منها في عالم الجماد ومما لا مشاحة فيه

ان الانسان اشد جميع الكائنات تغيرا وتحولا ولكل حال حكم كما لا يخفى ، افلا تكون من حكمة الخالق جل شأنه ان يعدل له الاحكام على حسب قابليته فى كل حال من احواله ؟

هذا التبديل والنسخ يصح في جهة ما يتعلق به من احواله الذاتية المتغيرة اما الدين نفسه فهو ثابت لا يتغير ولا عذر للانسان فى استبدال غيره به فانه أبسط ما يتصور (انظر فصل الاسلام)

تطرف بعض الناظرين من المسلمين فحاولوا اثبات عدم وجود ناسخ ومنسوخ فى القرآن واولوا جميع الآيات الناصة على النسخ مثل قوله تعالى « ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها » وقوله تعالى « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قال الذين كفروا انما انت مفتر » وقوله تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا »

وعندى ان تأويل هذه الآيات الصريحة وامثالها لاجل اثبات عدم وجود ناسخ ومنسوخ فى القرآن تعسف ظاهر وقد جرى جمهور الصحابة على وجود الناسخ والمنسوخ فى القرآن وكذلك التابعون والائمة الاربعة وغيرهم ممن تقدمهم وتلاهم ولم يخالف هذا السواد الاعظم الانفر يعدون على الاصابع

﴿ الولاية والكرامة ﴾

الولاية في اللغة القرابة والاعانة والنصر ، والولى القريب والناصر والمعين وقد اطلق الله لفظ الاولياء على احبابه المقربين لديه فى مواطن من القرآن الكريم فقال تعالى « الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون »

فكل مؤمن تقى هو ولى لله بحكم هذه الآية لغة واصطلاحا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مؤمن ولى الله »

ولكن عامة المسلمين يطلقون اليوم لفظة ولى على صنف من الناس تصدر على ايديهم خوارق العادات وقد اختلف مدلول هذه اللفظة عند كل طبقة من طبقات الناس على حسب اختلاف المدارك والافهام حتى صارت تطلق على بعض البله والمجانين وقد توسعوا فى نسبة الخوارق الى هؤلاء الاشخاص حتى رفعوها عن المعجزات وللناس بتناقل هذه الامور

ولع شديد لا يتفق اكثره مع الحقيقة الشرعية . ونحن موجزون لك مذهب القرآن في اسطر قليلة فاليك :

القرآن اطلق لفظة ولي على كل مؤمن تقي ولم يزد ولم يرد في احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على هذا المعنى شيئا جديدا . اما الكرامة التي يكرم الله بها اولياءه فلا يشترط ان تكون من الامور الخارقة للعادة فان من الكرامة ان يوفقه للطاعات وان يهديه لكمالات وان يزيده كل يوم علما وعملا وهدى وان يهدى به نفوسا حائرة وافئدة ضالة . وما يشاهد لدى بعضهم من كشف المغيبات او تخلف بعض الكائنات عن طبائعها في بعض الاحوال على يديه فذلك من الكرامات ايضا وهي احوال تلازم بعض المتفرغين للعبادات والرياضات من اهل الفطر السليمة والنفوس الكريمة . فأن الجسد متى انحط سلطانه بواسطة الرياضة اشرق نور الروح وظهرت دولتها ومن كانت روحه اغلب عليه من جسده غلبت عليه خصائصها وخصائصها الحكم على المادة ونواميسها فحدثت على يد ذلك الصالح امور خارقة للمادة لا يريدها وربما تستر من اجلها . وهذا لا ينكره الا من ينكر الروح وسلطانها وخصائصها ومن كان كذلك فليقرأ فصل ماوراء المادة من هذه المقدمة .

هذا مايقال من امر الولاية والكرامة على مذهب القرآن اما ما وراء ذلك من دفن الصالحين في مدافن خاصة ورفع القباب عليهم وايقاد السرج بجانب اضرحتهم وترتيب الخدم لهم ونذر النذور باسمهم وتقريب القرابين اليهم والاستغاثة في الملمات بهم والتمسح بمقاصيرهم واعلاء قبورهم ووضع العمائم والبراقع فوقهم فمن اشد منافي الشرع وهي مما لم يحدث في الاسلام الا بعد الصدر الاول بقرون عديدة وهو من افظع البدع التي بدل المسلمون بها اكرم اصول هذا الدين المحفوظ في الكتاب والسنة . وقد بدأت هذه البدعة في التناقص عن المسلمين شيئا فشيئا بتأثير الكتابات التي كتبت في هذا الشأن من اصحاب البصر في الدين ونرجو انه لا يمضي كثير من الزمان حتى لا يكون لهذه البدعة اثر في نفوس المؤمنين

الشفاعة والتوسل

(في نظر القرآن)

ذكر الله مسئلة الشفاعة في كتابه الكريم مرارا فقال تعالى «من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه» ردا على قول الكافرين في حق اصنامهم «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» وقال تعالى تيئيسا للذين يعتمدون على الشفاعة «وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا»

اعتاد الناس من قديم الزمان على الاعتماد على صلحائهم في الشفاعة لهم عند الله، فكانوا يستسهلون كل أنواع الاسرافات ارتكانا على هذه العقيدة فقطع الله حجتهم جميعا بهذه الآية وهي: «ليس بامانيكم ولا أماني اهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به» فاذا كان الله يخاطب الصحابة بقوله ليس امرنا بامانيكم، فهل بعد هذا لمسلم ان يعتمد على امنية أو يرتكن على خيال. ثم ورد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع للمذنبين فان صدق هذا الحديث فان يشفع الا لمن يأذن الله له بالشفاعة لهم ممن يستحقون العفو على مقتضى العدل الالهي بدليل قوله تعالى «من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه» وعليه فروح الاسلام الحق هو ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته «اعملي يا فاطمة فاني لا أغنى عنك من الله شيئاً»

اما التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد فيه حديث الا من طريق الآحاد ولا اثر لهذا الامر في القرآن ولا في السنة المتواترة ولم يرد على ألسنة الصحابة كما تدل عليه الادعية المأثورة عنهم من طريق صحيح، وقد الف المؤلفون في القرن الاول كتباً وتفاسير وكذلك في القرن الثاني فلم نجد لامر التوسل بجاه النبي أثرا في كلامهم. والذي نراه نحن ان الاولى اجتناب الامور المشكوك فيها احتياطا للدين فان الذي يفسد الاديان هو التساهل في اصولها. ونحن ان تركنا التوسل فلم نجن على الدين أدنى جناية لانها ليست بفرض علينا ولا مما يتوقف عليها فرض ولا سنة.

القضاء والقدر

(في نظر القرآن)

النظر المجرد في الكون يدلنا على انه قائم على نظام ثابت والبحث السطحي في هذا

بدلنا على ان له قوانين ونواميس تمسكه وتحفظه فلا تحدث في الهواء حركة ولا تسقط من شجرة ورقة الا تبعاً لقانون ثابت وفاعل مؤثر . هذا الامر مشاهد فى عوالم الجمادات والنباتات أتم مشاهدة ، وهو فى عالم الحيوانات أقل ظهورا لما متعت به من الحس والحركة وهو فى العالم الانساني يحتاج لتأمل ونظر فلو قلت للمتوحش ان كل حركة وسكنة فيك تابعة لقانون ثابت شك فى قولك ان لم يكن اخذه من طريق الدين بالتسليم

اتحد الدين والعلم الطبيعى على ان الانسان مجبر على افعاله حتى ان احد رؤس الماديين العصر بن بوشنر الالمانى قال ان الحرية الانسانية التي اعتبرها الروحيون مبدأ للاختيار والارادة وهم باطل فان الانسان فى ذاته حادث طبيعي محكوم بالطبيعة التي كونته والمناخ الذي رباه والوسط الذي يقله والجنس الذى نشأ منه والتربية التى غرست فيه من صغره

يتصدق الرجل منا مثلا فان سألته عن السبب الذى حمله على التصدق قال لك ارادتي فان سألته وما الذي حمل ارادتك قال شفقتى فأن قلت وما الذى اوجد لك الشفقة دون جارك قال ورثتها عن أبى وجدى او من طبيعة مزاجى . فان سألته ومن الذي اوجد لك هذا المزاج وصور اباك شفيقاً . قال الله تعالى بما اوجده من عوامل ، اذن فقد حكمنا بان الباعث للصدقة في الواقع هو الله . وهكذا نستطيع ان تصعد بسائر أعمالك الى موجدها الاول سبحانه وتعالى

هذا معنى القضاء والقدر وهو معنى قوله تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » وبعد ان أثبت الله تعالى علمه بالجزئيات قرر فى آية أخرى بأن كل الحوادث هو فاعلها فقال تعالى « قل كل من عند الله » وقال تعالى « خلقكم وما تعلمون »

اذا تقرر هذا قال لنا قائل : اذا كانت أعمال الانسان مقدرة عليه تقديرا فكيف يصح ان يعاقبه فى الآخرة على فعل ليس هو فاعله في الحقيقة

حل هذه المسألة يقتضي ان ندرك كنه علاقة الخالق بالانسان ، وكيفية ترتب الاحوال فى العالم الاخروى على أعمال الانسان فى هذا العالم ، وحكمة خلق الشر فى الدنيا .

وحقيقة النظام الكونى من حيث عوامله وكائناته وغاية كل منها ، والخلاصة ان حل هذه المسئلة العويصة يستدعى تمام الالمام بمسائل ليس للانسان منها الا علم سطحى لا يغنى عن الكنه شيأ ولو سمحنا لانفسنا بالخوض فى هذه المسئلة مع جهلنا لمقدماتها كنا كالجهال يرون الترامواي سائراً فيعللون حركته تعليلا طفليا يضحك العاقل ويضل الجاهل فوقوفنا أمام هذه المسئلة سببه جهلنا بمقدماتها فاذا انتظرنا حتى يفتح الله علينا بالمقدمات كان كلامنا فيها عن بصيرة وبينة

انا نستطيع ان نذكر في هذا الموضوع كلاما ننفي به عن أنفسنا امام البسطاء صفة الجهل ، ولكنا نعلم ان ما من حل لهذه المسئلة الا وهو قابل للانتقاد والرد فليجعل كل منا هذه المسألة مما يسأل الله هدايته الى حله وليتق الله فى الطلب وهو يفتح عليه من العلم والطمأنينة مالا يجد بعضه بالجدال والخصومة قال الله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله »

النعيم والعذاب الاخرويان

ذكر الله ترغيباً للناس وترهيباً لهم ان الحياة الآخرة دار الحساب والثواب والعقاب من عمل صالحاً فى دنياه نال مناه ، ومن عمل سيئاً جوزى على ماقدمت يداه . وقد أطلق الله على دار الثواب لفظ الجنة وعلى دار العقاب لفظ جهنم

الجنة لغة هي الحديقة ذات الشجر وقيل ذات النخل

وتطلق اصلاحاً على ما أعده الله للصالحين من عباده فى الحياة الآخرة مكافأة لهم على صالح أعمالهم وجميل أثرهم في العالم الارضي وقد وصفها الله بأنها ذات أنهار وأشجار وفواكه ولحوم وأزواج على مثال ماهو موجود فى العالم الارضي وان كان أرق منه فى النوع والشكل والطعم وقد تكرر ذكرها في الكتاب الشريف على صور شتى فتكلم فى ذلك بعض مؤلفى أوروبا ولغطوا فيه واستبعدوه ومال الى أقوالهم بعض مقلديهم من المسلمين واخذوا يؤولون النصوص الجلية زاعمين ان الله اورد ذلك للتأثير على أفكار العرب بما يحبون ، اما الجنة فهى روحانية محضة وكذلك البعث بالروح وحدها ليس بالجسد وما أداهم الي هذا التأويل الا استبعاد تكون الاجساد بغير توالد وهو الحاد خفى فى شكل اسلام زاق . والتحقيق عندنا

فهو ان البعث بالجسم والروح معا وان الجنة هى على المثال الذى حكاه الله لنا فيها أشجار وأنهار ولبن وعسل وفواكه وللراقين من أصحاب الارواح العالية نعيم أرقى من هذا كل على حسب درجته . ووجه تحقيقنا البعث بالجسد هو اننا ما عهدنا الانسان انسانا الا بجسد وروح معا فما الذى يميل بنا الى زعم بعثه بروح مجردة على مثال الملائكة غير استبعادنا تكون جسد له بدون توالد على النظام العادى ؟ وان لنا مع الذي يستبعد ذلك أقوالا تناسب حاله فان كان مسلما قلنا له انك تؤمن بأن جبريل كان يظهر أحيانا لرسول الله على صورة دحية الكلبي بجسد يلمس وصوت يسمع وما أتى جبريل عليه السلام بهذا الجسد الا بخاصية أودعها الله روحه يقدر معها على التلبس بالمادة وقتما أراد والروح فى حقيقتها تشبه أرواح الملائكة متى أراد الله بعثها تقمصت بجسد على المثال الذى رأيته من جبريل وغيره كالملائكة الذين دخلوا على ابراهيم وغيرهم . وان كان غير مسلم قلنا له دونك المشاهدات التي يشاهدها علماء أوروبا في تجسد الارواح ترى جسداً يظهر لك من حيث لا ترى ولا تدرى بخاصية في تلك الروح المتجسدة تتناول بها ذرات المادة من حيث تشاء فتظهر بها أمامك بشراً سويا ثم تحلها أمامك ثانيا وتتركها وترحل الى عالمها فان ثبت ذلك لتلك الارواح (نسميها أرواحا مع التحفظ) التي يشاهدها علماء أوروبا فما المانع من ان الروح اذا أعيدت للبعث تقمصت فى الحال بجسد بخاصية فيها ذاتية ؟

أما وجه تحقيقنا ان الجنة مادية حسية فهو اننا لا نرى موجباً لتأويل الكلام الالهي مع تكرر نصوصه فى ذلك فضلا عن ان فرض جنة روحانية مما لم يألفه الطبع البشرى ولم يناسب تركيبه وما دعا اولئك الذين يترنمون بالجنة المعنوية الى التأويل الا استبعادهم وجود الجنة المادية ولو تأملوا لما استبعدوها ولرأوا ان الجنة المادية من أقرب الممكنات . كيف لا تكون من أقرب الممكنات . ونحن على ما يشبهها وكيف يستبعد على من خلق لنا هذه ان يكون قد خلق لنا عالما على شكلها ولكن بأرقى نظام وأكمل أحكام ؟ فلو أنصف اولئك المؤولون لعكسوا الامر واستبعدوا الجنة المعنوية غاية الاستبعاد على انه ليس فى الامر الا ما قلناه من ان الداعي الى تأويل أمثال هذه المسائل هو الحاد كامن فى شكل اسلام راق ولو تأملوا بعض التأمل لرأوا ان الحشر بالاجساد هو الحشر المعقول وان المكافآت الاخروية

على الشكل المادي هو الامر الذى يمكن ان يقام عليه الدليل وان تضرب له الامثال

اما جهنم فهي مكان العقاب الاخروى . وقد اختلف المسلمون فى أمرها فحمل جمهور المسلمين الآيات الواردة فيها على ظاهرها وقالوا انها نار متأججة لها شرر ووقود ودخان الخ وان الناس تلقي اليها فتلتهمهم وقالت طائفة قليلة من الصوفية والمعتزلة بل هي نار معنوية وما ورد فيها من الآيات فهو من قبيل المجاز لا الحقيقة كما هو أسلوب اللغة العربية فى مواطن الترغيب والترهيب وما شاكلها . ويذهب بعض العصريين من أصحاب البصر فى الدين الى هذا القول الاخير لمناسبته لعقولهم وموافقته لفلسفتهم فانهم يقولون اذا كان من المؤكد ان الرجل الذى عاش عمره فى هذه الارض غير مفكر الا فى شهواته البدنية أو اطماعه التجارية والمالية ولم يقدم لنفسه عملا روحانيا يأنس اليه يوم لا سلطان الا للروح فلا جرم يذهب الى العالم الاخروى وليس له رأس مال يفيده مما يناسب أمر ذلك العالم . فيعيش فيه كما يعيش من لا رأس مال له فى هـذا العالم أى فقيراً عاملا يتعب وينصب طول عمره ويفنى قواه ومداركه في سبيل تحصيل قوام حياته على أبسط حالة وأدناها وهو معرض نفسه للفح الشمس ووخزها ونفح الرياح وصرها تارة متوقلا رؤس الجبال لقطع الصخور وجرها وطوراً حافراً الارض لاستخراج معادنها وكنوزها ، وهو فى كلتا هاتين الحالتين اما ان يهوى به الريح الى مكان من سفح الجبل سحيق أو يثور عليه غاز الجزيزو وهو فى تلك المناجم (الجريزو غاز مهلك يتصاعد فى المناجم) فيحرقه هو والمئات من أمثاله في لحظة واحدة كما حدث اخيراً بمناجم كوريير بفرنسا حيث مات فى لحظة واحدة أكثر من ١١٠٠ نسمة .

ضع هؤلاء العمال التعساء أمامك ثم انظر الى أصحاب الثروة الذين يطأون الدمقس والحرير ويتوسدون الفراش الوثير فى قصور تناطح السحائب وتسامر الكواكب محاطة بالرياض اليانعة والزهور الساطعة . ثم قارن هؤلاء بتلك الطبقة العاملة الناصبة وقل لي ترى ماذا ان استطعت المقارنة وقويت على امعان التأمل ؟ الا ترى ان هؤلاء الاشقياء كأنهم فى جحيم وكان أولئك فى نعيم مقيم . ومن هؤلاء وأولئك ؟ اولئك أصحاب رؤس الاموال الذين دأبوا على ادخار النضار وجمعه بالعلم والاختبار ، وهؤلاء هم الذين حرموا أنفسهم من كل

ذلك بجهلهم وغباوتهم وتهاونهم فى أمرهم .

لو تأملت هذا التأمل ثم علمت ان الدار الآخرة دار لا يناسبها الا الكمال الروحانى والطهر النفساني فاذا انتهى الناس اليها يوما كان منهم من اجتهد فى دنياه للكمال الروحانى ودأب ، ومنهم من أهمل ذلك كله ولم يتعلق منه بسبب . أفلا ترى ان الاولين يكونون هنالك فى منزلة اصحاب رؤس الاموال فى هذه الدار وان الآخرين يكونون بمثابة المحرومين هنا من المال ؟ افلا تستنتج من هذا ايضا ان الأولين سيكونون فى نعيم ورخاء وان الآخرين سيكونون فى بؤس وشقاء كما هو الحال هنا بين اصحاب رؤس الاموال ومن عدامهم ؟ ولكن مع هذا الفارق العظيم وهو ان لهذا العالم شؤنا غير شؤن العالم الآخر فتشبيهنا هذا هو تشبيه مع الفارق فلابد من ان النعيم هنالك سيكون على حال تناسب شؤنه وسيكون فيه الشقاء على تلك النسبة كذلك

واذا كنت وانت فى هذا العالم الادنى لا تستطيع ان تأتى بعبارة تجمع لك أشخاص النعيم الذى فيه المترفون واشخاص الشقاء الذى يقاسيه المحرومون الا بقولك هؤلاء فى الجنة واولئك فى النار . فما بالك لو اطلعت على العالم الاخروى ورأيت ما يعد لاهل الكمال من مقام السعادة ومعاهد الكرامة وما يهيء لاهل السفالة من منازل الدناءة ودركات التعاسة ؟

هذا فكر بعض العصريين والمؤمن يجب عليه ان يبرأ الى الله من كل ظن لا يحققه بعلم يقين عملا بقوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) . والا حوطله ان يعتقد بالثواب والعقاب ويكل تحقيق ذلك الي مولاه فهو ولي الكفاية

﴿ جمع القرآن ﴾

الكتاب الكريم الذى اوحاه الله الى خاتم انبيائه محمد صلى الله عليه وسلم هدى ونورا للعالمين نزل نجوما على حسب الحوادث ثم جمع فكان هو ذلك الكتاب الالهى الذى جعله الله آية خالدة ، يهتدى بسناه العالمون ويعشو الى ضوئه التائهون وقد وعد بحفظه فلا يناله المحرفون المبدلون فقال تعالي (انا نحن نزلنا الذكروانا له لحافظون)

بدأ نزول هذا القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ثم توالى حتى تم في ثلاث وعشرين سنة وقيل في عشرين سنة وأول ما نزل منه في غار حراء (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ثم توالى نزوله على حسب الحوادث وكان رسول الله جعل له كتابا يكتبونه منهم الخلفاء الاربعة والزبير وخالد وابان ابنا سعيد ابن العاص وعلاء ابن الحضرمي وابى ابن كعب وغيرهم كثيرون وكان جبريل يعلم رسول الله اذ يضع آية كذا في موضوع كذا على الترتيب الذى عليه آي السور واما ترتيب السور فقد قال أكثر المسلمين انه اجتهاد من الصحابه ولا ضير عليك لو قرأته باى ترتيب شئت . وكان من الصحابة من جمع القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبي بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد بن سعيد وعبدالله بن مسعود وعلى بن أبي طالب وعمر وعثمان وابو بكر وعمر بن العاص وعائشة وحفصة وام سلمة وغيرهم كثيرون ولكن بعض هؤلاء الاخيرين اكملوا جمعه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

لما ظهر في اليمامة بعد رسول الله مسيلمة الذى ادعى النبوة وفتن كثيرا من العرب أرسل أبو بكر اليه جيشا فقاتله ودحره ولكن مات في تلك الموقعة سبعون من قراء القرآن فقال عمر لابي بكر أخشى ان يستمر القتل بالقراء في سائر مواطن القتال فيذهب من القرآن واني أرى ان تأمر بجمع القرآن . فارسل ابو بكر لزيد بن ثابت وعهد اليه بهذا الامر فجمع جميع الحفاظ وكل ما كتب من القرآن حتى اجتمع كله في مصحف واحد حفظه أبو بكر عنده ثم عند عمر في حياة ابي بكر ثم اودعه عند حفصة ابنته

ثم لما انتشر المسلمون في الآفاق اختلف الناس في القراءة على حسب اختلاف لغاتهم مثل التابوت كان يقرؤها بعهم بالتاء وبعضهم بالهاء فاخبروا عثمان بذلك فاستعار مصحف ابى بكر من عند حفصة وكتب منه أربع نسخ وضبطها بلغة قريش دون غيرهم لان لغات العرب تشعبة واكملها لغة قريش وهي التي نزل بها القرآن . فارسل الى كل مصر بمصحف وأمر الناس بان ينسخوا مصاحفهم منها وأمر باحراق كل ماخالفها . وكان ذلك سنة ثلاثين من الهجرة

﴿ القراآت ﴾ لما نزل القرآن وحفظه الناس في صدورهم كانوا يقرأونه على وجوه

مختلفة بحسب لغاتهم وللعرب لغات متعددة افصحها سبعة وارجحها كلها لغة قريش ورخص للناس ان يقرأوا القرآن بلغاتهم فوقع الخلاف بين الصحابة في بعض الآيات باختلاف وجوه القراءة فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان هذا القرآن نزل على سبعة احرف. فصارت وجوه القراءة فى الامصار مختلفة باختلاف لغاتهم مع اختلاف مأخذهم فأهل البصرة اخذوا القرآن من أبي موسى الاشعرى . واهل الكوفة قرأوه بقراءة عبدالله بن مسعود واهل دمشق قرأوا بقراءة ابي بن كعب واهل حمص اخذوا القرآن من المقداد وقرأوا بقرأته وكان كل قطر يدعي انه اهدى سبيلا فى قراءته فخشي عثمان هذا الاختلاف لجمل القراءة بلغة قريش دون غيرها . ولكن لم يمض على امره هذا غير زمن قصير حتى عاد الناس الى ما كانوا عليه من الاختلاف فى القراءة يتبع كل قطر قارئا ويثق به ثم استقر امر الناس على سبع قراءات معينة تواتر نقلها من القراء . واصحاب هذه القراآت هم (نافع بن ابي رؤيم) و (يزيد ابن القعقاع) في المدينة و (عبد الله ابن كثير) فى مكة . و (ابو عمرو بن العلاء) و (يعقوب الحضرمي) فى البصرة . و (عاصم بن ابى النجود) و (حمزة بن حبيب الزيات) و (على الكسائى) و (خلف البزاز) فى الكوفة وكان يوجد غير هؤلاء من يقرأ قراءات كثيرة المخالفة سميت بالقراءات الشاذة . على ان القراآت السبع قد اصعدت الى عشر وعدت كلها اصولا للقراءة . وهى كلها جائزة يصلى بها على السواء بخلاف الشاذة

واختلاف القراءات العشر منحصرة في اختلاف الالفاظ في الحروف او فى كيفيتها من تخفيف او تشديد وغيرها كما فى قوله تعالى (فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) قرأها ابن ذكوان بتشديد النون على انها للتوكيد ولا ناهية وقرأ غيره بتخفيفها على انها للرفع ولا نافية . وكقراءتهم قوله تعالى (لتكون لمن خلفك آية) وابدال بعضهم الفاء بقاف فقرأوها (لتكون لمن خلقك آية) اما القراءة الشاذة فتكون بتغيير ذات الالفاظ فى بعض المواطن مما يغير معنى الآية ولا تجوز بها الصلاة . وقد تم ما اردنا ايراده فى هذه المقدمة وسنتبعها بفهرست عام للقرآن الكريم يستطيع بواسطته الباحث والكاتب ان يجد جميع الآيات القرآنية الواردة فى كل موضوع على حدتها . والحمد لله اولا وآخراً وصلى الله وسلم على خاتم انبيائه وعلى كل عبد صالح